

خدمات الوقف الإسلامي

وآثاره في مناحي الحياة

الدكتور
رعد محمود أحمد البرهاوي





رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

خدمات الوقف الإسلامي

وآثاره في مناحي الحياة

الدكتور

رعد محمود أحمد البرهاوي

دار الكتاب الثقافي

الأردن — إربد

بسم الله الرحمن الرحيم

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٥ / ٩/٢٢٤٤)

٢١٦,٤

البرهاوي، رعد

خدمات الوقف الإسلامي وآثاره في مناحي الحياة/رعد محمود أحمد البرهاوي.- عمان: دار الكتاب الثقافي، ٢٠٠٥

(...) ص.

ر.أ (٢٢٤٤ / ٩ / ٢٠٠٥).

الواصفات:/ الإسلام//الوصية//الميراث/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر (٢٢٤٤/ ٩ /٢٠٠٥)



دار الكتاب الثقافي

للطباعة والنشر والتوزيع

الأردن / إربد

شارع إيدون إشارة الإسكان

تلفون

(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٦١٦١٦)

فاكس

(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٥٠٣٤٧)

ص.ب (٢١١-٦٢٠٣٤٧)

Dar Al-Ketab

PUBLISHERS

Irbid - Jordan

Tel:

(00962-2-7261616)

Fax:

(00962-2-7250347)

P. O. Box: (211-620347)

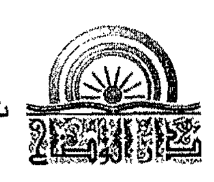
E-mail:

Dar_ Alkitab1@hotmail.Com



دار المتنبي للنشر والتوزيع

الأردن – إربد – تلفاكس: (٧٢٦١٦١٦)



دار الوضاح للنشر والتوزيع

الأردن – عمان

ت : ٠٠٩٦٢٦٤٦١٣٠٧٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ ﴾

{المزمّل: ٢٠}





فهرست المحتويات

المقدمـــة

تعتبر الأوقاف إحدى الصفحات الناصعة في سجل الحضارة العربية الإسلامية، إذ عملت على إيجاد واستمرار منظومة من المؤسسات المتكاملة، في كافة الميادين الحيوية للمجتمع من تعبدية وتعليمية وجهادية وصحية واجتماعية وغيرها .. وتأمين مصادر الدعم السخي لها. ولم يكن الوقف حكراً على الخلفاء والسلاطين والوزراء وبقية رجال الدولة، وإنما كان الأشخاص الموسرين رجالاً ونساءً يدفعهم إيمانهم إلى إيقاف بعض أموالهم لأغراض البر، وبذلك يمكن القول، إن الوقف جسد الشعور الفردي بالمسؤولية الجماعية. وهذا ما قلدهم به أثرياء الغرب الأوربي والأمريكي فيما بعد، عندما يلاحظ المرء قسماً من مؤسساتهم التعليمية والاجتماعية والصحية ومراكز البحوث المتنوعة تتلقى الدعم والتمويل الماليين من خلال الوصايا التي أوصى بها هؤلاء ببعض أموالهم، لهذه المؤسسات. وبذلك ساهموا إلى جانب الأجهزة الحكومية في دعم المؤسسات الحيوية في المجتمع. وهو ما نحن بأشد الحاجة إليه اليوم في مجتمعاتنا الفتية الناهضة.

كما وتعتبر الأوقاف من المواضيع الحضارية التي لم تنل لحد الآن الاهتمام اللائق بها ولا يزال ما قدم من قبل الباحثين، في هذا المجال محدوداً، ومقتصراً بالدرجة الأولى على دراسة الأحكام والمسائل الفقهية المتعلقة بالوقف، أكثر من دراسة المؤسسات التي أنشأت في ظله[1]. ومما زاد الطين بلة أن مؤلفات الفقهاء المسلمين عن الأوقاف، فقد معظمها ولم يصل إلينا منها إلا النزر اليسير[2]. فقد أشار ابن النديم[3] إلى أن محمد بن الحسن الشيباني تلميذ الإمام أبي حنيفة النعمان ت ٧٦٧م،١٥٠هـ ألف كتاباً في الوقوف والصدقات، كما ألف الإمام الشافعي ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م والآخر كتاباً في الأوقاف وقد فقد كلاهما.

إن أهمية دراسة المؤسسات الوقفية، تكمن في أنها تتيح لنا الاطلاع على الإنجازات العظيمة لأمتنا ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ في محاور، لم تتوصل إليها الحضارة الغربية لحد الآن رغم تفوقها التكنولوجي وإمكانياتها المالية الهائلة، وهو ما يجب

(١) ينظر مثلاً الكبيسي، أحكام الوقف، الخطيب، الوقف والوصايا، بدران، أحكام الوصايا والأوقاف، مدكور، موجز الوقف، رضا، أحكام الأوقاف، العاني، أحكام الأوقاف.

(٢) وصل الدنيا بصورة كاملة، كتابي، الخصاف، أحكام الأوقاف، الطرابلسي، الإسعاف، ومن الكتب المفقودة، كتابي الهداية في الوقف، وأحكام الوقف، لهلال بن يحيى القرشي، الجواهر: ٢/ ٢٠٧.

(٣) الفهرست: ص٢٠٤،٢١٠.

أن يحفزنا من أجل تطوير الابتكارات الرائعة لحضارتنا- بما يتناسب ومرحلة النهوض الحضاري الجديد الذي تشهده الأمة، وسط خضم التحديات المتنوعة الداخلية والخارجية.

كما أن من الأهداف المهمة التي تسعى إلى تحقيقها هذه الدراسة بأذن الله تعالى، هي إعادة فتح موضوع الأوقاف الإسلامية من جديد، وبروح إيجابية تأخذ بنظر الاعتبار المتغيرات السياسية والفكرية والاقتصادية التي تسود العالمين العربي والإسلامي، والصراع العلني أحياناً والخفي في معظم الأحيان مع عالم الغرب المتفوق تقنياً وعسكرياً واقتصادياً لاسيما في ظل نظام العولمة[1] الذي تقوده الولايات المتحدة، والذي يهدف ليس فقط إلى السيطرة على الموارد الاقتصادية للعالم الثالث فحسب بل وفرض معتقداته وقيمه وسلوكياته الحضارية على الحضارات الأخرى، وخاصة الحضارة العربية الإسلامية، الأقرب جغرافياً، والأقوى حيوية وقابلية على الصمود والنصر، فضلاً عما تختزنه الذاكرة التاريخية الأوربية من صور الصراع الذي دار سجالاً بين الطرفين ولم ينقطع طيلة أربعة عشر قرناً.

إن ضعف الاستقرار السياسي واحترام القانون والمؤسسات، وسيطرة دعاة التغريب بشقيه الرأسمالي، والاشتراكي المتعدد الألوان، على مقدرات الأمور، في معظم الأقطار العربية والإسلامية، قد أدى إلى عزل أهل البر والتقوى والإحسان، عن الوقف الإسلامي لاسيما بعد أن صدرت الكثير من القوانين التي ألغت الأوقاف بصورة عملية و حجمتها إلى حد كبير كما حدث في مصر في عهد محمد علي سنة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٥م والذي سيطر على الأوقاف بحجة قيامه بدلها بتمويل حاجة المؤسسات الوقفية المختلفة[2] ورغم أنه سمح فيما بعد في مصر بإعادة الأوقاف من جديد بصورة قانونية عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٥م وأنشأ لها ديوان سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م لحماية الأوقاف على جهات البر ومراعاة شروطها، إلا أن ثورة ٢٣تموز ١٣٧٢هـ، ١٩٥٢م ألغت الأوقاف الذرية، وألحقت الأوقاف العامة بوزارة للأوقاف[3] ولم تراع الشروط الوقفية واعتبرت إيرادات للدولة. كما حدث في بقية الدول في معظم الأحيان.

---

(١) العولمة: هي دعوة إلى تبني نموذج الحياة الأمريكية في السياسة والاقتصاد والاجتماع وفي طريقة الحياة بشكل عام. ويعود ذلك إلى وجود فكرة تبشيرية ظاهرة في الأدبيات والمصادر الرسمية الأمريكية. محمد، آليات العولمة، مجلة قضايا سياسية العدد الثاني ٢٠٠٠: ص١٩١.

(٢) أبو زهرة، محاضرات في الوقف: ص٢٨-٢٩.

(٣) المرجع نفسه: ص٣٣-٣٤،٤٤.

وفي العراق نجد أن سلطات الانتداب البريطانية لجأت منذ عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م إلى تحجيم الأوقاف الإسلامية، وتعين أحد رجال سلطات الانتداب للإشراف عليها وهو المستركوك، والذي عاث فساداً فيها، ثم خلفت الدولة العراقية، حكومة الانتداب في الإشراف على الأوقاف، وحدثت اعتداءات صارخة على شروط الواقفين، وعلى أموال الأوقاف، وبذلك لم تعد تؤدي دورها في تمويل العلماء والمدارس والمساجد والمؤسسات الأخرى[1].

وفي المغرب العربي نجد أن الاستعمار الفرنسي مارس سياسة منظمة في تدمير الأوقاف الإسلامية ففي الجزائر صودرت أملاك الأوقاف منذ عام ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م، أي بعد ثلاثة عشر سنة من الاحتلال[2] وفي تونس قام الفرنسيون خلال عامي ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م، و ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م، بالسيطرة على معظم أراضي الأوقاف

وأكملوا السيطرة عام ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م وأعطوها للمستعمرين الفرنسيين[3] في حين نجد أن نجاحهم في المغرب كان أقل مما حدث في الجزائر وتونس لتأخر السيطرة واختلاف الظروف[4]. ولم تكن أموال أوقاف الشام أفضل حالاً في ظل الاستعمار[5].

من أهم المشاكل التي جابهت الباحث، هو أن مادة البحث متفرقة في شتى الكتب من تاريخية وفقهية، وأدبية، وحديثية، وجغرافية، فضلاً عن تداخل خدمات مؤسسات الأوقاف، فقد يكون في المدرسة رباطاً ومستشفاً في آن واحد، مع مكتب لتعليم الصبيان ومكتبة. وقد يقوم الرباط بتقديم خدمات جهادية، وتعليمية، واجتماعية، فضلاً عن خدماته في ميدان العبادة. كما لم تتح الفرصة للباحث لزيارة المكتبات الإسلامية الكبرى في استنبول والقاهرة ودمشق وفاس والرباط وتونس، ومكة والمدينة، وغيرها من المكتبات العريقة للإطلاع على ما فيها من نوادر المخطوطات، فضلاً عن الكتب المحققة التي تخدم البحث، وحجيات الوقفيات التي تحدد شروط الوقف، وملكية الوقف وإدارته، والتي لم يطلع الباحث إلى على القليل منها.

---

(١) المشايخي/ الإمام أمجد: ص١٦-١٧.

(٢) الجيلالي، تاريخ الجزائر: ٤/ ٢٩٧.

(٣) عبد الباقي، شرح: ص٢٦، الشريف، أضواء على تاريخ تونس: ص١٠٦-١٠٧.

(٤) واتربوري، الملكية والنخبة: ص٣٩-٤٦.

(٥) عبد الباقي، المرجع السابق: ص٣٥.

أما المساحة الجغرافية للبحث، فقد شملت في إطارها العام دار الإسلام التاريخية[1]. وإن كان معظم ما قدم جاء من العراق والشام ومصر والشرق الإسلامي بالدرجة الأولى، بقدر ما أسعفت المصادر. في حين امتدت المساحة الزمنية إلى نهاية القرن العاشر الهجري.

قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، تناول الفصل الأول الوقف قبل الإسلام، ومشروعية الوقف في الإسلام، وأول من أوقف، ونصوص وقفيات بعض الصحابة، وأحكام وشروط الوقف، وطبيعة المال الموقوف، وأنواع الوقف وإدارته والمخاطر التي تعرض لها عبر مسيرته الطويلة.

في حين تناول الفصل الثاني، الأوقاف التعبدية، وتشمل الجوامع، وخدمات الحرمين الشريفين، مكة والمدينة، والربط، والخانقاه، والزوايا، والمشاهد (الترب).

أما الفصل الثالث فقد تناول الأوقاف التعليمية، ويشمل المدارس، ودور القرآن والحديث ومكاتب تعليم الصبيان الأيتام والفقراء ودور العلم والمكتبات ، فضلاً عن المؤسسات التعليمية المرتبطة بالمساجد والخانقاه.

وتناول الفصل الرابع الأوقاف الجهادية والاجتماعية، وشملت الأوقاف الجهادية أوقاف الأربطة والأسطول والأسلحة والخيول ووقف الأسرى أما الأوقاف الاجتماعية فقد شملت وقف الأربطة والخانات والبيوت ودور الضيافة ووقف الخبز والطعام ودور المطلقات والمهجورات والأرامل والعميان، وأوقاف اللقطاء وأبناء السبيل. ووقف تكفيف الموتى ودفنهم، ووقف مياه الشرب، ووقف الحلي والملابس والحمامات، وأوقاف الجسور والقناطر.

أما الفصل الخامس فقد تناول الأوقاف الصحية وتشمل المستشفيات والتي سميت في مصادرنا (البيمارستان) أو (المارستان)، والخدمات الثرة التي كانت تقدمها سواء على صعيد الفحص أو الدواء، فضلاً عن الأكل والرعاية الكاملة، والحق بهذا الفصل أوقاف

---

(١) يقصد بدار الإسلام التاريخية، المناطق التي انتشر فيها الإسلام واستظلت بسلطة إسلامية من الأندلس غرباً وإلى الشرق الإسلامي الرحيب، ومما دعاني إلى العودة إلى هذا المصطلح الإسلامي العريق القائم على تقسيم العالم إلى دار إسلام، ودار حرب، ودار صلح وعهد. هو أن عالمنا اليوم وخاصة في ظل العولمة، يؤكد على النظرة الشمولية القائمة على التوحد وعلى نسيان خلافات الماضي، وليس إحياء الخصومات ذات الطابع المتحفي، والتأكيد على المصالح الطويلة الأمد، أكثر من المصالح الآنية القصيرة.

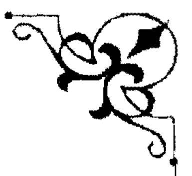
متفرقة، فضلاً عن أوقاف الحيوانات، والتي تشكل نقطة أخرى ساطعة في حضارتنا العربية الإسلامية.

وأخيراً فقد ختم البحث بخاتمة تضمنت النتائج التي توصل إليها الباحث مع المقترحات والله أسأل أن يجعل هذا الجهد في سجل حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. وأن يفيد به الأمة في مرحلة نهوضها وبنائها لمشروعها الحضاري المبارك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. رعد محمود أحمد البرهاوي

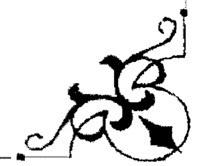
الموصل/العاشر من رجب ١٤٢١هـ





الفصل الأول

نشوء الوقف وأحكامه وأنواعه وإدارته والمخاطر التي تعرض لها عبر التاريخ



نشوء الوقف

الوقف لغة واصطلاحاً:

* **الوقف لغة**: هو الحبس والمنع[1].
* **واصطلاحاً**: هو حبس العين على ملك الواقف والتصدق بالمنفعة[2].

ويلاحظ أن معظم المحدثين استخدموا مصطلح الوقف أثناء تبويبهم للموضوع[3]. في حين يلاحظ أن قسماً من الفقهاء استخدموا مصطلح الأحباس[4]، بينما حذا القسم الآخر حذو المحدثين فظل يستخدم مصطلح الوقف[5] كما نجد استخدام مصطلح ثالث بصورة أقل وهو الصدقات[6]. وقد استقر مصطلح الوقف وشاع استخدامه مع مرور الزمن في الشرق الإسلامي سواءً لدى المؤرخين أو الفقهاء، بينما شاع مصطلح الأحباس لدى أهل الغرب الإسلامي في المغرب والأندلس[7].

الوقف قبل الإسلام:

عرفت حضارة مصر القديمة، ما يشبه نظام الأوقاف، فقد أوقفوا على الأسرة والأولاد، واشترطوا إدارتها من قبل الأخ الأكبر، فهي تشبه الوقف الأهلي. كما أوقفوا على بعض الكهنة، أملاكاً واسعة، كما حدث في عهد رمسيس الثاني[8]. وبذلك يبدو واضحاً للعيان، أن هذه الأوقاف لا تأخذ طابع الخدمات العامة، التي يستفيد المجتمع منها بشتى شرائحه.

---

(١) ابن دريد، جمهرة: ٣/ ١٥٦؛ ابن منظور، لسان العرب: ٩/ ٣٥٩.

(٢) السرخسي، المبسوط: ١٢/ ٢٧: ابن مردود، الاختيار: ٣/ ٤٠؛ الحجاوي، الاقناع: ٣/ ٢: الطرابلسي، الإسعاف: ص٣: وينظر يكن، الوقف: ص٧: النيل، مفتاح الدراية: ص٢٦.

(٣) البخاري، الصبيح مع فتح الباري: ٥/ ٤٧٦-٤٨٥: مسلم، الصحيح بشرح النووي: ١١/ ٨٥-٩٧: أبو داؤد، سنن: ٣/ ١١٦، ويقارن النسائي، صحيح: ٢/ ٧٦٢.

(٤) مالك، المدونة: ٦/ ٩٨: الشافعي، الأم: ٤/ ٥١-٥٨.

(٥) ابن قدامة، المغني: ٦/ ١٨٥: ابن الهمام، شرح فتح القدير: ٥/ ٣٧.

(٦) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١٠/ ٣١٠.

(٧) القاضي عياض، ترتيب المدارك: ٣/ ٢٤٣.

(٨) مذكور، موجز الوقف: ص٦.

أما حضارة وادي الرافدين القديمة، فبرغم الدور الاقتصادي الكبير الذي كان يتمتع به المعبد، حيث كان يزاول التجارة وإدارة الأعمال والفعاليات الحرفية[1]، وبرغم ما كانت تتلقاه هذه المعابد، فضلاً عما ذكر من منح وهبات من الحكام والمواطنين على حد سواء[2]. فلم تشر الكتابات المسمارية إلى أية إشارة، تتعلق بالوقف بمفهومه المعروف، أو ما يشابهه.

في حين نجد أن الهندوس، في الحضارة الهندية القديمة، كانت لديهم أوقاف على معابدهم، حيث يشير ابن كثير[3] إلى أن معبد سومنات، والذي كان يعادل عندهم قدسية الكعبة المشرفة، عند المسلمين كانت ترفده إيرادات عشرة آلاف قرية، ومدينة مشهورة، وكان يعيش على أوقافه الكثيرون.

ويبدو أن إيرادات هذه الأوقاف، كانت تصرف على الكهنة، وبقية رجال الدين الذين يخدمون المعبد، وليس على فئات أخرى من أبناء المجتمع. كما عرف عند الرومان بدورهم، وجود أوقاف تقوم على رعاية الفقراء والعجزة[4].

وعرفت الديانة اليهودية، أوقافاً خصصت للأضرحة المقدسة لديهم، فضلاً عن مكتبات وقفية، حيث كانت تمولها، أوقاف عقارية وأراضي زراعية، وقد صانت السلطات الإسلامية في دار الإسلام، هذه الأوقاف عبر التاريخ[5].

أما الديانة النصرانية، فقد عرفت هي الأخرى الأوقاف، وقد ورد في كتاب موافقة الخليفة المقتدي العباسي ت ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م على يقين الجاثليق عبد يشوع الثالث المعروف.

بابن المقلي في منصب زعيم الطائفة النصرانية، أنه يشرف على أوقاف النصارى[6]. وأشار الإدريسي[7] إلى أن كنيسة الغراب في الأندلس، كانت تقدم الطعام لمن يمر بها، ولها أموال موقوفة عليها في دول أوربا. ويشير ابن اياس[1] إلى أن أوقاف

(١) رشيد، المعتقدات الدينية، حضارة العراق: ١/ ١٨٩-١٩٠؛ اوتس، بابل: ص٢٦٣.
(٢) كيرا، كتبوا على الطيف: ص١٠١-١٠٧.
(٣) البداية والنهاية: ١٢/ ٢٢٠.
(٤) الكبيسي، الوقف: ص٢٥.
(٥) التطيلي، رحلة: ص١٤٣-١٤٤.
(٦) روفائيل، أحوال نصارى بغداد: ص٥٤.
(٧) جغرافية: ٥/ ٥٤٤.

أموال موقوفة عليها في دول أوربا. ويشير ابن اياس[1] إلى أن أوقاف النصارى، على الكنائس كانت مسجلة أيضاً في ديوان الأحباس والأوقاف في عهد المماليك، وقد بلغت مساحة الأراضي الموقوفة للنصارى في عام ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م مائة وخمس وعشرين ألف دونم، صودرت في عهد السلطان حسن، ووزعت على الأمراء، إقطاعيات لهم.

أما عرب الجاهلية قبل الإسلام، فلم يعرفوا الوقف، حيث أشار الشافعي[2] إلى أنهم لم يوقفوا "داراً على ولد، ولا في سبيل الله، ولا على مساكين...".

مشروعية الوقف في الإسلام:

إن الأدلة على مشروعية الأوقاف كثيرة، ففي كتاب الله الكريم، نجد قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ {آل عمران: ٩٢} وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ {المزمل: ٢٠} أما في السنة النبوية المطهرة، فقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله "إذا مات ابن آدم انقطع عمله، إلا من ثلاث إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"[3]. كما ورد عنه أيضاً "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه أو قال جاره ما يحب لنفسه"[4].

ورغم هذه الأدلة الكثيرة، فإن بعض الفقهاء، لم يجيزوا الوقف، أو توقفوا فيه فقد كان شريح القاضي[5] لا يرى مشروعية الوقف، من حيث عدم وروده مباشرة في كتاب الله "لا حبس في كتاب الله"[6] وسار على خطاه الإمام أبو حنيفة الذي كان لا يرى للوقف أصلاً، غير أن تلميذه أبا يوسف، أثبت بعده مشروعية الوقف بعد أن سمع الإمام مالك بن أنس، يحدث عن وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورأى أوقاف الصحابة رضي الله عنهم في المدينة المنورة، ونواحيها، أثناء حجة مع الخليفة العباسي الرشيد، فأفتى بلزوم الوقف[7].

---

(١) تاريخ: ١/ ٢٠٦.

(٢) الأم: ٤/ ٥٢: وينظر النووي، تهذيب: قسم٢، ح٢: ص١٩٤.

(٣) مسلم، صحيح ٥/ ٧٣.

(٤) البخاري مع فتح الباري: ١/ ٧٨، مسلم، صحيح: ١/ ٤٩.

(٥) هو شريح ابن الحارث الكندي قاضي الكوفة، تولى القضاء لعمر وعثمان وعلي (رض) ومعاوية وظل قاضياً إلى أن توفي عام ٧٨هـ/ ٦٩٧م. ابن كثير، المصدر السابق: ٩/ ٢٢-٢٦.

(٦) لقاضي عياض، المصدر السابق، ١/ ٢٢٢: علماً بأن حديث لاحبس في كتاب الله، مطعون في سنده، وهو ليس حجة لأصحابه، بدران، المرجع السابق: ص٥.

(٧) السرخسي، المصدر السابق: ١٢/ ٢٨: الطرابلسي، المصدر السابق: ص٣.

ورغم ذلك ظل بعض تلامذة أبي حنيفة، على رأي أستاذهم، فها هو إسماعيل بن اليسع، قاضي مصر في عهد الخليفة العباسي المهدي، كان يرى إبطال الوقف، وقد دفع موقفه هذا فقيه مصر الليث بن سعد[١] إلى أن يقترح على الخليفة عزله عن قضاء مصر فعزله[٢]. ومع كل هذا فقد تبنى الفقهاء الأحناف موضوع الوقف بحيث تعتبر كتاباتهم من أهم ما ألف في الموضوع[٣]، مثل كتاب الخصاف[٤] وهلال بن يحيى[٥] والناصحي[٦]، وبذلك يمكن القول، أن معظم الفقهاء، قد أجمعوا على مشروعية الوقف، وهذا ما عبر عنه ابن قدامه[٧] بقوله "أكثر أهل العلم من السلف ومن بعدهم، على القول بصحة الوقف، قال جابر لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ ذو مقدرة إلا وقف...".

أول من أوقف:

هناك خلاف حول أول من أوقف في الإسلام، فالأنصار يشيرون إلى أن الرسول ﷺ هو أول من أوقف[٨]، بينما يشير المهاجرين إلى أن عمر ﷺ هو أول من أوقف وكانت صدقات (أوقاف) رسول الله ﷺ ثمانية الأولى وهي سبع حوائط (بساتين) من أموال مخيريق اليهودي، الذي آمن بالرسول ﷺ، واستشهد يوم أحد، بعد أن أوصى بأمواله للرسول ﷺ، وكانت أسماء هذه البساتين، الأعراف، والصافية، والدلال، والميثب، وبرقة، وحسنى، ومشربة أم إبراهيم[٩]. في حين كانت الصدقة الثانية، أرضه من أموال بني النضير بالمدينة، والصدقة الثالثة والرابعة والخامسة، ثلاثة حصون من خيبر،

---

(١) هو إمام أهل مصر في الفقه والحديث، كان مولى قيس بن رفاعة، وكان من الكرماء الأجواد ولد سنة ٩٢هـ/ ٧١٠م وتوفي سنة ١٧٥هـ/ ٧٩١م ابن خلكان، المصدر السابق: ٤، ١٢٧-١٢٨.

(٢) القرشي، المصدر السابق: ١/ ١٦١: ابن حجر، رفع الأصر: ص١٢٦.

(٣) الكبيسي، المرجع السابق: ١/ ٤.

(٤) هو فقيه حنفي، معاصر للخليفة المهتدي العباسي ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م، اللكلهنوي، الفوائد البهية: ص٢٩.

(٥) هو فقيه حنفي من تلامذة أبي يوسف وزفر، له كتاب في أحكام الوقف ت ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م، القرشي، المصدر السابق: ٢/ ٢٠٧.

(٦) هو أحمد بن محمد الناطفي ت ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م، اختصر كتابي الخصاف وهلال وسماه مختصر في الوقوف، وألف كتاباً في الأحباس والفروق والواقعات. القرشي، المصدر نفسه: ١/ ٢٧٥: الكلهنوني؛ المصدر السابق: ص٣٦: الكبيسي، المرجع السابق: ١/ ٤.

(٧) الشرح الكبير: ٦/ ١٨٥.

(٨) الخصاف، المصدر السابق: ص٤-٥.

(٩) أبو يعلى، الأحكام: ص١٩٩: الماوردي، الأحكام: ص٢١٣، وتشير رواية كل من الخصاف، والطرابلسي، إلا أن هذه الحوائط هي من أموال بني النضير، الأحكام: ص٢: الإسعاف: ص٦٠.

من أصل الحصون الثمانية. وهي الكتيبة والوطيح والسلالم. في حين كانت الصدقة السادسة، النصف من فدك، والسابعة الثلث من وادي القرى، والثامنة موضع بسوق المدينة يقال له (مهروز)[1].

أما وقف عمر ﷺ فقد كانت أرضاً زراعية هي ثمغ، من أراضي يهود بني حارثة في المدينة[2]. فضلاً عن أرض بخيبر حصل عليها بعد فتحها سنة ٦هـ/م حيث يشير البخاري[3]أصاب عمر بخيبر أرضاً فأتى النبي ﷺ فقال أصبت أرضاً لم أصب مالاً قط أنفس منه فكيف تأمرني به قال أن شئت حبست أصلها، وتصدقت بها، فتصدق بها عمر أنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث، في الفقراء والقربى والرقاب وفي سبيل الله، والضيف لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، أو يطعم صديقاً، غير متمول فيه.

وقد ثبت عمر ﷺ وقفه هذا أثناء خلافته، من خلال كتابته له بمحضر من بعض المهاجرين والأنصار أشهدهم عليه، وقد تولت حفصة أم المؤمنين (رضي الله عنها) الإشراف على وقف أبيها، عبر وصية منه، ثم يليها بعد ذلك الأرشد من آل الخطاب[4] وقد أصبحت هذه قاعدة، فيما بعد لمن أوقف بعد عمر، إذ عليه أن يسجل وقفه لدى كتاب السجلات والوثائق، وتحفظ لدى القضاة[5] وكان على كتاب حجج الوقف أن يتموا السطر ولا يتركونه فارغاً خوفاً من أن يضاف شرط جديد إلى الشروط التي وضعها الواقف[6].

---

(١) أبو يعلى، المصدر السابق: ص١٩٩-٢٠١: الماوردي، المصدر السابق: ص٢١٣-٢١٥.

(٢) أحمد، المسند: ٩/ ١٧٨.

(٣) الصحيح مع فتح الباري: ٥/ ٢٠١: وينظر أحمد، المصدر السابق: ٩/ ١٧٨، النسائي، صحيح سنن: ٢/ ٧٦٢، مسلم، صحيح مع شرح النوري: ١١/ ٨٥-٨٧، ابن ماجة، سنن: ٢/ ٨٠١: ابن حبان، الإحسان: ٧/ ٢٠١، ابن حزم، المحلى: ٩/ ١٨٠: السرخسي، المصدر السابق: ١٢/ ٣١، ابن الجوزي، مناقب عمر: ص٢٠٩.

(٤) الخصاف، المصدر السابق: ص٦: ابن قدامة، الشرح الكبير: ٦/ ١٩٩، الطرابلسي، المصدر السابق: ١٢/ ٣١: ويشير الخطيب البغدادي إلى أن عبيد الله بن عمر بن عمر بن الخطاب ﷺ كان يلي صدقات (أوقاف) جدّه في عهد الرشيد. تاريخ بغداد: ١٠/ ٣١٠.

(٥) ابن النديم، المصدر السابق، ص٢٠٧.

(٦) ابن جماعة، تحرير الحكام: ص٢٥٥.

ونظرة إلى المحاور التي أوقف عليها عمر، يلاحظ أنها تشمل ميادين مختلفة، فالمحتاجين والعبيد، وأبناء السبيل، والضيوف، فضلاً عن ذوي القربى، ومن يتولى إدارة الوقف، لهم حق الاستفادة من هذا الوقف، وبذلك يمكن القول أن أوقاف عمر ﷺ، جمعت بين الوقف العام، والوقف الذري.

وقد سار على نهج الرسول ﷺ، وعمر ﷺ، بعض الصحابة الكرام ﷺ فها هو أبو بكر الصديق ﷺ يوقف داره على أولاده، وعثمان ذي النورين ﷺ يوقف ماله بدومة الجندل[1] وعلي كرم الله وجهه يوقف أرضه بينبع ووادي القربى. وتصدق الزبير حواري رسول الله ﷺ بداره في مكة، وداره في مصر، وأمواله بالمدينة على أولاده[2] وأوقف خالد بن الوليد ﷺ دروعه وأعتاده في سبيل الله[3] ووقف خالد يتناسب مع اهتماماته العسكرية، وحبه للجهاد في سبيل الله. كما أوقف ثوبان مولى رسول الله ﷺ في بيته في مدينة حمص، على فقراء قبيلة ألهان اليمنية[4].

يلاحظ إن المعلومات الواردة عن هذه الأوقاف المبكرة محدودة نظراً لمحدودية الإمكانيات أولاً، ولبساطة الحياة ثانياً، فضلاً عن أن العصر الراشدي، شهد انتعاشاً اقتصادياً هائلاً في الفترات اللاحقة، بفضل الفتوحات الإسلامية، وتدفق الأموال على المدينة المنورة، لذلك يلاحظ أن أكثرها مما يسمى بالوقف الذري، كما أن المصادر لم تورد شيئاً، عن الأرقام المتعلقة بإيرادات هذه الأوقاف، سوى ما ورد عن إيراد وقف الإمام علي ﷺ في ينبع، والذي كان يدر ألف وسق[5] في السنة[6].

---

(١) يشير ياقوت إلى أن عثمان ﷺ أوقف أيضاً قرية سلوان في ضواحي القدس على فقراء بيت المقدس. معجم البلدان: ٣/ ٢٤١.

(٢) ابن قدامة، المغني: ٦/ ١٨٦: الخصاف، المصدر السابق: ص٩-١٠: علماً بأن أمهات المؤمنين قد أوقفوا بدورهم أيضاً. الخصاف، المصدر نفسه: ص١٤.

(٣) مسلم، صحيح: ٣/ ٦٨: وينظر البخاري، مع فتح الباري: ٥/ ٥١٠.

(٤) الذهبي، سير: ٣/ ١٦.

(٥) يشير القرشي إلى أن اوسق هو ستون صاعاً، بينما يشير الفيروزآبادي إلى أن الغامد الخراج: الوسق ص١٣٩: القاموس المحيط: ٣/ ٣٨٩: علماً بأن هنتس أشار إلى أن الصاع هو ٣,٢٤٥كغم والوسق هو ١٩٤,٣كغم، المكاييل والأوزان: ص٦٣،٧٩.

(٦) الطرابلسي، المصدر السابق: ص٧-٨.

وقد حاول الخليفة معاوية بن أبي سفيان شراء وقف ينبع بـ (٢٠٠) ألف دينار من الحسين بن علي ﷺ، مستغلاً أزمة مالية ألمت به، إلا أن الحسين رفض العرض قائلاً "إنها تصدق بها أبي ليقي الله بها وجهه حر النار ولست بائعهما بشيء"[١].

ولعل أهم حدث يشير إلى الأوقاف في العصر الراشدي، كان إيقاف أراضي السواد في العراق، على الأمة، وعدم توزيعها على المجاهدين الذين فتحوها[٢] والذي كان اجتهاداً هدى الله عمر وصحابة المصطفى ﷺ إليه[٣] ويشير الخطيب البغدادي[٤] إلى أن جماعة من العلماء منعوا بيع أراضي السواد لكونها موقوفة.

نصوص وقفيات بعض الصحابة:

جاء في نص وقفية عثمان ﷺ "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تصدق به عثمان بن عفان في حياته، وتصدق بماله الذي بخيبر، يدعى مال ابن أبي الحقيق، على أبنه أبان بن عثمان صدقة بتة بتلة[٥]، لا يشتري أصله أبداً ولا يوهب ولا يورث، شهد علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد وكتب..."[٦].

أما نص وقفية الإمام علي ﷺ فكان "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تصدق به عبد الله علي أمير المؤمنين، تصدق بالضيعتين المعروفتين بعين أبي نيزر، والبغيبغة، على فقراء أهل المدينة، وابن السبيل، ليقي الله بها وجهه حر النار يوم القيامة، لا تباعا ولا توهبا، حتى يرثها الله وهو خير الوارثين، إلا أن يحتاج إليهما الحسن أو الحسين فهما طلق لهما وليس لأحد غيرهما"[٧]. كما ورد في نص آخر "... تصدق بها على الفقراء والمساكين وابن السبيل القريب والبعيد في السلم والحرب، يوم تبيض وجوه، وتسود وجوه، ليصرف الله النار عن وجهه بها"[٨].

---

(١) المبرد، الكامل: ٣/ ١٠٨؛ ياقوت، معجم البلدان: ٤/ ١٧٥-١٧٦.
(٢) أبو يوسف، الخراج: ص٣٥.
(٣) ينظر للمزيد الشافعي، الأم: ٤/ ٢٧٩-٢٨٠.
(٤) المصدر السابق: ١/ ٤.
(٥) بتة بتلة: البتت هو القطع أي الوقف هنا لا رجعة فيه، الرازي، الصحاح: ص٣٩.
(٦) الخصاف، المصدر السابق: ص٩، الطرابلسي، المصدر السابق: ص٧.
(٧) المبرد، المصدر السابق: ٣/ ٢٠٨، ياقوت، مصمم البلدان: ٤/ ١٧٥-١٧٦.
(٨) الخصاف، المصدر السابق: ص٩-١٠؛ الطرابلسي، المصدر السابق: ص٧؛ وقد ظلت هذه الأوقاف بيد ذرية الإمام علي ﷺ حيث أشار ابن حوقل إلى أشرافهم عليها. صورة الأرض: ص٤٠.

أما نص وقفية الزبير "جعل دوره على بنيه لا تباع ولا تورث ولا توهب وأن للمردودة من نباته، أن تسكن غير مضرة ولا مضر بها، فإذا استغنت بزوج فليس لها حق"[1].

وجاء في وقفية السائب بن أبي وداعة[2] في داره التي بالمدينة، وداره في مكة "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قضى السائب بن أبي وداعة، في داره التي بالمدينة وداره التي بمكة، في حرمات الله، وبمكة الكعبة، أنهما صدقة مسكنهما إلى ذي الرأي من ولدي، يسكن ويُسكن ولدي غير مردود عليه قضاء من قريب أو بعيد عليه من الناس، بعد قضائي الذي قضيت فيها، إلا أن يبدو للسائب، أن يحدث أمراً يتبع الخير الذي حجبهما له فإن لم يحدث السائب فيهما أمراً في حياته فإنه لا يحلهما بالله لبائع ولا مبتاع شهد على ما قضى السائب في داريه، عمرو بن عثمان، وعبد الرحمن بن الأزهر، وعبد الملك بن مروان، والمسور بن مخرمة، وعبد العزيز بن مروان ونوفل بن عدي، وعبد الرحمن بن محمد، وسلمة بن ربيعة، والسفاح بن صالح، وكتب في شهر ربيع من سنة سبع وخمسين"[3].

ويلاحظ من خلال النصوص الآنفة الذكر، تشابه شروط وقف علي وعمر وعثمان ﷺ وأنها جمعت بين الوقف العام، والوقف الذري، رغم أن وقف علي ﷺ قد أشار إلى أن الواقف قد جعل للحسن والحسين ﷺ الحق في حل الوقف، إذا احتاجا. في حين يلاحظ تشابه وقف الزبير، والسائب ﷺ فيما يتعلق بدورهم وإدارة الوقف، وإنه وقف ذري، كما يلفت الانتباه، في وقفية السائب كثرة الشهود الذين بلغ عددهم تسعة فضلاً عن كتابة الشهر والسنة، واحتفاظ الواقف بحقه في تغيير الوقف أنى شاء.

أحكام الوقف:

لقد بذل فقهاء القرن الثاني الهجري، جهوداً كبيرة في وضع قواعد نظام الوقف في الإسلام، لا سيما فقهاء الأحناف، فهم الذين طوروا أصلاً إسلامياً هو (البر بالمعروف) وفكرة شرعية، هي "حبس العين والتصدق بالمنفعة"[4]. وسرعان ما توسعت الشريعة

(١) الخصاف، المصدر السابق: ص١١، ابن حجر، فتح الباري: ٦/ ٣٣٥.

(٢) من أصحاب رسول الله ﷺ ينتمي إلى بني سهم من قريش ت ٥٧هـ/ ٦٧٦م ابن الأثير، أسد الغابة: ٢/ ٣١٢،٣٢٠-٣٢١.

(٣) البخاري، التاريخ الكبير: ٤/ ١٤٩-١٥٠.

(٤) الخطيب، الوقف والوصايا: ص٤١.

الإسلامية، في شمولية الوقف، لمساحات واسعة من مفاصل الحياة المهمة، فشمل كل أعمال البر وبناء المساجد، والمستشفيات، والقناطر ، والطرق، والجسور، والقرآن، وكتب العلم والفقه، وفي سبيل الله والأقارب، مسلمين كانوا أو من أهل الذمة، لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ {الممتحنة: ٨}. فقد أوقفت أم المؤمنين، صفية (رضي الله عنها) زوج النبي ﷺ على أخ لها يهودي، ويجوز الإيقاف على من ينزل كنائس أهل الذمة من المارة والمحتاجين من أهل الحاجة، لأن الوقف عليهم[١].

وهكذا أصبحت جميع وسائل البر بشتى أنواعها مجازة، ما عدا ما لا ينتفع به إلا بالامتلاك، مثل الذهب، والفضة، والمأكول والمشروب، فوقفه غير جائز ما عدا حلي النساء، لأن أم المؤمنين حفصة (رضي الله عنها) زوج النبي ﷺ، حبست على نساء آل الخطاب[٢].

شروط صحة الوقف:

هناك أربعة أنواع من الشروط التي يتوقف عليها صحة الوقف وهي:

شروط تتعلق بالواقف: وهي أن يكون حراً، عاقلاً، بالغاً، وأن يكون غير محجور عليه لسفه أو دين، وأن لا يكون حين إيقافه مريضاً مرض الموت.

شروط تتعلق بالموقوف: أن يكون مالاً معلوماً وقت الوقف وأن يكون مقوماً، وأن يكون مملوكاً للواقف وقت الوقف.

شروط تتعلق بالموقوف عليه: وهي أن يكون الوقف منجزاً لا معلقاً على شرط غير موجود في الحال، لأن فيه شبهه للتمليكات، وأن لا يكون مضافاً إلى ما بعد الموت، وأن لا تكون الصيغة مؤقتة بوقت، وأن لا يكون في الصيغة خيار شرط، سواء كانت مدة الخيار معلومة أو مجهولة. وأن لا تكون الصيغة مقرونة بشرط يؤثر على أصل الوقف، وأن تكون الصيغة مشتملة على التأبيد.

شروط لازمة بالموقوف عليه: أن يكون الوقف قربة في ذاته وفي اعتقاد الواقف[٣].

(١) ابن قدامة، الشرح الكبير: ٦/ ٩٢.

(٢) ابن قدامة، المغني: ٦/ ٢٣٥.

(٣) رضا، أحكام الأوقاف: ص٨-٢٤.

شــروط الواقـف:

لقد بذل الفقهاء جـهوداً كبـيرة في محاولاتـهم المسـتمرة، مـن أجـل الحفـاظ علـى الأوقاف، لكي تستمر في أداء وظيفتها الشرعية، لذلك نجد أنهم حاولوا قدر اسـتطاعتهم سد كل الثغرات التي ينفذ من خلالها أعداء الوقف، في تزوير أو تغير شـروط الواقفـين، فعند كتابة الوقف كان الوراقون، يحرصون على تتميم السطر وعدم تركه فارغاً خوفاً من التتميم الذي قد يقوم به المزورون[١].

إن قيمة شروط الواقف، تكمن في أنها تمثل الجوانب الشرعية، التي اشترط الواقف الصرف عليها لمصلحة الموقوف عليهم، وعلى السلطات السياسية، تنفيذ ذلك، من خلال أجهزتها المعنية، وعلى رأسها الجهاز القضائي، كما سيظهر فيما بعد، وقد احترمت هـذه الشروط بشكل عام، فقد أشار ابن عنبة[٢] إلى أن عمر بن علي بن أبي طـالب ﷺ نـازع الحسن بن الحسن بن علي، الذي كان يتولى أوقاف علـي ﷺ، إلى الحجـاج بـن يوسـف الثقفي، إلا أن الحسن ﷺ رفض بصورة قاطعة، محاولة الحجـاج لإشـراك عمـر في إدارة الوقف، رغم أن طلب ذلك بشكل ودي، وليس عبر الضغـوط والتـهديدات، وقـال لـه "والله لا أغير ما شرط علي فيها ولا أدخل فيها من لم يدخله". فقد كان من شـروط علـي ﷺ أن يتولى أوقافه، أولاده من فاطمة ﷺ دون غيرهم من بقية أولاده وقد أيد الخليفـة عبد الملك بن مروان، الحسن في موقفه.

ومن أجل احترام، وضمان تنفيذ شروط الواقف، كان يلجأ أحياناً إلى كتابة كتـاب الوقف، على بناء متميز من أملاك الوقف، لكي يعرف الجميـع هـذه الشـروط كمـا هـو الحال عندما كتب الأمير بدر الدين المعروف بلالا شروط وقفه على أعلـى قبـة مدرسته الوقفية سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م[٣].

ويبدو أن ضعف الالـتزام، بـهذه الشـروط، في بعـض الأحيـان، هـو الـذي دفـع السلطات المملوكية عام ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م إلى نشر مرسوم سلطاني بجامع دمشـق يوصـي "بالأوقاف وإيصالها إلى مستحقيها وعمارتها واتباع شروط واقفيـها والتـأكيد في ذلـك"[٤].

(١) القرافي، الأحكام: ص٢٥٥.

(٢) عمدة الطالب: ص٧٦-٧٧.

(٣) النعيمي، الدارس: ١/ ٤٧٧.

(٤) ابن الوردي، تاريخ: ٢/ ٤٠٤.

ومع ذلك يلاحظ أن بعض الفقهاء أجاز عدم التقييد بشروط الواقف، إذا كان مصدر ما أوقف من بيت المال، كما هو الحال في أوقاف الأيوبيين والمماليك[1].

أمثلة على بعض شروط الواقفين:

يشير الطبري[2] إلى أن الخليفة العباسي المعتصم ٢١٨هـ/ ٨٣٣م- ٢٢٧هـ/ ٨٤١م عندما قاد حملته المشهورة إلى الأراضي البيزنطية، وفتح فيها عمورية عام ٢٢٣هـ/ ٨٣٧م أشهد قاضي بغداد وعدولها، على أنه أوقف ضياعه، فجعل ثلثاً لأولاده، وثلثاً لله، وثلثاً لمواليه. ومن الشروط الطريفة لواقف المدرسة الرواحية، هبة الله بن عبد الله الرواحي أن لا يدخل في مدرسته يهودياً ولا نصرانياً، ولا حنبلياً حشوياً[3] وتفوح من هذه الشروط، رائحة العداء والتعصب المذهبي، الذي ابتليت به الأمة الإسلامية، في بعض مراحل تاريخها، كما اشترط الأمير صرغتمش في مدرسته التي افتتحت في القاهرة عام ٧٧هـ/ ١٣٥٦م أن يكون المستفيدون[4] منها من الأحناف المغتربين، أي ليسو من أهل البلد.

وتقدم لنا حجة وقف الأشرف برسباي ٨٢٥- ٨٤١هـ/ ١٤٢١- ١٤٣٧م معلومات قيمة عن الشروط التي اشترطها في أملاك مسجده، منها لا تؤجر أكثر من سنتين ولا يدخل عقد على عقد، قبل مضي العقد السابق، ولا يؤجر بأقل من أجور ما يماثله من أملاك، وأن لا تؤجر لأصحاب الوجاهة، ولا للمتنفذين من موظفي الدولة، ولا لمن اشتهروا بسوء الخلق، والمعاملة، وأن لا يستبدل الوقف، ولو بلغ من الخراب ما بلغ، كما تشير الحجة إلى أنه عند تعمير المسجد، وعدم كفاية الموارد، تقطع المستحقات من المستفيدين، ما عدا المؤذنين والإمام والخطيب، حتى يكمل تعمير المسجد[5].

ويبدو واضحاً أن عدم التأجير لأكثر من سنتين، يتعلق بتغير قيمة العملة وقوتها الشرائية، فضلاً عن أن منع المتنفذين من رجال الدولة من استئجار الوقف، ربما يعود إلى سوابق أدت إلى استغلال هؤلاء لأملاك الوقف، بأقل من قيمتها الحقيقية. ويلحق بهم من اشتهروا بسوء المعاملة والخلق السيء، الذين قد يلحقون الأذى بأملاك وموارد

---

(١) السيوطي، الحاوي: ١/ ٢٣٨.

(٢) تاريخ: ٩/ ٥٦: الأزدي، تاريخ الموصل: ص٤٢٦.

(٣) ابن الجزري، المختار: ص١٢٧.

(٤) المقريزي، السلوك: ٣/ ٢٨.

(٥) حجة وقف الأشرف: ص٦.

الوقف. كما يبدو واضحاً أن الغرض من منع الاستبدال يعود إلى أنه كان يتم على حساب الوقف، أو استبدال الدينار بالدرهم كما يقال. حيث يدعي المتواطئون خراب الوقف، وهو ليس كذلك، ويستبدل بأقل منه قيمة. كما نجد أن شروط الأشرف برسباي المتعلقة بالأراضي الزراعية، تؤكد على ضرورة رعاية الفلاحين في أراضي الوقف، وأن لا تفرض عليهم رسوم ولا ضيافة[(١)] والغرض من هذه الشروط تشجيع الفلاحين على الاستقرار في الأرض، وزيادة الإنتاج.

لقد عالج الفقهاء الكثير من الحالات التي أخذت تظهر مع تطور مؤسسات الوقف، وتعدد ميادينه وبجهود هؤلاء الفقهاء، الذين يسايرون الحياة بدقائقها، ويوجدون الحلول لمشاكل مجتمعاتهم اتسع الوقف في مساحة شاسعة في المجتمع الإسلامي، علماً بأن الأوقاف في بدايتها لم تشهد تخصصاً كبيراً، كما حدث فيما بعد، ومن الأمثلة على ذلك، أنه إذا تعرض الوقف للخراب، ولم يعد له إيراد يباع ويشترى بثمنه ما يديم تمويل ما أوقف عليه. وكذلك الحال في الخيل الموقوفة للجهاد، في حالة الهرم تباع ويشترى بثمنها ما يصلح للجهاد[(٢)]. وكذلك الحال في البستان الموقوف الذي قلت أشجاره، فإنه يجوز بيعه وشراء بستان آخر أقل منه مساحة[(٣)].

طبيعة المال الموقوف:

اختلفت طبيعة المال الوقوف من عصر إلى عصر، ومن إقليم إلى إقليم في الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، فقد أوقف الرسول ﷺ والصحابة ﵃، أراض زراعية، وأوقف بعض الصحابة دوراً، وأوقف بعضهم خيولاً وأسلحة[(٤)] وحلياً[(٥)] ويشير المقريزي[(٦)] إلى أن مصر لم تعرف إيقاف الأراضي الزراعية، لتمويل أعمال البر إلى ما بعد الدولة الطولونية ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م- ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م حث كانت أوقاف أحمد بن طولون[(٧)]

(١) المصدر نفسه: ص٣٤.

(٢) ابن قدامة، المغني: ٦/ ٢٢٥، قاضي خان، فتاوي ٣/ ٣٠١.

(٣) الخصاف، المصدر السابق: ص٢٢.

(٤) ابن حجر، فتح الباري: ٥/ ٥٠٨-٥٠٩.

(٥) ابن قدامة، المغني: ٦/ ٢٣٥.

(٦) المواعظ: ٢/ ٢٩٤-٢٩٥.

(٧) هو حاكم مصر والشام، تركي الأصل، ولد في بغداد سنة ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م. تولى حكم مصر عام ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م وتوفي عام ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م. ابن الجوزي، المنتظم: ٥/ ٧١-٧٣.

على الجامع والمارستان (المستشفى) والسقاية من الأرباع (الأبنية) ولم يوقف شيء من أراضي مصر. وإن الأراضي الزراعية التي أقفها أبو بكر الماردانى على الحرمين الشريفين، وبعض جهات البر، هي أول أراضي أوقفت في مصر، إلا أن مما يثير الشكوك في هذه الرواية، ما ذكره السبكي[1] من أن مؤنس الخادم عندما ذهب إلى مصر والياً عليها من قبل الخليفة العباسي المقتدر أوقف قرى كثيرة على أعمال البر[2].

وكان أكبر تطور في طبيعة المال الموقوف، تمثلت في فتوى الأحناف بجواز إيقاف النقود من خلال دفعها للمضاربة والاستفادة من أرباحها فيما بعد لتمويل أعمال البر[3] كما أن المالكية أجازوا بدورهم وقف النقود واستثمارها بالمضاربة، والتصرف بفضلها في مصلحة المسلمين[4]. علماً بأن فقهاء آخرين لم يجيزوا وقف النقود، فقد ذكر حاجي خليفة[5] أن محمد بن بير علي المعروف برمكي ت ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م ألف كتاباً سماه "الصارم المسلول في عدم جواز وقف المنقول والدراهم". وقد بلغ وقف النقود أوج عظمته في العصر العثماني، لا سيما في منطقة البلقان، ثم انتشر إلى المناطق الأخرى حيث يشير الأرناؤوط[6] إلى النقود الموقوفة كانت تقدم إلى التجار وأصحاب الحرف، لقاء نسبة محددة من الأرباح، بحيث يضمن الوقف بهذا الشكل، مصدراً ثانياً بعد الأراضي الزراعية، وأجور الدور والدكاكين، لتغطية مشاريعه الخيرية، وبهذا الشكل تحول الوقف إلى مؤسسة مالية، مصرفية تمول مشاريع التجار وأصحاب الحرف، بأرباح تتراوح في العادة ما بين ١٠٪ إلى ١١٪.

أنــواع الوقف:

ينقسم الوقف إلى ثلاثة أنواع، الأوقاف العامة، والأوقاف الخاصة، والتي تسمى (الذرية)، وهناك نوع ثالث يجمع بين الاثنين، كما هو الحال في وقف عمر، وعلي رضي الله عنه

(١) طبقات الشافعية: ٣/ ٤٥٢.

(٢) لغت مساحة الأراضي الموقوفة في مصر عندما قام محمد علي باشا ١٢٢٠هـ-١٢٦٦هـ/ ١٨٠٥-١٨٤٩م بالسيطرة عليها وحلها ٦٠٠ ألف فدان من مجموع مليوني فدان. أبو زهرة، محاضرات: ص٢٧-٢٩.

(٣) الطرابلسي، العدد السابق: ص٢٦.

(٤) ابن حزم، المحلى: ٩/ ١٧٥: النيل، المصدر السابق: ص٣٠.

(٥) كشف الظنون: ٢/ ١٠١٧.

(٦) دراسات في التاريخ الحضاري: ص٣١-٣٥.

ما، بينما كان وقف عثمان والزبير (رضي الله عنهما) على ذريتهما. ويلاحظ أن الوقف العام، لم يكن مصدره فقط أبناء الأمة الصالحين، الذين يوقفون أموالهم وقفاً عاماً، وإنما أجاز الفقهاء أن يشتري الحكام من بيت المال أرضاً أو غيرها ويوقفوها على مصالح المسلمين، لأن بيت المال لمصالح المسلمين[1] وقد شهد النوع الثالث المختلط، أن صح التعبير تطوراً واضحاً عندما أخذت حجج الوقف تحدد حصص المستفيدين، فقد أوقف إسماعيل الساماني[2] قرية بركد التي كان فيها حصن حربي، جعل حصصها كالآتي: عشرة حصص للعلويين، وحصتين لورثته وحصتين على دراويش بخارى[3]. وإذا كان الوقف العام من خلال إدارته المرتبطة بالهيكل الإداري للدولة، لم تثر حوله مشاكل، فالأمر مختلف مع الوقف الذري الذي كان له أهداف مزدوجة، فهو للحصول على الأجر والثواب من جهة، ولكي يضمن الواقف لنفسه في حياته ولذريته من بعده، نصيباً من الوقف من جهة أخرى[4]. وقد شهد هذا الوقف الذري انتعاشاً كبيراً في العصر المملوكي الذي استمر (٢٦٧) عاماً، والذي شهد عدم انسيابية انتقال السلطة بصورة سلمية من سلطان إلى سلطان في معظم الأحيان[5] وقد عبر عن هذه الحقيقة بصورة دقيقة ابن خلدون[6] عندما قال أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لماله عليهم من الرق والولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا، والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة، يجعلون فيه شرطاً لولدهم ينظر عليها أو نصيب منها، مع ما فيهم غالباً من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور في المقاصد والأفعال، فكثرت الأوقاف لذلك.

---

(١) الونشريسي، المعيار المغرب: ٧/ ٢٦٦.

(٢) هو من أشهر ملوك السامانيين فيما وراء النهر، حكم من خراسان إلى ما وراء النهر اشتهر بالجهاد والعدل والسخاء توفي سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٧م. ابن الجوزي، المنتظم: ٦/ ٧٧-٧٨.

(٣) النرشخي، تاريخ بخارى: ص٣٢.

(٤) بعد صرف الأموال على الجهة الموقوف عليها سواءاً كانت مدرسة أو مستشفى أو رباط...فإن ما تبقى يكون للواقف نفسه إذا كان حياً أو في من يكون بعده من ذريته، وإذا انقرضوا يصرفه الناظر إلى جهات أخرى. حجة وقف الأشرف: ص٥.

(٥) ينظر مثلاً ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٧/ ٢٨٧، ٨/ ٤٩، ٩/ ٣-٨: ١١/ ٢٢١-٢٢٦.

(٦) تاريخ: ١/ ٣٦٣.

ولابد أن هذه الظروف المحيطة بالوقف الذري، هي إليه دفعت البعض إلى اتهامه بأنه وسيلة لتهريب الأموال وإعفائها من الالتزامات الشرعية[1] ولذلك حاول بعض السلاطين إلغاءه[2]. كما أن الوقف الذري شهد أحياناً خلافات بين المستفيدين من ذرية الواقف، كما حدث بين ذرية عبد الله بن مطيع العدوي في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك ١٠٥هـ/ ٧٢٣م/ ١٢٥هـ/ ٧٤٢م، واضطر القاضي سعد بن إبراهيم الزهري إلى التدخل لحل الخلاف بشأن التصرف بريع الوقف[3]. وتكرر الأمر نفسه مع ذرية جعفر العباسي زمن الخليفة المأمون ١٩٨هـ/ ٨١٣م- ٢١٨هـ/ ٨٣٣م فقد اختلف إسماعيل بن جعفر مع إخوته في إدارة أوقاف أبيهم، فرفع الأمر إلى المأمون، والذي أكد على تبني رأي الأكثرية في اختيار من يدبر الوقف[4]. ويبدو أن هذه الخلافات هي التي دفعت الفقهاء إلى أن يجيزوا للقاضي أن يفوض إدارة الوقف الذري، إلى من يثق به من خارج الذرية، إذا عجز القائمين عليها عن الإيفاء بمصالحها وشروطها[5].

إدارة الوقف:

لقد تطورت إدارة الوقف مع مرور الزمن، إلى أن أصبح له جهاز إداري متكامل في القرون الأخيرة ففي البداية كما هو الحال في وقف عمر ﷺ، قد جعل النظر في أوقافه إلى ابنته حفصة ﷺ ثم للأرشد من آل الخطاب وكذلك الحال في وقفي عثمان وعلي ﷺ. وإذا كان العصر الراشدي ببساطة أوقافه قد شهد إدارة ذاتية، فإن العصر الأموي الذي تلاه، لا يوجد ما يدل على ظهور ديوان مستقل للأوقاف ويجب فهم رواية ابن حجر[6] في سياقها الطبيعي، عندما أشار إلى أن توبة بن نمر قاضي الخليفة هشام ابن عبد الملك على مصر، هو أول من أوجد ديواناً له للأحباس في مصر، أي سجلات خاصة للأحباس (الأوقاف)، وكان مشرفاً عليها القاضي، وبذلك لا يمكن الذهاب بعيداً مع استنتاج الكبيسي[7] الذي يشير إلى ظهور ديوان مستقل للأوقاف في مصر والبصرة،

(١) الكبيسي، المرجع السابق: ١/ ٤٢: مذكور، المرجع السابق: ص١١، بدران، المرجع السابق: ص١٧٤.
(٢) ينظر موقف كل من النووي والأذرعي مع الظاهر بيبرس، اليونيني، المصدر السابق: ٣/ ٢٨٣، ٤/ ٩٥-٩٦، ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٧/ ٢٤٧، ابن طولون، الثغر البسام: ص١٨٨-١٨٩.
(٣) وكيع أخبار القضاة: ١/ ١٥٤.
(٤) طيفور، بغداد: ص٦٠.
(٥) ابن جماعة، تحرير الأحكام: ص٩٣.
(٦) رفع الأصر: ص١٦١.
(٧) المرجع السابق: ١/ ٣٨-٣٩.

في هذه الفترة المبكرة إذ أن محدودية الأوقاف وكونها ذرية في معظمها تجعل الأشخاص الواقفين يعينون عليها أبناءهم أو من أقاربهم الأدنيين.

كان القضاة يشرفون على الأوقاف، ويحلون النزاعات التي تجري على ريعها[1] وقد شهد هذا العصر تدخل الخليفة شخصياً لحل هذه النزاعات، كما حدث في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان مع وقف الإمام علي رضي الله عنه[2]، وكما حدث في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذي أوعز بإرجاع الحقوق إلى أصحابها من الصدقات، التي أوقفها أهلها على النساء فحازها الرجال[3] ويبدو أن تدخل الخلفاء في فض مشاكل الوقف قد جعلت الفقيه الشافعي ابن جماعة[4] ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م يشير إلى أن الحق الثامن من حقوق الرعية على السلطان النظر في أوقاف البر، والصدقات وصرفها في الجهات المقدرة لها أما في العصر العباسي ١٣٢-٦٥٦هـ/ ٧٤٩-١٢٥٨م فقد شهدت خلافة المهدي ١٥٨هـ-١٦٩هـ/ ٧٧٤-٧٨٥م محاولة جادة لضمان حقوق الأوقاف وتنظيمها وتسجيلها، بعد أن تفرقت بأيدي الناس أثناء فترة انتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين، وكان القاضي خالد بن طلق الحارثي يعطي لمن يدله على هذه الوقوف عشر العشر[5]، وقد سار على خطاه القاضي هارون الزهيري قاضي المأمون على مصر، والذي اهتم بتقصي الأحباس وأموال اليتامى[6]. وشهدت خلافة المقتدر ٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٧-٩٣٢م ظهور ما يسمى بديوان البر الذي أنشأه الوزير الصالح علي بن عيسى الجراح[7] للأوقاف الكثيرة التي أوقفها من ضياع الدولة وجعل واردها لإصلاح الثغور وللحرمين الشريفين[8].

---

(١) وكيع، المصدر السابق: ١/ ١٤، المقريزي، المواعظ: ٢/ ٢٩٥.

(٢) ابن عنبة، المصدر السابق: ص٧٦-٧٧.

(٣) الخصاف، المصدر السابق: ص١٦-١٧.

(٤) المصدر السابق: ص٦٨.

(٥) وكيع، المصدر السابق: ٢/ ١٥٥.

(٦) القاضي عياض، المصدر السابق: ٢/ ٥١٦.

(٧) علي بن عيسى: من أكفأ وزراء بني العباس وأكثرهم التزاماً بقيمه الإسلامية في مجال السياسة والإدارة عرف عنه حبه للعدل وانفاقه السخي في أبواب الخير، وزر للمقتدر والقاهر، ولد سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م وتوفي في مكة سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م. ابن الجوزي، المنتظم: ٦/ ٣٥١-٣٥٥.

(٨) ابن طبا طبا، الفخري: ص٢٨٨.

كان قاضي القضاة ببغداد يشرف على تعيين النظار[1] على الأوقاف[2] وبذلك تكون مرجعيتهم الإدارية إليه لكون الوقف عملاً دينياً، وفي العصر العباسي الأخير، أصبح المشرف على الأوقاف يسمى صدر الوقوف[3]. أما في بعض ممالك المشرق التابعة اسمياً للخلافة العباسية فقد شهدت ظهور إدارة للوقف عن طريق ديوان مستقل فالنرشخي[4]. يشير إلى أن السامانيين أنشأوا ديواناً للأوقاف، وفي العصر السلجوقي. نجد أن الوزير أحياناً هو الذي يعين المسؤولين عن الأوقاف، كما حدث عندما عين نظام الملك ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م أمام الحرمين عبد الملك الجويني مسؤولاً عن الأوقاف في الدولة[5]. بل أن السلطان السلجوقي سنجرت ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م أوحد إشرافاً مركزياً على من يتولى الأوقاف سماه (صاحب أوقاف الممالك)[6]. وكان السلطان يتولى بنفسه أحياناً إجراء التحقيق مع إدارة الوقف، كما حدث عام ٥٢٣هـ/ ١١٢٨م عندما أمر السلطان محمود ت ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م بالختم على أموال مدرسة أبي حنيفة ومطالبة وكلائها بالحساب بعد أن وصل إلى علمه أن دخل أوقاف المدرسة حوالي ٨٠ ألف دينار ينفق منها فقط ١٠ آلاف دينار ولا يعرف مصير الباقي[7].

أما في مصر ففي العصر الطولوني كان يتولى القاضي الإشراف على الأوقاف إلا أنه قد يتولاها رجل من غير النظام القضائي، كما حدث عندما ولى أحمد بن طولون صاحب الشرطة، الإشراف على الأوقاف بدل القاضي بكار بن قتيبة، عندما عزل الأخير[8].

(١) الناظر: عرفه ابن مماتي بأنه الشخص الذي يستظهر به على متولي الديوان، أي يشرف عليه في حين عرفه القلشندي بأنه الذي ينظر في مصالح الوقف ويعمل على تطوير موارده ويحافظ على شروط الواقف. صبح الأعشى: ١١/ ١٥٨-١٥٩.

(٢) ابن الساعي، تاريخ: ٩/ ٢٠، ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٣٤.

(٣) ابن الفوطي، تلخيص: ١/ ١٤١، ٣/ ١٧٢: ويقصد بالصدر مصطلح يقصد به من له الإشراف على الحجاب والأمراء وقد شاع في نهاية القرن السادس. ابن الشعار، قلائد الجمان: ٣/ ٣٤٢.

(٤) المصدر السابق: ص٤٤.

(٥) ابن خلكان، المصدر السابق: ٣/ ١٦٨.

(٦) السبكي، طبقات، ٧/ ٣١٧.

(٧) ابن الجوزي، المنتظم: ١٠/ ١١.

(٨) الكندي، الولاة: ص٢٣١.

أما في العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية، في مصر والشام، فيشير المقريـزي[1] إلى أن الأحباس (الأوقاف) في العهد الفاطمي ٢٩٧- ٥٦٦هـ/ ٩٠٩- ١١٧٠م قد أصبح لها ديواناً منفرداً يشرف عليه القاضي، ويدير أوقاف الرباع (الأبنية). وقد ظهر منذ عهد المعز لدين الله ٣٤١- ٤٦٥هـ/ ٩٥٢- ١٠٧٢م من يتولى ضمان الأوقـاف لصالح الدولة حيث يدفع إلى المستحقين نصيبهم ويحمل الباقي إلى بيت المال، وقد بلغ الضمان في عهده مليون ونصف مليون درهم.

واستمرت إدارة الوقف في العهد الأيوبي بيد القاضي، وفي العهد المملوكي قسمت الأوقاف إلى ثلاثة أقسام، الأولى الأحباس (الأوقاف) الذي تدير الأراضي الزراعية في مصر، والتي أوقفت على المساجد والزوايا وغيرها. ويشرف على هذا القسم دوادار السلطان ومعه ناظر الأحباس وهو من الرؤساء مع كادر من الكتاب والموظفين، وقد بلغت أراضي هذا القسم في عهد الناصر محمد بن قلاوون خلال حكمه المتقطع ٦٣١- ٧٤١هـ/ ١٢٣٣-١٣٤٠م مائة وثلاثون ألف فدان. أما الأوقاف الثانية فتسمى الحكمية، وهي بمصر والقاهرة، يتولاها قاضي القضاة الشافعي، ويشرف على الأوقاف الموقوفة على الحرمين، وعلى الأسرى والخيرات الأخرى، ويقال لمن يتولاها ناظر الأوقاف، وهو تارة من نواب القاضي، وتارة من الأعيان، وتارة تقسم إلى ناظر لأوقاف مصر، وناظر لأوقاف القاهرة، ولكل منهما كادر من الموظفين. أما القسم الثالث فهي الأوقاف الأهلية، ولها ناظر خاص إما من أولاد الواقف أو من رجال السلطان أو القاضي، وتشمل إدارتها الخوانك والمدارس والجوامع والأضرحة، وأضيف إلى هذه الأوقاف فيما بعد أراضي في مصر والشام، وقد يتولى نائب السلطان بنفسه الإشراف على أوقاف الجوامع والمدارس والمساجد والخوانك، والربط والزوايا، كما حدث لتنكر نائب الشام ت ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م[2]. أما في أقصى الغرب الإسلامي في الأندلس، فقد سمي المشرف على الأوقاف في الدولة الأموية في الأندلس صاحب الأحباس، وهو المشرف على إدارتها[3].

---

(١) المواعظ: ٢/ ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) ابن حجر، الدرر: ١/ ٥٢٤: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٨/ ١٣٠.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/ ٢٣٦.

موظفي الأوقـاف:

إن الموظفين العاملين في دواوين الأوقاف، كانوا من المسـلمين فقـط لأنـه معاملـة دينية وقد وردت نصوص تشير إلى ذلك بصورة واضحة في مصر[1] ومن أبـرز الموظفـين العاملين هو ناظر الأوقاف، وقد وردت أسماء كثيرة هـؤلاء النـاظرين مثـل الحسـن بـن محمد الكاتب الذي كان يتولى النظر في الوقوف العامة ت ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م في بغـداد ولم تحمـد سـيرته[2] وعيسـى بـن الخضـر الـزرزاري نـاظر الأوقـاف بالديـار المصريـة سـنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م[3] كما عين القاضي والمؤرخ المشهور ابن خلكان من قبل الملك الظاهر بيبرس ناظراً على جميع أوقاف الشام سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م وكان يتـولى منصـب قـاضي قضاة الشام آنذاك[4]، وعرف عن محمد بن أحمد بن علي بـن حجـر المحـدث المشـهور ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م بأنه كان ناظر الجامع الطولوني ونـاظر المدرسـة الصالحيـة بالقـاهرة[5] وعلي بن أقبرس الذكـي في عـهد السـلطان قـانصرة الغـوري ٩٠١-٩٠٥هــ/ ١٤٩٥-١٤٩٩م[6] وبذلك يظهر بشكل واضح أن النظار كانوا من الكتاب العاملين في الدواوين، والذين يجيدون ضبط الحسابات والشـؤون الإداريـة، علـى الرغـم مـن أنـه قـد يتولاهـا أحياناً[7] فقيه، ويبدو أنها كانت وظيفة مكروهة من قبل العامة المستفيدين من الأوقـاف، لا سـيما في الفـترة المتـأخرة، حيـث أن هـؤلاء النظـار، هـم الذيـن يؤجـرون الأمـلاك والأراضي[8].

فضلاً عن الناظر الأعلى، فقد كان هناك نظار لإدارة أقسـام معينـة مـن الوقـوف، مثل المدارس والأربطة، والتي يشير صاحب الحوادث الجامعة[9] إلى أنه كان يتولى نظارتها عام ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م الفقيه محمد بن يحيى بن فضلان، ولم تشر المصادر بصورة محددة إلى حدود صلاحيات الناظر وإن أشار ابـن حجـر[10] إلى أن مـن صلاحيتـه الـصرف علـى

---

(١) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٢٩٥.
(٢) ابن الساعي، المصدر السابق: ٩/ ٣٦.
(٣) اليونيني، المصدر السابق: ٤/ ١٩٤.
(٤) ابن خلكان، وفيات: ١/ ٤٦٠.
(٥) الصيرفي، نزهة النفوس: ٣/ ٣٩٤.
(٦) ابن اياس، تاريخ: ٣/ ٤٣.
(٧) المصدر نفسه: ٣/ ١٦٧.
(٨) المصدر نفسه: ٣/ ٣٧٥.
(٩) مجهول: ص٦٣-٦٤.
(١٠) الدرر: ٤/ ٤.

الفقهاء والمحتاجين، فيما بقي من مال الوقف الذي بنظارته، وكان هناك متولي الوقف الذي يقوم بالأمور الرئيسية في الديوان، أما الأمور الثانوية فيكلها إلى كتابه[1]. وكان هناك أيضاً المباشرون[2] فقد أشار ابن حجر[3] إلى أن إبراهيم بن محمد القلقشندي، وكان مباشر أوقاف الحرمين بالقاهرة، وأشار ابن اياس[4] إلى الزيني بن الجيعان مباشر الأوقاف عهد قايتباي، وكانت هناك حساسية في بعض الأحيان بين نظار الوقف والمباشرين والمستفيدين، فقد كانت مهمة الناظر أن يتأكد من حسابات المباشرين ثم يتأكد أن الصرف على المستفيدين من الوقف، لم يكن على حساب الجوانب الأخرى مثل صيانة عمارة المدرسة الوقفية، فقد كان بعض الناظرين يؤخر رواتب الطلبة حتى يتم عمارة وصيانة الأبنية مما يجعل الطلبة يقومون بالتحريض على الناظر من أجل إزاحته عن منصبه، وأشير إلى موظفين آخرين، وهم مشد الوقف ومستوفي الوقف[5] فضلاً عن شهود الوقف وعماله وحجابه[6].

المخاطر التي تعرضت لها الأوقاف:

تعرضت الأوقاف إلى مخاطر كثيرة، عبر التاريخ الإسلامي، ومن جهات عديدة، وبأساليب مختلفة، رغم كل الضوابط التي وضعها الفقيه المسلم، استناداً إلى القرآن والسنة، ويمكن إجمال هذه المخاطر في النقاط التالية:

- محاولات السلطات السياسية في دار الاسلام السيطرة على الاوقاف وحلها.
- محاولات الاقتراض من أموال الأوقاف.
- تراجع الواقف عن وقفه.
- محاولات التصرف المؤقت بإيرادات الأوقاف.
- فساد الأجهزة الإدارية المشرفة على الأوقاف أحياناً وتلاعبها بمقدراته.
- العدوان الخارجي، والكوارث الطبيعية والأوبئة.
- مخاطر المؤجرين على أملاك الوقف.
- الفتن والاضطرابات الداخلية.

---

(١) ابن مماتي، المصدر السابق: ص٢٩٨.
(٢) المباشر هو الذي يتولى إدارة المؤسسة الوقفية من النواحي الإدارية والإشراف على العمارة.
(٣) الدرر: ٢/ ١٦١.
(٤) المصدر السابق: ٢/ ٢٢٥-٢٢٦.
(٥) ابن حجر، الدرر: ١/ ٣١٨.
(٦) حجة وقف الأشرف: ص٣١.

❖ **محاولات السلطات السياسية في دار الإسلام السيطرة على الأوقاف وحلها:**

تعتبر هذه المحاولات، من أخطر ما تعرضت له الأوقاف في تاريخها، وقد كان لهذه المحاولات أحياناً ما يبررها، إلا أنها في أحايين كثيرة، كانت غير مبررة، وغير شرعية، فالمتوكل العباسي ٢٣٢- ٢٤٧هـ/ ٨٤٦- ٨٦٤م، لجأ عام ٢٤٧هـ/ ٨٦١م ضمن حملته المعادية للعلويين إلى استخدام العقوبات الاقتصادية، من خلال السيطرة على أوقافهم ومنها فدك[1] والتي سرعان ما أعادها إليهم الخليفة المنتصر ٢٤٧-٢٤٨هـ/ ٨٦١-٨٦٢م[2].

كما قام الخليفة القاهر ٣١٧- ٣٢٠هـ/ ٩٢٩- ٩٣٢م عام ٣١٨- ٩٣٠م بحل ما أوقفته السيدة أم المقتدر الخليفة السابق على الحرمين الشريفين، والثغور، وبيعت لرجال القائد مؤنس بـ خمسمائة ألف درهم، ويلاحظ أن القاهر بما عرف عنه من ظلم وبطش وطيش، لم يردعه عن عمله هذا غير الشرعي، رفض أم المقتدر الحضور أمام الشهود، ليشهدوا حلها لأوقافها، وتوكيلها من يبيعها نيابة عنها، بل وإنها أكدت على شرعية ما أوقفته ومع ذلك حل وقفها وباعه[3].

ويشير الروذ راوري[4] إلى أن عضد الدولة البويهي ٣٦٧- ٣٧٢هـ/ ٩٧٧- ٩٨٢م قام بالسيطرة على أوقاف منطقة السواد الواقعة جنوب العراق، وأقام لها كادر إداري يرتبط به مقابل رواتب للمستفيدين من هذه الأوقاف بصورة شرعية، فيما كان الجزء الأكبر من إيراداته يذهب إلى خزينة الدولة بصورة نهائية.

وأشار ابن مماتي[5] بدوره إلى ما تعرضت له الأوقاف الذرية، التابعة للدولة الفاطمية حيث حلت بعد سيطرة الأيوبيين على مصر، وقيامهم بإزالة الخلافة الفاطمية ومثال ذلك ما حدث لأوقاف أمير الجيوش بدر المستنصري ٤٦٦- ٤٨٧هـ/ ١٠٧٣-١٠٩٤م وزير الخليفة الفاطمي المستنصر ٤٢٧- ٤٨٧هـ/ ١٠٣٥- ١٠٩٤م على ذريته، حيث حولت إيراداته إلى بيت المال، لصرفها في المصالح العامة، مثل السور والخانقاه والبيمارستان في القاهرة.

---

(١) فدك: مدينة في شمال الحجاز، أفاءها الله على رسوله ﷺ سنة ٧هـ/ ٦٢٨م صلحاً بعد غزوة خيبر، ياقوت، معجم البلدان: ٤/ ٢٣٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل: ٥/ ٣١١.

(٣) الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري: ١١/ ٢٧٤، ابن الكازروني، تاريخ: ص١٧٦.

(٤) ذيل تجارب الأمم: ٣/ ١١.

(٥) المصدر السابق: ص٣٣٩،٣٤١.

ويبدو واضحاً إن الأسباب السياسية كانت وراء حل هذه الأوقاف، إلا أن مما يشفع لهذا الإجراء نسبياً هو أن إيراداته حولت لتمويل خدمات عامة حيوية، ما بين عسكرية وتعبدية وصحية في مدينة القاهرة. ومما يثير الاستغراب أن بعض أوقاف الجامع الأزهر، تعرضت هي الأخرى للاعتداء في العصر الأيوبي، إلى أن أعادها إليه الأمير عز الدين ايدمر، في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس ٦٥٨- ٦٧٦هـ/ ١٢٥٨-١٢٧٧م ومن ثم عادت إليه خطبة الجمعة[١]، ويمكن تفسير هذه الإجراءات اللاشرعية بحق أوقاف الأزهر، بسبب المركز السياسي المذهبي الذي كان يمثله الأزهر في عهد الخلافة الفاطمية، التي استمرت في مصر طيلة مائتين وتسع وستين عاماً، والتي بذل الأيوبيون حيالها جهوداً جبارة لإزالة رموزها السياسية والمذهبية.

لقد كانت محاولة الظاهر بيبرس الاستيلاء على الأوقاف من أخطر ما واجهها، عندما حاول الاستيلاء على القرى والبساتين الوقفية بدمشق، وقد فشلت هذه المحاولة، بفضل القضاة البررة الذين تصدوا له. فقد أشار اليونيني[٢] إلى أن الظاهر عقد مجلساً في دار العدل حضره القضاة والفقهاء، وقد أبدى الجميع موافقتهم المبدئية، فألانوا القول وخشية سطوة الظاهر إلا الأذرعي الدمشقي الذي قال له قولته المشهورة "اليد لأرباب الأملاك ولا يحل لأحد أن ينازعهم في أملاكهم، ومن استحل ما حرم الله فقد كفر" وقد غضب السلطان غضباً شديداً ورد قائلاً "أنا أكفر انظروا لكم سلطاناً غيري" وقد راجع السلطان نفسه بعد ذلك وعرف الحق وأناب إليه وعظم في عينه الاذرعي. وإلى جانب الاذرعي لا ينسى موقف الإمام يحيى بن شرف النووي الشافعي الذي رفض أي مساس بالبساتين الوقفية في دمشق[٣].

ويمكن تبرير عمل الظاهر، بحاجة الدولة الملحة للمال للدفاع عن دار الإسلام، ضد التتر الذين شكلوا خطراً عظيماً على وجود المجتمع الإسلامي، في أعقاب سقوط بغداد ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م لا سيما وإن ضخامة الأوقاف، قد حرمت الدولة من أحد أهم مواردها عن طريق إيرادات الأراضي الزراعية، فضلاً عن أن إيرادات الأوقات معفية من

---

(١) المقريزي، السلوك: ح١ قسم٢: ص٥٥٦، يشير اليونيني إلى أن الخطبة حولت منذ العهد الفاطمي من الجامع الأزهر إلى جامع الحاكم بعد إنشاء الجامع الأخير، ذيل ٢/ ٣٦٠، إلا أن السيوطي يرجع توقف الخطبة إلى أن القاضي الشافعي صدر الدين بن درباس كان لا يرى إقامة خطبتين في بلد واحد حسب مذهبه فابطل الخطبة في الأزهر واقرها في جامع الحاكم، حسن المحاضرة:

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٣٨٦، ٣/ ٩٥-٩٦: ابن كثير، المصدر السابق: ١٣/ ٢٥٢.

(٣) اليونيني، المصدر السابق: ٣/ ٢٨٣.

الزكاة، وقد عبر ابن جبير[1] عن ضخامة أوقاف دمشق بقوله "حتى أن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها".

كما عادت المخاطر تحدق من جديد بالأوقاف عند تولي السلطان الظاهر برقوق الحكم في الدولة المملوكية ما بين ٧٨٤- ٨٠١هـ/ ١٣٨٢- ١٣٩٨م حيث أشار المؤرخين إلى محاولات حثيثة قام بها للقضاء على الوقف استوى فيها ما كان وقفاً ذرياً أو وقفاً عاماً، ورغم تصدي القضاة والفقهاء له بقوة، فقد نجح في السيطرة على بعض أملاك الأوقاف، حيث يشير ابن تغري بردي[2] إلى أن برقوق قام عام ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م بحل الأوقاف المحدثة بعد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م رغم ممانعة القاضي سراج الدين البلقيني ت ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م وكانت حجته في ذلك أن هذه الأوقاف أثرت على توفير الإيرادات اللازمة لتمويل الجيش.

ويورد المقريزي[3] الأمر بطريقة أخرى، إذ يشير إلى أن برقوق أثناء إمارته وقبل توليه السلطنة حاول السيطرة على أراضي الأوقاف الذرية، إلا أن البلقيني وقاضي القضاة بدر الدين محمد بن أبي البقاء نجحا في إقناعه بالتراجع عن محاولته هذه، إلا أن الأمراء المماليك رغم ذلك أخذوا يستأجرون أراضي الأوقاف، ويؤجرونها للفلاحين بأكثر مما استأجروا، واستمروا في سياساتهم هذه حتى سيطروا على كثير من أراضي الأوقاف، في مصر والشام، ولم يعد ينال مستحقو هذه الأوقاف، في أحسن الأحوال، إلا عشر ريعها، وكثير منهم لا يدفع لهم شيء.

وهنا يلاحظ بصورة واضحة، أن هذه الأعمال كانت تستهدف الأراضي الزراعية، وليس الأوقاف الثابتة مثل الدكاكين أو الخانات أو الحمامات والمطاحن والمعاصر، والعمارات الوقفية، نظراً لأن الأراضي الزراعية، كانت تشكل التمويل الرئيسي لخزينة الدولة الإسلامية آنذاك.

ثم جاءت المحاولة الأخيرة لبرقوق عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م حيث يشير المقريزي[4] إلى أنه حاول إقناع الفقهاء والقضاة، بحل الأراضي الموقوفة، على الجوامع والمدارس والخوانك والزوايا والربط، وعلى أولاد الملوك والأمراء وغيرهم، فضلاً عن جوانب البر

---

(١) رحلة: ص١٩٣.

(٢) النجوم الزاهرة: ١١/ ١٦٦.

(٣) المواعظ: ٢/ ٢٩٦.

(٤) السلوك: ج٣ قسم١: ص٣٤٥-٣٤٧.

الأخرى، وبرر محاولته هذه بكثرة الأراضي الموقوفة في مصر والشام، وإنها أضعفت الاستعداد القتالي للجيش المكلف بالدفاع عن دار الإسلام، وقد رفض القضاة، وعلى رأسهم البلقيني هذا الاقتراح، ومع ذلك فقد أخرجت عدة أوقاف وتحولت إلى الاقطاعات.

ويلاحظ أن رواية ابن حجر[1] تتحدث عن نتائج هذه المحاولة بطريقة أخرى، وهي أن الأمراء المماليك، هم الذين ضغطوا على السلطان برقوق، من أجل إبطال أراضي الأوقاف في مصر لأن الواقفين كانوا يشترون الأراضي بطريق الحيلة ثم يوقفونها، وقد أيد السلطان هذا الاقتراح وعقد مجلساً لهذا الغرض قال فيه "ما أضعف عسكر المسلمين، إلا هذه الأوقاف والصواب استرجاعها" وقد رد عليه البلقيني "أما أوقاف الجوامع والمدارس وجميع ما للعلماء والطلبة فلا سبيل عليها... وأما ما أوقف على عويشة وفطيمة واشتري لأمثالهم من بيت المال بالحيلة فينبغي أن ينقض إذا تحقق أنه أخذ بغير حق" وهنا نرى البلقيني ينحاز إلى جانب الأوقاف العامة، التي تمول كل أعمال البر التي يستفيد منها المجتمع بأكمله، ولكنه في الوقت نفسه يبين عدم مشروعية الأوقاف الذرية، التي أوقفها السلاطين على ذرياتهم إذا ثبت أن مصدرها غير شرعي، ومن بيت مال المسلمين.

كما قام بجكم الذي أصبح سلطاناً في حلب عام ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م في عهد السلطان المملوكي فرج بن برقوق ٨٠١-٨٠٨هـ/ ١٣٩٨-١٤٠٥م بالسيطرة على أوقاف حلب وتوزيعها على المماليك المؤيدين له[2] كما استولى الأمير جوهر الخازندار سنة ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م في عهد السلطان برسباي على الأوقاف المتعلقة بموتى المسلمين (أوقاف الطرحاء) وأخرجها من سلطة قاضي القضاة بدر الدين العيني[3] وهذا غيض من فيض كما يبدو في هذه الفترة الشديدة الاضطراب التي شهدت نهاية عهد الدولة المملوكية.

ويشير ابن إياس[4] إلى أن السلطان الأشرف قايتباي حاول عام ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م بعد هزيمة قواته أمام إمارة ذي الغادر[5] وتمرد عرب منطقة البحيرة في الدلتا، أن يسيطر

(١) أنباء الغمر: ص١٧٨؛ السيوطي، الحاوي: ١/ ٢٥٢.
(٢) ابن أياس، المصدر السابق: ١/ ٣٥٢.
(٣) ابن الصيرفي، المصدر السابق: ٣/ ٣٧٧.
(٤) المصدر السابق: ٢/ ٩٦-٩٧.
(٥) ذو الغادر: إمارة تركمانية قامت على الحدود المملوكية العثمانية ضمت مناطق من جنوب وسط تركيا الحالية منها ابلستان ومرعش وعينتاب وانطاكية وملطية وخربوت وقارص وحكمت في الفترة ما بين ٧٤٠-٩٢١هـ/ ١٣٣٩-١٥١٥م زامباور، معجم: ص٢٣٦.

على أوقاف الجوامع والمساجد ويبقي فقط الإيراد الضروري لها، ورغم أن الخليفة العباسي آنذاك والذي كان أشبه بالموظف الملحق بالبلاط المملوكي، فضلاً عن بعض القضاة، قد أيدوا السلطان في مقترحه إلا أن الشيخ أمين الدين الأقصراي الحنفي، رفض هذا المقترح قائلاً "لايمكن للسلطان أخذ أموال الناس إلا بوجه شرعي وإذا ما نفذ ما في بيت المال ينظر ما في أيدي الأمراء والجند وحلي النساء فليأخذ منه ما يحتاج إليه، وإذا لم يوف بالحاجة ففي ذلك ينظر في المهم، إن كان من الضروري في الدفع عن المسلمين حل ذلك بشرائط متعددة، وهذا هو دين الله تعالى إن سمعت آجرك الله على ذلك، وإن لم تسمع فافعل ما تشاء" وقد فشل المقترح بعد هذا العرض الشرعي الجريء من قبل الاقصراي. وإذا كان هناك ثناء يوجه إلى الاقصراي، فإن الثناء الأكبر يوجه أيضاً إلى قايتباي، الذي إنصاع لرأي الشرع، رغم أن الظروف وواقع الأحداث كان يدفع باتجاه تأييد هذا المقترح.

وأعاد قايتباي الكرة عام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م حيث عقد مجلساً حضره الفقهاء والقضاة لعرض حل الأوقاف، إلا أن قاضي القضاة الأمشاطي الحنفي رد عليه بقوله "إن السلطان له ولاية التفويض إلا من شاء من النواب، وأما أنا فلا ألقى الله تعالى بحل وقف ولا بعمل استبدال وقام من المجلس كالغضبان" وقد رضخ السلطان هذه المرة أيضاً لشرع الله[1]. ولم ينج الغرب الإسلامي من المخاطر التي تعرض له الوقف في المشرق، حيث يشير المنوني[2] إلى أن السلطان المريني أبو سعيد الثاني سيطر على أكثر أوقاف المدارس والمستشفيات.

وفي عهد السلطان الغوري ٩٠٦- ٩٢٢هـ/ ١٥٠٠- ١٥١٦م الذي خلف قايتباي يشير ابن اياس[3] إلى أنه اتفق مع الأمراء المماليك في ذي الحجة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م و المحرم ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م على السيطرة على الأوقاف التابعة للجوامع والمدارس وأن لا يبقى لهم إلا ما يقوم بالشعائر فقط وكانت الحجة نفسها، كما في المحاولات السابقة، وهي الحاجة إلى تمويل الجيش، لا سيما لرد التهديدات الخارجية وقد فشلت هذه المحاولة، نتيجة تحرك المشاعر الشعبية ضد هذا القرار، وهذا ما دفع الغوري إلى محاولة كسب شرعية لقراره من خلال عقد اجتماع يحضره قضاة المذاهب الأربعة، وقد فشل هذا

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ١٤٤.

(٢) ورقات: ص٩٣.

(٣) المصدر السابق: ٤/ ١٤-١٥.

التحرك الأخير لوقوف القضاة بصورة جماعية ضده بل أن القاضي الحنبلي ندد بشدة بالسلطان، وهذا ما دفع الأخير إلى تهديده قائلاً "إذا ركبوا المماليك وطلبوا مني نفقة، أنا أبعثهم لك في بيتك كلهم مثل ما تعرف" ويظهر أن السلطان اجتمع بعد ذلك على انفراد مع القاضي الحنفي والذي عقد اتفاقاً مع السلطان بصيغة توفيقية معدلة، حيث عقد السلطان على أثره اجتماعاً آخر مع الأمراء المماليك تقرر فيه الإبقاء على وضع الأوقاف كما هي، ويؤخذ من ريعها إيراد سنة كاملة، لتمشية أمور الدولة، ومع ذلك فقد عاد الخطر من جديد عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م حيث سيطر الغوري على بعض الأوقاف، وصادرها لحساب المماليك، وعلق على عمله هذا ابن أياس[1] بقوله "وهذا الأمر ما سبقه به أحد من الملوك السابقين".

فضلاً عن المخاطر السياسية السابقة، فقد تغضب السلطات على أحد الواقفين ثم يحل وقفه، بصورة غير شرعية ويؤمر ببيع وقفه كما حدث لسيف الدين يلبغا الناصري سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م في عهد السلطان المظفر أمير حاجي بن الناصر محمد[2].

❖ **محاولات الاقتراض من أموال الأوقاف:**

إن أول إشارة وردت في هذا المجال، عندما لجأت الدولة العباسية، في عهد الموفق طلحة[3] ت ٢٧٨هـ/ ٨٩١م إلى الاقتراض من أموال الأوقاف، أثناء التصدي لحركة الزنج التخريبية في جنوب العراق، والتي استمرت خمسة عشر عاماً، حيث طلب الموفق من القاضي البرتي، قاضي بغداد الشرقية، ومن القاضي إسماعيل بن إسحاق أن يقرضاه ما في أيديهما من أموال الأوقاف، فحمل إليه إسماعيل ما في عهدته، بينما طلب القاضي البرتي مهلة لمدة ثلاثة أيام، قام من خلالها بتسليم أموال الأوقاف إلى مستحقيها، فكان جزاؤه أن صرف.

عن منصبه، بينما كوفئ إسماعيل، بأن رفع ولقب مقدم القضاة[4] فقد اتجه ذهن البرتي إلى المحافظة على أموال الأوقاف، لمصلحة مستحقيها، وكان عليه أن يفكر بمستقبل الدولة والمجتمع الإسلاميين، الذي هددتهما هذه الحركة التخريبية، فيقرض الأموال

---

(١) المصدر نفسه: ٤/ ١٣٦.

(٢) ابن كثير، المصدر السابق: ١٤/ ٢٢٢.

(٣) الموفق طلحة: هو أبو أحمد طلحة بن المتوكل على الله ولد سنة ٢٢٩هـ/ ٨٤٣م وكان الحاكم الحقيقي في خلافة المعتمد على الله، تمكن من القضاء على حركة الزنج التخريبية ابن كثير، المصدر السابق: ١١/ ٦٣.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم: ٥/ ١٤٥، الأنباري، النظام القضائي: ١/ ٣٧٨-٣٧٩.

ويستحصلها بعد ذلك علماً بأن فقهاء المالكية، أجازوا استلاف أئمة المسلمين من مال الأوقاف[1].

وشهد تاريخنا محاولة مشابهة من قبل القائد الأغلبي إبراهيم بن الأغلب التميمي ت ٢٩٦هـ/ ٨٤٠ عند اشتداد ضغط القوات الفاطمية على تونس ووصول قطعاتها إلى القيروان، حيث حاول أن يقترض من أموال الأوقاف، لدعم تمويل قواته، إلا أن أهل القيروان رفضوا طلبه[2].

❖ **محاولات التصرف المؤقت بأموال الوقف:**

يشير المقريزي[3] إلى أن السلطات المملوكية، لجأت عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م عند تهديد المغول بقيادة غازان للشام، إلى التصرف بإيجار أربعة أشهر من أموال الوقف، في مدينة دمشق، لتمويل المجهود الحربي، وهو تصرف له ما يبرره أحياناً، نظراً لأن خزينة الدولة خاوية، ولا تستطيع أن تعد قواتاً للدفاع عن العقيدة إلى الأرض والإنسان كما أن الأوضاع المهنية والتجارية. في المدن الكبرى، تساعد على توفير السيولة النقدية بسرعة وبصورة فعالة، أكثر من الفلاحين في الريف، والذين يعتمدون على موسم الحصاد. كما يشير ابن اياس[4]

إلى قيام السلطان فرج بن برقوق سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م بأخذ خمسة أشهر من ايجارات الأوقاف في دمشق لمواجهة خطر تيمورلنك الذي كان قد دخل حلب ودمرها.

كما قام الأشرف قايتباي، بأخذ أجرة الوقف لشهرين في مصر والقاهرة سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م وأعاد الكرة سنة ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م. وأخذ أيضاً أجرة خمسة أشهر لسد احتياجات الجيش[5].

❖ **تراجع الواقف عن وقفه:**

قد يقوم الواقف بالتراجع عن وقفه بعد تسجيله فيحاول بما يمتلكه من نفوذ أو سلطة أحياناً الحصول على سجل الوقف المودع لدى القاضي وتمزيقه، وهو ما حاولت أن تفعله السيدة أم المقتدر العباسي مع القاضي جعفر بن البهلول عندما طلبت منه كتاب

---

(١) الونشريسي، المصدر السابق: ٧/ ١٨٥.

(٢) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة: ص٢٣٩.

(٣) السلوك: ج١ قسم٣: ص٩٠٧.

(٤) المصدر السابق: ١/ ٣١٥.

(٥) ابن أياس، المصدر السابق: ٢/ ٢٥٧، ١٦٨-٢٩٥.

وقف لضيعة تعود إليها، وكان الكتاب في ديوان القضاء، وأرادت أخذه وتمزيقه، وإبطال الوقف إلا أن القاضي رفض تسليمه، وقد وقف المقتدر إلى جانب قاضيه وأنب أمه على محاولتها التعرض للقضايا الشرعية[1].

❖ فساد الأجهزة الإدارية المشرفة على الأوقاف أحياناً وتلاعبها بمقدراته:

إن فساد الأجهزة الإدارية أحياناً قد يشكل عاملاً خطيراً جداً على الأوقاف، من خلال تلاعبهم بـ في الوثائق والإيرادات فالأوقاف القديمة، قد تصبح مع مرور الزمن، في أيدي غير أمينة لا سيما عند عدم تجديد وصيانة أوراق وثائق ملكية الأوقاف، مما يؤدي إلى تلفها وبالتالي تصبح هذه الأوقاف، بالتواطئ مع الإدارة بأيدي مستغليها ويتملكونها[2] وقد دفعت هذه المخاطر الفقيه والقاضي المشهور تاج الدين السبكي، إلى التنديد بلصوص الأوقاف في عصره، والذين يلجأون إلى السيطرة عليها، والتصرف بها عن طريق الرشوة[3] ومن أمثلة فساد الأجهزة الإدارية ما ذكره ابن حوقل[4] من أن المتولين على أوقاف توفير المياه بمكة استولوا على هذه الأوقاف واستأثروا بها، ولربما لم يكن الأمر بالصورة القاتمة التي أوردها ابن حوقل وإنما ينحصر في بعض أوقاف المياه التي تعرضت للعدوان، وليس كلها.

ويشير الصابئ[5] إلى عدم نزاهة وسوء تصرفات المدعو أرسلان المسؤول عن الأوقاف في بغداد عام ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م، وهي التي دفعت العامة، إلى قتله بصورة شنيعة. كما أمر السلطان السلجوقي محمود بالتحقيق مع قاضي القضاة الزينبي، لوصول معلومات إلى السلطان تشير إلى أن إيرادات أوقاف مدرسة أبي حنيفة تبلغ ٨٠ ألف دينار ولا ينفق منها على مصالح المدرسة سوى ألف دينار[6]. وعندما عرضت كتب وقف جامع دمشق، وغيرها من الأوقاف الأخرى، والتي تعود إلى السلطان نور الدين زنكي رحمه الله ٥٤١-٥٦٩هـ/ ١١٤٦- ١١٧٣م ومن جاء بعده على السلطان المملوكي الناصر محمد عام ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م وجدها في حالة يرثى لها فقد تمزقت وتلف بعض

---

(١) ابن الجوزي، المصباح المضيء: ١/ ٥٧١-٥٧٣، ابن كثير، المصدر السابق: ١١/ ١٦٥.
(٢) ابن الجزري، المختار: ص٦٨.
(٣) معيد النعم: ص١٨.
(٤) المصدر السابق: ص٣٧.
(٥) تاريخ الهلال الصابي: ٣/ ٤٠٢.
(٦) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ١٣٠.

سطورها، فأمر بإعادة كتابتها وإثبات نسخ منها عند سائر القضاة، وأجراها على شروط واقفيها[1].

وهنا قد يكون هناك تساؤل مشروع، وهو أين الكادر الكتابي المسؤول عنها؟ وأين مراقبة القضاة؟ يبدو والله أعلم، أن وسائل الحفظ، وعمليات التجديد، لم تكن تسير على ما يرام أحياناً لا سيما إذا علمنا أن بلاد الشام مثلاً تعرضت خلال هذه الفترة للغزو المغولي، وعمليات الفوضى والتخريب الداخلية أحياناً. كما أورد العمري[2] ما يشير إلى اتهامه الأجهزة الإدارية بالاعتداء على أوقاف الجامع الأموي بدمشق، وإن لم يورد تفاصيل تتعلق بالأمر.

ويشير ابن حجر[3] إلى قيام القاضي والمؤرخ المشهور ابن خلدون بمعاقبة كل من تاج الدين بن الطريف، وعز الدين الطيبي، ومنعهما من ممارسة أي وظيفة، لأنهما أعانا على بيع وقف بان محيا ما يثبت وقفيته، وقدما تاريخ الإجازة، وكان ما عمله هذان المزوران ميداناً لتندر أحد الشعراء فقال:

سعى الطيبي بتزويره	**وظن ابن خلدون لم يرقب**
وما ساقه الله إلا لأن	**يميز الخبيث من الطيب**

ويشير المقريزي[4] إلى دور الإدارة في الاعتداء على أوقاف المدرسة الصاحبية البهائية في القاهرة والتي أنشأت عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م فانتهى التدريس فيها بعد أن كانت من أعظم مدارس القاهرة. وظهر الدور المشين للإدارة أيضاً في اختفاء أوقاف جامع وخانقاه طيبرس في القاهرة[5].

وقد يأتي الخطر أحياناً من ذرية المسؤولين عن الجهاز الإداري للوقف، والذين يستغلون منصب ذويهم، فيلجأون إلى الارتشاء، بل وبيع الأوقاف أيضاً كما حدث في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م، عندما قام ابن قاضي الحنابلة والمسؤول عن الأوقاف أحمد بن عمر المقدسي الحنبلي، ببيع بعض الأوقاف،

(١) ابن شداد، الأعلاق: ٢/ ٨٠-٨١.
(٢) مسالك الأبصار: ١/ ٢٠٣.
(٣) أبناء الغمر: ص٢٩١.
(٤) المواعظ: ٢/ ٣٧١.
(٥) المصدر نفسه: ٢/ ٣٨٣.

وقبض الرشاوي، مما أدى إلى عزل والده عن مناصبه[1] كما أشار الكتبي[2] إلى أن سبب مقتل أحمد بن نصير الدين الطوسي[3]، على يد الايلخان غازان[4] هو قيامه بالسطو على أوقاف سلاجقة الروم. وأشار ابن إياس[5] إلى قيام عبد الرحمن بن سويد المالكي عام ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م والمسؤول عن أوقاف مدرسة مدينة جدة ببيع أوقافها، وقد عوقب بشدة على لصوصيته حتى افتقر.

❖ العدوان الخارجي والكوارث الطبيعية:

إن احتلال أقاليم واسعة من الأراضي الإسلامية على يد كل من المحتلين الصليبيين والمغول، لا سيما في بلاد الشام، فضلاً عن أقاليم المشرق التي دمرها المغول، قد أدى إلى إلحاق الدمار، والأضرار الجسيمة، بالحواضر والأرياف على السواء.الأمر الذي انعكس سلباً على الأوقاف والمجتمع الإسلامي أجمع. ويشار في هذا المجال إلى أن نصير الدين الطوسي وهو عدو الدين، كان يحصل على ١٠٪ من إيرادات الأوقاف في مملكة هولاكو بعد أن عينه الأخير مشرفاً على جميع الأوقاف، وكانت هذه الإيرادات تصرف على مرصد مراغة[6] كما تعرضت الأوقاف حالها حال بقية الأملاك العقارية، والأراضي الزراعية، إلى دمار شديد في حملة غازان على بلاد الشام عام ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م[7]. كما يشار أيضاً إلى ما فعله تيمورلنك في بغداد عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م وتكريت عام ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م[8] وفي دمشق عام ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م حيث أحرقت قواته الكثير من المدارس، مثل المدرسة الأشرفية، ودار الحديث النورية، والعادلية الصغرى والقيمرية وامتدت النيران إلى مارستان نورالدين زنكي[9].

---

(١) ابن حجر، الدرر: ١/ ٢٢٦.

(٢) فوات الوفيات: ٢/ ٣١٢.

(٣) هو ابن ذلك الخائن الذي تعاون مع هولاكو في القضاء على الخلافة العباسية وقتل الخليفة المستعصم.

(٤) غازان: هو السلطان الإيلخاني غازان بن أرغون حفيد هولاكو أسلم سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م وكان يحكم العراق وخراسان وفارس والروم والجزيرة وأذربيجان. الشوكاني، البدر الطالع: ٢/ ٣٠٢ الصياد، الشرق الإسلامي: ص٢٣٢-٢٤٢.

(٥) المصدر السابق: ٢/ ١١٧.

(٦) الكتبي، المصدر السابق: ٢/ ٣٢٠.

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٤/ ٧-١٣، ٣٠: الصياد، الشرق الإسلامي: ص٢٣٢-٢٤٢.

(٨) ابن إياس، المصدر السابق: ١/ ٣٦٦،٣٧٥.

(٩) المقريزي، السلوك ج١ قسم٣: ص٨٩٤-٨٩٥.

ولعبت الكوارث الطبيعية مثل الفيضانات والأوبئة والجفاف فضلاً عن الزلازل والحدائق دوراً كبيراً في إلحاق أفدح الأضرار، بالأوقاف الإسلامية، فالفيضانات المدمرة التي اجتاحت وادي دجلة والفرات قد أدت إلى تدمير واسع النطاق للمؤسسات الوقفية وممتلكاتها، وقد أشار صاحب الحوادث الجامعة[1] إلى النتائج المدمرة للفيضان الذي اجتاح تكريت عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م وأدى إلى إحداث خراب واسع النطاق في المدينة. كما أشار الأشرف الغساني[2] إلى فيضان مدمر اجتاح المناطق الواقعة على الفرات في العراق عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م فقد غرقت القرى الواقعة على نهر عيسى ومالك وهذان رافدان يأخذان مياههما من نهر الفرات، كما أغرق الفيضان مدن عانة والحديثة، وهيت والأنبار والفلوجة، ودمر المحصول الزراعي لهذه السنة. كما تحدث صاحب الحوادث الجامعة[3] عن الآثار الخطيرة للفيضان الكبير الذي اجتاح سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م المدن والقرى الواقعة على نهر دجلة، والذي يسميه (الغرق العام) والذي أسفر عن تدمير أكثر مدينة بغداد.

في حين أشار المقريزي[4] إلى الأضرار المدمرة للإنسان والاقتصاد المصري، نتيجة انخفاض مناسيب فيضان نهر النيل السنوي بمصر سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م حيث يقول "وهذه السنة هي أول سنين الحوادث والتي خرب فيها معظم الديار المصرية وأعمالها في الشراقي واختلال الكلمة، وتغير الولاة". ويوضح المقريزي[5] الآثار المدمرة الناجمة عن انخفاض منسوب فيضان النيل هذه السنة، بأنه أدى إلى انتشار القحط والمجاعة، وارتفاع الأسعار، حتى تجاوز الحدود المعقولة فقد ازداد سعر الأردب[6] من القمح من ثلاثين درهم سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م إلى أربعمائة درهم.

وارتفعت أسعار المأكول والمشروب، والملبوس، وهبطت قيمة العملة، وارتفعت أجور العمال وأرباب المهن والصنائع. ومن الطبيعي أن يؤدي فشل الموسم الزراعي، إلى انقطاع إيراد الأوقاف، وبالتالي عجز المؤسسات الوقفية عن تمويل نفسها، مما يؤدي بصورة طبيعية، إلى أن تقنن خدماتها أو تلغيها، وهو ما حدث فعلاً، بل أن بعض

(١) مجهول: ص١٥٣.

(٢) المصدر السابق: ص٦٠١.

(٣) المصدر السابق: ص٣٠٣.

(٤) اغاثة الامة: ص٤٢.

(٥) إغاثة الأمة: ص٤٢.

(٦) الأردب: يعادل وزن ٦٩,٦كغم من القمح و ٥٦كغم من الشعير، هنتس، المرجع السابق: ص٥٨.

المؤسسات الوقفية، من مدارس، وخانقات، ودور حديث وقرآن أغلقت أبوبها، ولم نعد نسمع عنها شيئاً بعد هذه السنة وبعد كوارث عام ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م[١] أما انتشار الأوبئة فهو يتلازم أحياناً مع انتشار المجاعة والظروف الجوية السيئة مثل انخفاض درجات الحرارة وهو ما حدث عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م حيث اجتمع الجوع والبرد مما أدى إلى انتشار الأوبئة التي أدت إلى وفيات كبيرة جداً[٢] وازدادت الأوبئة انتشاراً عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م حيث عم الطاعون وحدث موت هائل للناس[٣] وعم الطاعون الذي سمي (بالعظيم) إقليم الصعيد بمصر عام ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م. مما أدى إلى خراب عظيم للإقليم وانخفاض سكانه بصورة كبيرة[٤].

من الطبيعي أن يؤدي ارتفاع الوفيات إلى قلة الأيدي العاملة في الريف، وربما اختفاء الناس في مناطق بأكملها، مما يؤدي إلى ترك الأراضي الزراعية، بلا فلاحين، لا سيما في تلك الحقبة التي كان الفلاح هو العمود الفقري للعمليات الزراعية، وهو ما انعكس سلباً على إيراد الأوقاف الإسلامية.

ولم يرتبط انتشار الأوبئة بالإنسان فقط، بل شمل أيضاً الحيوانات المرتبطة بالعملية الزراعية فقد أشار المقريزي[٥] إلى موت الدواب عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م و ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م حتى عزَّ وجودها، وارتفعت أسعارها، بشكل خرافي وانتشر الوباء في البقر، وهو حيوان حليب ولحم وحمل في آن واحد، حتى بلغ سعر البقرة مائة مثقال من الذهب في هذه السنوات العجاف[٦].

أما الزلازل فقد أشار المقريزي[٧] إلى زلزال عنيف خرب مصر عام ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م أدى إلى تدمير كثير من مدن مصر، ودمر جامع عمرو بن العاص، وأكثر سواري جامع الحاكم، وسقطت مأذنتاه وخرب الجامع الأزهر وكثيراً من مآذن مصر.

---

(١) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٣٧٥، ٤٢٥، ٤٢٨، ٦٣٢.
(٢) المقريزي، إغاثة الأمة: ص٤٣.
(٣) ابن إياس، المصدر السابق: ١/ ٣٤٨.
(٤) ابن تغري بردي، المصدر السابق: ١٣/ ٥٢.
(٥) إغاثة الأمة: ص٤٣.
(٦) المصدر نفسه: ص٧٧.
(٧) المقريزي، السلوك: ح١ قسم٣: ص٩٤٨.

ومن الطبيعي أن يكون نصيب بنايات المدارس، والقيساريات، والحوانيت أو الحمامات، والمطاحن والدور الوقفية كبيراً حالها حال الجوامع ومآذنها. مما ينعكس بصورة سلبية على أداء هذه المؤسسات لواجبها فضلاً عما تتطلبه عملية إعادة ترميمها أو بناءها من جديد، من استنزاف لإيرادات الوقف التي عانت هي الأخرى من هذه الأضرار المدمرة.

أما على صعيد الحرائق المدمرة التي اجتاحت المدن وانعكست سلباً بصورة واسعة، على المؤسسات والإيرادات الوقفية فقد أشير إلى بعضها مثل حريق عام ٣٠٩هـ/ ٩٢١م والذي شمل محلة باب الشام وسويقة نصر والحذائين بالكرخ، وبين القنطرة الجديدة وباب الحراني في بغداد وهلك فيه خلق كثير، فضلاً عن تدمير الممتلكات[1]. كما أشير إلى حريق عظيم آخر عام ٥٥١هـ/ ١١٥٦م في عدة مناطق من بغداد، ودام أياماً مثل درب فراشا ودرب الدواب، ودرب اللبان وخربة بن جردة، والظفرية، والخاتونية، ودار الخلافة، وباب الأزج، وسوق السلطان ونهر المعلى[2].

وأشار ابن كثير[3] إلى النتائج المدمرة على أملاك الأوقاف، عندما اندلع حريق عظيم عام ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م في مدينة حماه الشامية، ودمر كثيراً من الأسواق، وأملاك الأوقاف كما أحرق أكثر مدينة إنطاكية في هذه السنة، وكان لذلك رنة حزن عظيمة في بلاد الشام.

❖ مخاطر المؤجرين على أملاك الوقف:

إن خطورة هؤلاء تكمن في لجوءهم مع تقادم الزمن إلى السيطرة على أملاك الأوقاف، التي يستفيدون منها، كما حدث لأوقاف الخليل عليه السلام التي سيطر عليها المؤجرون، وأعادها الملك الظاهر بيبرس[4].

❖ الفتن والاضطرابات الداخلية:

إن الفتن والاضطرابات تؤدي إلى غياب السلطة أحياناً، وبالتالي إلى غياب القانون، والمطبقين له، فضلاً عما ينتج عنها من تخريب، مثال ذلك إن فتنة الكذاب الذي أدعى أنه

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ٦/ ١٥٦.

(٢) المصدر نفسه: ١٠/ ١٦٥.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/ ١٧٠.

(٤) المقريزي، السلوك: ج١ قسم٢: ص٤٤٥.

المهدي سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م في البصرة أدت إلى احتراق معظم المدينة، ومن جملتها دار الكتب التي أنشأت قبل عهد عضد الدولة البويهي، وهي أول دار كتب عملت في الإسلام، ودار كتب أبي منصور فضلاً عن تخريب أوقاف دواليب الماء[1].

وامتازت أيام حكم السلطان فرج بن برقوق ما بين ٨٠١- ٨١٥هـ/ ١٣٩٨- ١٤١٢م بكونها من أكثر فترات الحكم المملوكي اضطراباً، حيث تركت آثاراً سلبية على الأوقاف الإسلامية، حيث أغلق الكثير منها أو انخفضت خدماتها[2].

---

(١) ابن الجوزي، المصدر السابق: ٩/ ٥٣، وينظر ابن الأثير، الكامل: ٨/ ١٥٣.

(٢) ابن تغري بردي، المصدر السابق: ١٣/ ١-١٥٣.



الفصل الثاني

خدمات الأوقاف التعبدية

خدمات الأوقاف التعبدية

يمثل هذا المحور، ميادين عديدة، ما بين العبادة والبر والإحسان، مثل بناء المساجد والجوامع والربط، وخدمات الحرمين الشريفين.

المساجد والجوامع:

إن المصادر المتاحة لا تقدم معلومات كثيرة عن المساجد والجوامع والأوقاف التي حبست لخدمتها في القرون الأولى، فقد كانت مؤونة خدمة هذه المؤسسات قليلة بشكل عام. وإذا كانت الدولة الإسلامية قد أنشأت المساجد في العصر الراشدي، استناداً إلى مسؤوليتها كدولة، وأصبحت قلباً للمدينة الإسلامية، من خلال تخطيط المدن الجديدة مثل الكوفة والبصرة والفسطاط، وكذلك الحال في بناء المساجد في المدن المحررة والمفتوحة، مثل الموصل والتي بنى واليها عتبة بن فرقد السلمي مسجدها الجامع عام ١٦هـ/ ٦٣٧م[1] وسار الأمر على الوتيرة نفسها في العصر الأموي، وإن أخذ البناء طابعاً شخصياً أحياناً، كما هو الحال عندما بنى الخليفة عبد الملك بن مروان ٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٤-٧٠٥م[2] المسجد الأقصى أو عندما قام الخليفة الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٤م بتوسيع المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف[3] ومسجد قباء وجامع دمشق[4].

ولا تشير المصادر إلى وجود أحباس (أوقاف) أوقفت على هذه المساجد، مما يدل ربما على الأرجح على أن مسؤولية تمويل حاجاتها، كان يتحملها بيت مال المسلمين، حالها كحال النفقات الأخرى، وهناك ما يشير إلى أن الأوقاف، بدأت ترتبط بالمساجد في نهاية القرن الثالث الهجري وأخذت الحالة بالاتساع فيما بعد. ويمكن اعتبار جامع أحمد بن طولون، المثال الأول على الجوامع التي حبست عليها أوقاف خاصة[5] والذي بدأ

---

(١) الديوه جي، جوامع الموصل: ص٥.

(٢) دكسن، الخلافة الأموية: ص٤٠-٤١.

(٣) ينظر عن التوسعات زمن الخليفتين الراشدين عمر وعثمان ﷺ وفي عهد خلافة عبد الله بن الزبير، ثم الوليد بن عبد الملك، والمهدي والمأمون، اليعقوبي، تاريخ: ٢/ ٣٦٩، ٣٩٦، ياقوت، معجم البلدان: ٥/ ٨٧، ابن خلكان، المصدر السابق: ٣/ ٧١، السيوطي، تاريخ: ص١٤٩.

(٤) الهمذاني، مختصر: ص١٠٦.

(٥) ابن حجر، رفع الأصر: ص١٤٦، النعيمي، الدارس: ١/ ٦٨.

العمل فيه سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م وكمل في سنة ٢٦٦هـ/ ٨٧٩م[١] وقد بلغت كلفة إنشائه ١٢٠ ألف دينار[٢].

وهو مبلغ ضخم آنذاك، ويبدو أن الجامع وأوقافه قد تعرضتا إلى الخراب، مع مرور الزمن، فلما تولى السلطان المملوكي لاجين الحكم عام ٦٩٦هـ/ ١٣٩٣م عمره وعمر أوقافه، وأوقف عليه بدوره عدة قرى[٣] وأشار المقريزي[٤] إلى أن من هذه القرى، قرية أندونة، وأشار في موضع آخر إلى أن الملك محمد بن قلاوون، أضاف إلى أوقافه طاحوناً وفرناً وحوانيت. كما ويشير السيوطي[٥] إلى أنه جعل فيه دروساً في التفسير والفقه على المذاهب الأربعة، والقراءات والطب، والميقات. ولما بنى الحاكم مساجد في القاهرة، أوقف على جامع أحمد بن طولون عدة قيساريات وأملاك[٦].

ويشير المقدسي[٧] إلى أن جميلة بنت ناصر الدولة الحمداني[٨] أوقفت على جامع النبي يونس في الموصل أوقافاً جليلة. كما أن المقريزي[٩] يشير إلى أن المساجد في مصر والتي لا أوقاف لها أحصيت في عهد الخلفة الفاطمي الحاكم ٣٨٦-٤١١هـ/ ٩٦٦-١٠٢٠م فبلغت ٣٣٠ مسجداً تحتاج في الشهر إلى نفقات بلغت ٩٢٢٠درهم، وقد أوقف عليها عام ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م عدة ضياع وهي اخطيح وصول وطوخ، وست ضياع أخر.فضلاً عن قيساريات لتمويل خدماتها. كما أن الحاكم أوقف أيضاً على الجامع الأزهر وجدده[١٠]. كما أشار ناصر خسرو[١١] عند زيارته لمسجد ومشهد الخليل في فلسطين، إلى الأوقاف الضخمة الموقوفة عليه في مدينة القدس طهرها من رجس اليهود من بنايات، فضلاً عن القرى لتمويل حاجاته وخدماته.

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ٢٤٦.
(٢) ابن خلكان، المصدر السابق: ١/ ١٧٣، ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٣/ ٨.
(٣) ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٨/ ١٠٧.
(٤) السلوك، ح١، قسم٣: ص٨٢٧.
(٥) حسن المحاضرة: ٢/ ٢٤٩.
(٦) المصدر نفسه: ٢/ ٢٥٣.
(٧) أحسن التقاسيم: ص١٤٦.
(٨) جميلة بنت ناصر الدولة: كانت الأميرة جميلة من ألمع نساء عصرها في القرن الرابع الهجري على صعيد السياسة والإدارة والخيرات، لعبت دوراً مهماً في حياة أبيها وأخيها أبو تغلب ت ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م ينظر للمزيد عنها السامر، الدولة الحمدانية: ٢/ ٣٨٢-٣٨٤.
(٩) المواعظ: ٢/ ٩٥.
(١٠) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ٢٥١.
(١١) رحلة: ص٣٥.

وقد ظل جامع عمرو بن العاص (الجامع العتيق) في الفسطاط، يصرف عليه من بيت المال ولم يلحق بالأوقاف، إلا في عهد الظاهر بيبرس، عندما تولى ابن بنت الأعز العلائي الشافعي منصب قاضي القضاة، ونظر الأحباس، حيث قام بإعادة تعمير الجامع من مال الأوقاف[1] كما ويمكن تفسير الأوقاف التي أوقفت على جامع دمشق، والتي أشير إليها في القرن السادس بأنها أوقفت في فترة متأخرة، فقد أضاف السلطان الراشد نور الدين زنكي رحمه الله ت ٥٦٩هـ/ م إلى أوقاف الجامع الأوقاف التي لا تعرف شروط واقفيها وسماها مال المصالح[2]. كما أشارت بعض المصادر إلى أسماء النظار الذين أشرفوا على جامع دمشق[3] وأشار سبط بن الجوزي[4] إلى أنه أوقف أيضاً على ١٠٠ مسجد في دمشق، كما أوقف أيضاً على جامع حلب وقوفاً كثيرة، فضلاً عن أوقافه السابقة، ومن أوقاف نور الدين على هذا الجامع سوق البز[5]. كما بنى في حلب مسجد الغضائري وأوقف عليه وقوفاً[6] كما أوقف على جامعه النوري الذي بناه في الموصل، ضيعة من ضياع هذه المدينة[7].

وعندما قام السلطان المملوكي الأشرف برسبايم ببناء جامعه الكبير أوقف عليه أوقافاً عظيمة، وفصلت حجة وقف الجامع طبيعة الوظائف التي تشمل الجانب التعبدي والتعليمي والاجتماعي والخدمي في الجامع، مثال ذلك فيما يتعلق بالجانب التعبدي، إن الإمام الذي يشترط أن يكون حافظاً للقرآن الكريم، حنفي المذهب، يتسلم راتباً شهرياً، قدره ألف درهم والخطيب الذي يخطب في الجمعة والعيدين ٥٠٠ درهم، والمؤذنين الستة ذوي الأصوات الشجية مائة ألف درهم، ومؤقت ٣٠٠ درهم، ويصرف لخمس جوق من حفاظ القرآن، في كل جوق ثلاثة، لكل جوق ٢٠٠ درهم، وتقرأ كل جوقة بعد كل صلاة، حزبين من القرآن. ويصرف لرجل من الحفاظ يقرأ في المصحف، في كل يوم جمعة ١٠٠ درهم، ومحدث يقرأ صحيح البخاري من أول رجب ويختمه في العشر الأواخر من

(١) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٢٥٢.
(٢) ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية: ص١٦-١٧.
(٣) ابن كثير، المصدر السابق: ١٣/ ٣٢.
(٤) مرآة الزمان: ٨/ ٣١٢.
(٥) ابن شداد، الإعلان الخطيرة: ح١، قسم١: ص٣٢.
(٦) ابن العديم، بغية الطلب: ٢/ ٢٩٤.
(٧) أبو شامة، الروضتين: ص٤٨٠، البنداري، سنا البرق الشامي: ص٩٨، سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٣١٠.

رمضان ٢٠٠ درهم، هذا فضلاً عن رواتب موظفي الإدارة والخدمات التابعة للمسجد، فهناك منظم وشاهدا الحسابات، وشاهدي الوقف ومشد الوقف والحراس، والبوابون، والفراشون، والوقادون، وسواق ساقية الجامع وغيرهم[1].

ولم يختلف الأمر كثيراً في الأندلس، عما هو عليه في بقية أنحاء دار الإسلام، فإن متابعة التطورات العمرانية التي طرأت على جامع قرطبة منذ إنشائه عام ١٧٢هـ/ ٧٨٨م على يد عبد الرحمن الداخل[2] والزيادات المستمرة التي أدخلت عليه من قبل خلفائه هشام بن عبد الرحمن، وعبد الرحمن الثاني ومحمد بن عبد الرحمن، وعبد الرحمن الناصر[3] لا تشير من قريب أو بعيد إلى إيقاف أبنية أو أراض أو غيرها من الوقوف للصرف عليه، وتمويل خدماته، أي أن الدولة الإسلامية في الأندلس كانت تقوم بعملية التمويل، وكانت أول مرة يشار فيها إلى أوقاف للجامع في عهد الحكم المستنصر ٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٦م والذي قام بتوسيع الجامع بصورة كبيرة[4].

ولم تشر المصادر إلى طبيعة هذه الأوقاف كما قام الحكم المستنصر أيضاً بإسالة الماء إلى سقايات الجامع والمضيأتين اللتين في شرقيه، وغربيه، حيث جلب الماء العذب من عين بجبل قرطبة عبر قناة حجرية، جعل داخلها أنابيب من الرصاص لحفظه من الدنس[5].

خدمات الحرمين الشريفين:

نال الحرمان الشريفان اهتمام الخلفاء والحكام المسلمين، منذ البداية، فها هو الخليفة الوليد بن عبد الملك يوسع المسجد الحرام، والمسجد النبوي الشريف، ومسجد قباء، كما قام بحفر الآبار في طريق الشام- مكة[6]. وعرف عن الخليفة هشام بن عبد الملك، بناء القنوات والبرك بطريق مكة، ومنشآت عديدة أخرى، دمرها بغباء الوالي العباسي داؤد بن علي في بداية الدولة العباسية[7] والسبب واضح في إزالة المعالم التي تشير إلى الدولة الأموية.

---

(١) حجة وقف الأشرف برسباي: ص١-٦.

(٢) ابن عذاري، البيان المغذب: ٢/ ٢٥٨.

(٣) المصدر نفسه: ٢/ ٦٨،٩١-١٥٣،٩٥،٩٨،٢٢٩.

(٤) المصدر نفسه: ٢/ ٢٣٤.

(٥) المصدر نفسه: ٢/ ٢٨٨.

(٦) الهمذاني، مختصر: ص١٠٦.

(٧) المسعودي، مروج الذهب: ٣/ ٢٠٥.

يعد الخليفة المهدي بن المنصور ١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٤-٧٨٥م في مقدمة الخلفاء العباسيين الذين اهتموا بطريق الحج من العراق إلى مكة، حيث عمل على توفير المياه والخزانات، فضلاً عن العلامات البارزة[١]. كما عرف عن الخليفة المقتدي ٤٦٧-٤٨٧هـ/ ١٠٧٤-١٠٩٢م أيضاً الاهتمام بطريق الحج[٢]. لقد ركزت الأوقاف التي أوقفت على الحرمين الشريفين على تمويل توفير المياه فضلاً عن أعداد الطرق والمحطات، وذلك لتسهيل رحلة الحجاج وتقليل معاناتهم، في هذه المنطقة الصحراوية والجبلية الجرداء. ويشير الفاكهي[٣] إلى أن زبيدة ت ٢١٦هـ/ ٨٣١م زوجة الخليفة الرشيد بنت البرك، والآبار والصهاريج بمكة، وحفرت العين المعروفة بعين المشاش برأس الحجاز وأجرتها من مسافة ١٢ ميل إلى مكة، وعرفة في قناة محكمة فإذا قرب وقت الحج تسد العين عن قناة مكة وتوجه إلى قناة عرفة فتدخل فتصب في بركة عرفة وفي عدة برك أخرى، من بناء زبيدة، وغيرها، ثم تصعد القناة إلى جبل الرحمة فتدور في الجبل إلى أن تصب منه إلى بركة قديمة في الشمال، ثم تخرج عائدة إلى مكة، وفي قناة جبل الرحمة ميازيب تصب في أحواض في سفح الجبل محيطة بالسفح لأجل شرب الدواب فإذا خرجت من عرفة، تتوجه إلى مزدلفة، فتصب في البرك الأربعة التي عملتها زبيدة ثم تجري من المزدلفة في قناة بين منى ومكة إلى أن تصل إلى مكة المشرفة، وتتفرق في شوارعها وقد بلغت كلفة هذا المشروع الضخم مليون وسبعمائة ألف مثقال ذهب. ويشير ابن خلكان[٤] إلا أنها أقامت أيضاً خزانات المياه على الطريق بين مكة والمدينة. كما بنت صهاريج مياه ومحطات ما بين بغداد ومكة، وقد ظلت منشآت زبيدة عاملة إلى زمن الرحالة الأندلسي ابن جبير[٥]. ويشير الفاكهي[٦] إلى أن زبيدة أوقفت على تمويل منشآتها أموالاً في مخاليف مكة وبغداد وغيرها، فضلاً عن غلات حسبت لهذا الغرض.

ويشير ابن الجوزي[٧] إلى قيام الخليفة المقتدر سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م بإيقاف كثير من المستغلات على الحرمين الشريفين، وأحضر القضاة والعدول وأشهدهم على نفسه بذلك

---

(١) الطبري تاريخ: ٨/ ١٣٦.

(٢) ابن الكازروني، المصدر السابق: ص٢١١، ابن قنيتو، خلاصة الذهب: ص٢٦٨.

(٣) المنتقى: ص٥٢.

(٤) المصدر السابق: ٢/ ٣١٤.

(٥) المصدر السابق: ص١٥١.

(٦) المصدر السابق: ص٣٥.

(٧) المصدر السابق: ٦/ ١٣٠، ابن طباطبا الفخري: ص٢٦٨، ابن كثير، المصدر السابق: ١١/ ١٢٣.

وتقدم رواية ياقوت[1] توضيحات مهمة عندما تشير إلى أن ما قام به المقتدر كان بمشورة وزيره الصالح علي بن عيسى الجراح، وإن الوقف كان عبارة عن عقارات ببغداد، فضلاً عن ضياع في منطقة السواد، وأفرد لهذه الأوقاف ديواناً سماه ديوان البر.

وعرف عن السلطان العادل نور الدين زنكي أوقافه السخية على الحرمين الشريفين[2] وإن كانت المصادر لم تشر إلى طبيعة هذه الأوقاف، والجهات التي كانت تمولها في هذه الأماكن المباركة. ويشير سبط ابن الجوزي[3] إلى أن السلطان صلاح الدين الأيوبي أوقف الكثير على أهل الحرمين الشريفين. كما يشير المقريزي[4] إلى أنه أوقف على الضريح النبوي الشريف ناحية نقادة من أعمال قوص بالصعيد الأعلى وثلث ناحية سنديس من القيلويية على أربع وعشرين خادماً مخصصين لخدمة الضريح النبوي الشريف، واستمر هذا الوقف بأداء واجباته إلى أيام المؤرخ.

كما عرف عن خادمه مسرور أوقافه على فقراء الحرمين الشريفين[5]. واشتهر الوزير الموصلي جمال الدين الأصبهاني بأوقافه على طريق الحج من العراق والشام إلى الحجاز وحفر الآبار عليها وبنى صهاريج لتجميع مياه المطر على الطريق وجلب الماء إلى عرفات. كما أوقف فنادق من العراق إلى الشام إلى الحجاز لأبناء السبيل والمسافرين الفقراء والذين لا يستطيعون دفع الكراء وأوجد كادر خدمي في هذه الفنادق[6]. وسار على نفس الخطى ملك أربيل مظفر الدين كوكبوري ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣١م حيث أوقف أوقافاً كثيرة على الحرمين لتمويل خدمات كثيرة منها توفير المياه على طريق الحج إلى الحجاز، وقد بلغت هذه الأوقاف ثلاثين ألف دينار[7] وهو مبلغ كبير آنذاك. فضلاً عن إجراءه المياه إلى جبل عرفات، وتعميره خزانات المياه فوق الجبل[8] وأشار ياقوت[9] إلى أن صاحب مخزن الخليفة المسترشد بالله أحمد بن عبد الوهاب ت ٥١٤هـ/ ١١٢٠م أوقف

---

(١) معجم الأدباء: ١٤/ ٧٠.

(٢) ابن قاضي شهبه، المصدر السابق: ص١٦-١٧، سبط ابن الجوزي: ٨/ ٢٠٦، ابن كثير، المصدر السابق: ١٢/ ٢٧٨.

(٣) المصدر السابق: ٨/ ٣٣٨.

(٤) السلوك: ح١، قسم١: ص٥٧.

(٥) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٩٢.

(٦) ابن جبير، المصدر السابق: ص٩٩-١٠٠.

(٧) ابن كثير، المصدر السابق: ١٣/ ١٣٧.

(٨) ابن خلكان، المصدر السابق: ٤/ ١١٧.

(٩) معجم الأدباء: ٣/ ٢٢٧.

على مكة والمدينة من غير أن يورد تفاصيل ما أوقفه. كما أوقفت بنفشا جارية الخليفة المستضيء ت ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م على طريق الحج[١] بلا تفاصيل عن حجم ما أوقفته وماذا كان يمول.

وتشير رواية مهمة لسبط بن الجوزي[٢] إلى أن الملك المعظم الأيوبي ت ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م زرع طريق الحج من باب الجابية بدمشق إلى مكة ويبدو واضحاً أن المؤرخ يقصد عمليات تشجير محطات على الطريق من أجل توفير الظل للحجاج في هذه المنطقة الصحراوية الجبلية الجرداء. ونظراً لصعوبة توفير المياه لسقي أشجار هذه المحطات، فقد فشل المشروع بسرعة على الأرجح، فالعملية باهضة التكاليف حيث تحتاج إلى كادر خدمي كبير وإلى آبار لا تتواجد فيها المياه إلا في أعماق سحيقة. ولذلك لم نعد نسمع به بعد وفاة المعظم. كما أوقف المعظم أيضاً ضياعاً على ساحل الشام لتمويل الحجاج ولم يوضح النص طبيعة التمويل، هل من خلال تقديم نقود للحجاج أو عبر تمويل خدمات في الحج أو في أثناء السفر. كما أوقف السلطان برقوق بلداً في منطقة الجيزة على جماعة تخرج كل سنة مع الحجاج لمساعدة المنقطعين من الحجاج سواءً من خلال تقديم حيوانات الركوب أو الأكل أو نجدة المرضى[٣]. وركزت الأوقاف على الحرمين الشريفين على تمويل خدمة مهمة وهي توفير السكن المجاني في الحج، حيث أجاز الفقهاء إيقاف الدور في مكة لكي ينزل فيها الحجاج في موسم الحج، وعندما تفرغ بعد انتهاء الموسم، يجوز كراؤها، وينفق من غلتها على عمارتها وإصلاحها، ثم يصرف الباقي على الفقراء والمساكين في مكة[٤] وعرف عن الأميرة الحمدانية جميلة أنها أوقفت دوراً للمجاورين بمكة[٥] واشتملت شروط وقف بعض الأربطة إيواء الحجاج في موسم الحج، فضلاً عن العباد المنقطعين[٦].

---

(١) ابن الساعي، المصدر السابق: ٩/ ٨٩.

(٢) المصدر السابق: ٨/ ٦٥٠.

(٣) المقريزي، السلوك: ج٣، قسم٢: ص٩٤٤، ابن تغري بردي، المصدر السابق: ١٢/ ١٠٨-١٠٩، ابن اياس، المصدر السابق: ١/ ٣١٥.

(٤) الخصاف، المصدر السابق: ص٣٢١.

(٥) البشاري، المصدر السابق: ص١٤٦، المسعودي، المصدر السابق: ٤/ ٢٢٥.

(٦) الفاسي، المصدر السابق: ص١١٣-١١٥.

كما أوقف على المطاهر (الخلاء) في الحرمين، حيث أورد الفاسي[1] وجود إحدى عشرة مطهرة وقفية منها اثنتان للنساء، فقد أنشأ نور الدين زنكي مطهرة عام ٥٦١هـ/ ١١٦٥م وأوقف عليها أوقافاً[2] كما أوقف الأمير علاء الدين الأعمى ت ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م مطهرة وقفية في المدينة المنورة[3] كما أنشأ الناصر محمد بن قلاوون مطهرة عظيمة بمكة سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م فضلاً عن مطهرة الأمير صرغتمش التي أنشأت عام ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م وأجريت عليها ترميمات مستمرة وأعيد تعميرها سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م من قبل أحد التجار. وأوقف عليها الأمير مقبل البديري سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م أوقافاً إضافية في القاهرة. كما أنشأ السلطان الأشرف شعبان بن حسين مطهرة عام ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م وأوقف عليها بناية بنيت فوق المطهرة، فضلاً عن دكاكين وأوقاف أخرى بضواحي القاهرة، ومطهرة الأمير زين الدين بركة العثماني سنة ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م واشتملت على وقف تمثل في بناية ودكاكين[4]. وهنا نحن أمام مظهر حضاري امتاز به ديننا الحنيف الذي يؤكد على النظافة والتطهر وتوفير المرافق الصحية في هذه الأماكن التي تشهد ازدحاماً شديداً في موسم الحج ويدل على سعة أفق أهل الصلاح من المسلمين وطبيعة تعاملهم مع قيمهم الإسلامية بصورة تطبيقية وهو ما نحن بأشد الحاجة إليه في الوقت الحاضر ويلاحظ أن أوقاف الحرمين شملت كسوة الكعبة المشرفة والضريح النبوي الشريف حيث أوقف الملك الصالح بن محمد الناصر ت ٧٤٣-٧٤٦هـ/ ١٣٤٢-١٣٤٥م ثلثي قرية بيسوس في مصر على كسوة الكعبة، وكانت الكعبة تكسى كل سنة، بينما كانت الحجرة النبوية تكسى كل خمس سنوات[5].

كما عرف عن السلطان قايتباي إيقافه قرى في مصر، وخاناً في خان الخليلي المشهور في القاهرة، وعدة أماكن مبنية، وحوانيت في مناطق متفرقة لتمويل إيصال الحبوب إلى مدينة الرسول ﷺ، وكان يصيب الفرد الواحد سبعة أرادب في السنة. سواءً الكبير أو الصغير والحر والعبد، وقد زاد سلاطين آل عثمان هذا الوقف فيما بعد[6] كما أوقف هذا السلطان أوقافاً بقيمة ستين ألف دينار تمثلت في أبنية وحوانيت في مواضع

(١) المصدر السابق: ص١٣١-١٣٣.
(٢) المصدر نفسه: ص١٣٣.
(٣) ابن الجزري، المختار: ص٣٦٧.
(٤) الفاسي، المصدر السابق: ص١٣١-١٣٢.
(٥) النهروالي، الأعلام: ص٣١٣-٣١٤، الفاسي، المصدر السابق: ص٢٦٩-٢٧٠.
(٦) ابن اياس، المصدر السابق: ٣/ ٣٢٩، النهروالي، المصدر السابق: ص٢٣٥-٢٣٩.

متفرقة لتمويل توفير الطعام في المدينة المنورة من خلال طبخ (دشيشة) مع الخبز والزيت وغير ذلك[1].

كما أشير إلى أوقاف على أشراف المدينة المنورة في القاهرة، تمثلت في عمارة ضخمة تسمى (ربع الفرج، احترقت عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م[2] كما شهدت مكة وقفاً فريداً مخصص ريعه لمنع الكلاب من دخول مكة[3].

وقد استمرت أوقاف الحرمين الشريفين في الوصول إلى أماكنها ومستحقيها بغض النظر عن التغير الحاصل في السلطات الحاكمة[4]. وحتى بعد احتلال المغول للعراق وما أحدثوه من تدمير واسع النطاق نجد أن أوقاف الحرمين كانت تصل من العراق إلى الحرمين في عهد الشيخ حسن الجلائري[5].

الأربطـــة:

❖ **الربط لغة:**

هو ما تشد به الدابة أو القربة، والرباط والملابطة ملازمة ثغر العدو[6].

❖ **أما اصطلاحاً:**

فقد قال عنها السهروردي[7] بأنها بيت الصوفية، وحاول الربط بينهم وبين أهل الصفة في مسجد رسول الله ﷺ ويهدف السهروردي من خلال هذا الربط إضفاء صفة الشرعية على هذه الفئة التي أخذت تفرض نفسها تدريجاً على الحياة العامة في دار الإسلام شرقاً وغرباً من خلال سلسلة من العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية،

---

(١) ابن اياس، المصدر السابق: ٢/ ١٩٤.

(٢) اليونيني، المصدر السابق: ٢/ ٣٢٠.

(٣) ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ارسلان، الدعوة الإسلامية: ٣/ ٨.

(٤) اليونيني، المصدر السابق: ٢/ ٤٠٨-٤٠٩.

(٥) ابن عنبة، المصد السابق: ص١٢٨، وكان بالموصل في العهد الجليلي أوقافاً على الحرمين الشريفين منها فقط أراضي وبساتين وغابات بلغت مساحتها ١٧٥٢ دونم وبلغت إيراداتها عام ١٩٤٧ ٣٠٠/ ٤٢ ألف دينار وهو مبلغ كبير آنذاك وبلغت إيرادات أوقاف الحرمين جميعها آنذاك ٤٧٥, ٣١١ ألف دينار. العمر، الدليل: ص١٠-١١كما شهد العصر العثماني وقفيات تمول حج شخص واحد كل سنة عن روح الواقف ويشترط في هذا الشخص أن يكون قد حج عن نفسه وكانت الأموال المخصصة لذلك سخية. الأرنوؤط، المرجع السابق: ص٥٦.

(٦) الرازي، الصحاح: ص٢٢٩.

(٧) عوارف المعارف: ص١٠٧، المقريزي، المواعظ: ٢/ ٤٢٧.

في حين نجد أن المقريزي[1] حاول أن يرجع ظهور الربط إلى خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه عندما بنى بيتاً للتفرغ للعبادة لبعض عباد البصرة، وجعل لهم ما يحتاجونه من طعام ومشرب وملبس في ولاية عبد الله بن عامر.

إن مصطلح الربط كان يحمل في البداية معنى عسكرياً مأخوذاً من قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ {الأنفال: ٦٠} أي ملازمة الثغور لحفظها من العدو[2] وكان يطلق أيضاً على أولئك الجنود المرابطين في المدن[3] وقد ظل هذا المصطلح يحمل هذا الطابع في المشرق لفترة طويلة[4] ولفترة أبعد في المغرب، حتى بعد أن أطلق على المدينة التي بناها السلطان الموحدي يعقوب بن عبد المؤمن ت ٥٩٥هـ/١١٩٨م الرباط والواقعة قرب مدينة سلا[5].

لقد تحول مصطلح الربط مع مرور الزمن في معظم الأحيان، إلى معنى مدني في حواضر دار الإسلام وخاصة في داخل المشرق الإسلامي، من خلال كونه مقراً للعباد والزهاد، فضلا عن أولئك المثقفين الذين يجدون فيه ملاذاً آمناً للدراسة والبحث العلمي، وإلى هذا التحول في المعنى يشير المقريزي[6] إلى أن المرابط في الرباط يدفع عمن ورائه من خلال إقامته على طاعة الله فهو يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد، على الرغم من أن الربط، شهدت متطفلين دخلوا إليها مستغلين خدمتها الكثيرة التي تقدم لروادها.

إن أول إشارة إلى الربط بمعناها الجديد، كانت في القرن الثاني الهجري، عندما بنى عبد الله بن المبارك[7] رباطه في مدينة مرو[8]، وسرعان ما أخذت في الانتشار فقد ذكر

---

(١) المصدر نفسه: ٢/ ٤١٤.

(٢) ابن دريد، المصدر السابق: ١/ ١١٠٨، ابن الأثير، اللباب: ٢/ ١٤.

(٣) الخطيب البغدادي، المصدر السابق: ١/ ٧٦.

(٤) البشاري، المصدر السابق: ص٢٧٣، ٣٢٠، ابن حوقل، صورة الأرض: ص٣٧٨، السهمي، تاريخ جرجان: ص١٨١-١٨٢، ١٩٠.

(٥) ابن الجزري، المختار: ص٦٨، وينظر علام، الدولة الموحدية: ص٣٨٠-٣٨١.

(٦) المواعظ: ٢/ ٤٢٧.

(٧) عبد الله بن المبارك: من العلماء الربانيين الذين جمعوا بين العلم والجهاد والإنفاق في سبيل الله ت ١٨١هـ/ ٧٩٧م في مدينة هيت العراقية على نهر الفرات أثناء عودته من جهاد الروم، الخطيب البغدادي: تاريخ: ١٠/ ١٥٢-١٦٩.

(٨) السمعاني، أنساب: ٦/ ٧.

مسكويه[1] إن الحسين بن دبار أنشأ رباطاً عام ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م في مدينة عسكر مكرم في إقليم الأحواز. كما أشار الخطيب البغدادي[2] إلى أن المحدث أحمد بن سعيد الرباطي، كان يشرف على ربط في خراسان.

وقد ساد هذا المصطلح في العراق وخراسان، وبقية أقاليم المشرق، إلى ما ورء النهر في وسط آسيا الإسلامية حالياً، وشهدت هذه المناطق ظهور أربطة جمعت بين الأهداف التعبدية والجهادية والخدمية[3]. ولقد أوقف على هذه الأربطة، على الرغم من أن بعض الفقهاء، لم يجيزوا الوقف على الصوفية. كما هو الحال مع أبي محمد الجويني رغم أنه كان من أئمة التصوف في عصره[4].

وفي الوقت الذي برزت فيه رباطات كثيرة للرجال مثل رباط بهروز الخادم والذي بناه في بغداد سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م شحنة بغداد السلجوقي بهروز وسمي أيضاً رباط الخدم[5] ، فضلاً عن رباط عبد القادر الكيلاني وهو في بغداد أيضاً[6] واربطة كثيرة أخرى. فقد برزت أيضاً أربطة للنساء تؤدي وظائف عديدة فضلاً عن العبادة والعلم، كما سيظهر ذلك في الفصل الثالث، ومن أشهر هذه الأربطة في بغداد رباط بنفشا[7] ورباط الحريم[8] ورباط دار الشط[9] وفي الشام نجد هناك أربطة كثيرة. ويشير الأربلي[10] إلى أن عدد أربطة دمشق بلغت عشرين رباطاً. ومن أشهر أربطة دمشق رباط ستيته[11] ورباط ياسمين[12] وفي القاهرة ظهرت أربطة كثيرة منها رباط البغدادية التي أنشأته تذكار باي خاتون بنت الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م للشيخة زينب البغدادية وأنزلت فيها نساء خيرات وكان فيه دائماً شيخة تعظ النساء وتفقههن[13] ورباط كليلة

---

(١) تجارب الأمم: ٥/ ٣٤٧.

(٢) المصدر السابق: ٤/ ١٦٦.

(٣) ابن حوقل، المصدر السابق: ص٣٧٨: البشاري، أحسن التقاسيم: ص٣٠٦-٣٢٠.

(٤) السبكي، معيد النعم: ص١١٩.

(٥) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٢٧، ٤٣، ١٨٦.

(٦) المصدر نفسه: ٨/ ٢٦٤. وينظر للمزيد عن أربطة بغداد. جواد، الأربطة، سومر: ١٠/ ٢١٨-٢٤٩.

(٧) ابن الجوزي، المنتظم: ١٠/ ٢٧١.

(٨) ابن الفوطي، تلخيص: ٣/ ٢٩٢-٢٩٣.

(٩) مجهول، الحوادث الجامعة: ص٢٧٤.

(١٠) مدارس دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي ٢٢/ ٢٤٦.

(١١) ابن كثير، المصدر السابق: ١٤/ ١٥١.

(١٢) ابن الجزري، المختار، ص٢٢٠.

(١٣) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٤٢٧-٤٢٨.

الذي بنى عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م[1] وفي مكة رباط الفقاعية الذي بنته وأوقفته قهرمانة الخليفة المقتدي على المنقطعين الأرامل[2]. وفي المغرب العربي كان رباط المستنير يضم جناحاً خاصاً مستقلاً للنساء[3] وقد تحولت هذه الربط النسائية في العصر العثماني إلى محل لإقامة العجائز المنقطعات[4].

❖ أماكن الأربطة:

لم تكن الربط في المدن فقط وإنما ورد ما يشير إلى بناء ربط في القرى كما هو الحال، في رباط أبي عمر النجواني[5] ورباط مجد الدين بن الأثير ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م[6] في قرية حرب من قرى الموصل وأوقف عليه أملاكه[7] وورد ما يشير إلى رباط في صحراء (مفازة) مثل رباط أبو سعيد المستوفي ت ٤٩٥هـ/ ١١٠١م[8].

❖ عمارة الأربطة:

لم يصل إلينا مخططات كاملة عن هندسة الربط، وإنما وصلتنا معلومات متناثرة في بعض المصادر، عن طبيعة بعض بنايات الربط، فقد أشار ناصر خسرو[9] إلى أن أربطة طرابلس وصيدا على ساحل الشام كانت تتكون من أربع وأحياناً خمس أو ستة طبقات وكانت الربط تحتوي على غرف للسكن[10] وعلى بعض البيوت الملحقة بالجمع[11] وكان في بعضها منارة للأذان مثل المساجد والجوامع مثل رباط صدقة الواسطي[12] ورباط الأصحاب[13] ورباط دار الروم الذي بناه المستنصر بالله[14]

---

(١) المصدر نفسه: ٢/ ٤٢٨.

(٢) الفاسي، المصدر السابق: ص١٠٩.

(٣) ياقوت، معجم البلدان: ٥/ ٢١٠، عثمان، المدينة الإسلامية: ص٤٧٢.

(٤) ابن كنان، المروج السندسية: ص٤٨.

(٥) ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٣٢٤.

(٦) ابن خلكان، المصدر السابق: ٤/ ١٤٢، السبكي، طبقات: ٨/ ٣٦٧.

(٧) ابن الأثير، تاريخ: ٥/ ٢٠، السبكي، طبقات: ٨/ ٣٦٧.

(٨) ابن كنان، المصدر السابق: ص٤٨.

(٩) المصدر السابق: ص١٣،١٥.

(١٠) الأصفهاني، خريدة القصر: م١، ج٤: ص٣٩٠.

(١١) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ١٣٦.

(١٢) ابن الجوزي، المصدر السابق: ١٠/ ٢٠٤، سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٢٤٢-٢٤٣.

(١٣) ابن الجوزي، المصدر السابق: ص١٤٠.

(١٤) ابن الكازروني، مختصر التاريخ: ص٢٦٠.

ورباط يزدان[1] وقد وهم الجميلي[2] عندما أشار إلى أن الربـاط لا يوجـد فيـه منـارة ولا منبر، حيث ورد أيضاً ما يشير إلى وجود منبر من طين في ربـاط صدقـة الواسـطي[3] بـل وأكثر من ذلك اشار المقريزي[4] إلى أن رباط الأخرم في القاهرة كان فيه منبر وخطبة جمعة وعيدين. كما كان ملحقاً بالربط أيضاً بنايات خدمية تبنى إلى جانبها، كمـا هـو الحـال في رباط المرزبانية الذي بناه الناصر لدين الله، لشهاب الدين السهرودي، على نـهر عيسـى، حيث بنى إلى جانبه داراً واسعة وحماماً وبستاناً لسكن شيخ الرباط[5].

ووجد في بعض الربط، بركة ماء كبيرة لأغراض الشرب والوضوء كما هـو الحـال في رباط أبي سعيد الصوفي ببغداد[6]. كما الحق ببعض الربط داراً للكتب، مثل تلك الـتي كانت في رباط المأمونية[7] وكذلك الحال في رباط أبو المعالي الـبزاز[8]، وكـان هنـاك أيضـاً مبنى لخزن المواد الغذائية. والمواد التي يحتاج إليها الرباط، كمـا هـو الحـال في بـاط شـيخ الشيوخ[9].

ونظراً لرسوخ بعض شيوخ الربط في العبادة والزهد، فقد دفن بعضهم في الربـاط، مثل أبو بكر العادي الذي دفن في رباطه[10] كمـا كـان يدقـق في الربـاط أحيانـاً مؤسـس الرباط وإن كان من غير الصوفية كما حدث لبهروز الخادم الـذي كـان يتـولى العـراق في عهد السلطان السلجوقي محمد وبنى الرباط الذي كـان يحمـل اسمـه كمـا كـانت بعـض الربط يحتوي على أفران تقدم الخبز الأبيض[11].

---

(١) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٢٤٣.

(٢) دولة الأتابكة: ص٢٧٧.

(٣) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ص٢٤٣.

(٤) المواعظ: ٢/ ٤٣٠.

(٥) مجهول، الحوادث الجامعة: ص٧٤.

(٦) ابن الجوزي، المنتظم: ١٠/ ٦٤، سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٥.

(٧) ياقوت، معجم الأدباء: ٦/ ٢٣٥.

(٨) ابن الجوزي، المنتظم: ١٠/ ١١٣.

(٩) ابن الشعار، المصدر السابق: ٣/ ٢٨.

(١٠) ابن الجوزي، المصدر السابق: ١٠/ ٦٤.

(١١) المصدر نفسه: ٩/ ١١.

ويمكن اعتبار رباط عماد الدين بن حمزة النسوي في مدينة نسا[1] والذي قدم لنا صورة عنه القزويني[2] نموذجاً للرباط الإسلامي، حيث قسم إلى عدة أقسام فهناك قسم لإقامة الفقهاء، وقسم للصوفية، وقسم للعلويين، وقسم للقدرية، وقسم للمسافرين، وكان هناك إسطبلاً لدوابهم، ومطبخاً يقدم الخبز والأكل فضلاً عن حمامات وبساتين غناء.

وكانت خدمات الحمامات ووجبات الأكل والبساتين تقدم أيضاً لخدمة سكان المدينة من المحتاجين، حيث كان يسمح لسكان المدينة بالتنزه في البساتين واستخدام الحمامات فضلاً عن التزود بالأكل من مطابخ الرباط، وقد ظل هذا الرباط الضخم يقدم خدماته السخية الممولة من الوقف الإسلامي، إلى الغزو المغولي المدمر، ولم يبق منه عندما زاره القزويني سوى بقية منه.

ومن الطريف الإشارة إلى أن الأبقار كانت توقف أيضاً لخدمة الربط للاستفادة من ألبانها، وقد أجاز قاضي خان[3] إيقافها على الربط، وأجاز الاستفادة من البانها وسمنها لأبناء السبيل.

❖ أوقاف الأربطة:

يقدم المقريزي[4] وصفاً لبعض أوقاف هذه الأربطة، مثل الرباط العلائي في القاهرة فقد كان موقوفاً عليه بستان الجرف، وبستان بناحية شبرا، وعدة حصص من قرى فلسطين والساحل، وإحكاراً ودوراً، بجانب الرباط، ويلاحظ هنا تنوع الأوقاف ما بين بساتين وقرى زراعية في فلسطين، وساحل الشام، فضلاً عن أبنية ومنشآت تجارية بجانب الربط وبيوت.

❖ إدارة الأربطة:

كان نزلاء الربط من الشيوخ والعلماء والطلاب، والكادر الخدمي المخصص لخدمة هؤلاء والذي شمل مماليك فراشين لأغراض الخدمة، وفلاحين للإشراف على البساتين، وأحياناً قراء ومنشدين، وكان يشرف على كل هؤلاء شيخ يتولى فضلاً عن

---

(١) نسا: من مدن خراسان، بينها وبين مرور خمسة أيام، انجبت الكثير من العلماء وعلى رأسهم الإمام أحمد بن شعيب النسائي صاحب كتاب السنن، ياقوت، معجم البلدان: ٥/ ٢٨١-٢٨٢.

(٢) آثار العباد: ص٤٦٥.

(٣) المصدر السابق: ٣/ ٣٠٦-٣٠٧.

(٤) المواعظ: ٢/ ٤٣٠.

ذلك صيانة الأبنية، والإشراف على وقوف الربط، التي توفر التمويل المالي لنفقات الرباط[1].

وكان يشترط في شيخ الرباط، أن يكون مما يشهد له بالنزاهة، والحزم والمهابة، والعبادة والعلم، لذلك فقد اختير الكثير من شيوخ الربط ممن كان يمارس التدريس[2] ونظراً لأهمية منصب شيخ الرباط، فقد كان يعين أحياناً من قبل الخليفة مباشرة[3] ونظراً لأهمية الشيوخ، والاحترام الكبير الذي كانوا يتمتعون به فضلاً عن منزلتهم العلمية المشهود لها. وما عرف عنهم من الزهد، فقد اختير بعضهم للقيام بمهمات سياسية، مثل قيامهم بنقل الرسائل بين الحكام المسلمين[4]. وأحياناً كان يضاف لبعضهم فضلاً عن مشيخة الرباط، منصب إداري آخر حساس، كما حدث لشيخ رباط العميد عبد المنعم الاسكندراني، الذي عين ناظراً للمارستان العضدي[5].

كما يلاحظ أنه كان هناك نظام داخلي يحكم النازلين في الرباط، وإن كان ما وصل إلينا في هذا المجال، وهو نزر يسير، فقد أشار السهروردي[6] إلى أن على المبتدئ الداخل إلى الرباط، إذا لم يكن ممن ذاق طعم العلم، أو ارتقى في درجات الصوفية أن يؤمر بالخدمة في الرباط، لتكون عبادته خدمة...

وفيما يتعلق بإدارة ربط النساء، فقد ورد ما يشير إلى أن المشيخة كانت تعطى أحياناً لامرأة، فقد كانت الشريفة بنت المهتدي شيخة رباط في عهد المستعصم بالله[7]. كما ورد أن أخت الشيخ أبي بكر الصوفي شيخ رباط الزوزني كانت شيخة رباط بنفشا وورد أيضاً ما يشير إلى منح المشيخة لرجل، فقد عين الشيخ فخر الدين بن المخرمي شيخاً لرباط الحرم[8] ومن الطبيعي أن يراعى عند تعيين رجل لهذا المنصب أن تتوفر فيه صفات التقوى والزهد، فضلاً عن كبر السن والخبرة في إدارة أربطة سابقة.

---

(١) السهروردي، المصدر السابق: ص١٠٨، ابن الأثير، اللباب: ٢/ ١٤، القزويني، المصدر السابق: ص٤٦٥.

(٢) ابن الجوزي، المصدر السابق:١/ ٩٠، القرشي، الجواهر المضية: ١/ ١٢٣.

(٣) مجهول، الحوادث: ص٢.

(٤) ابن الصابوني، إكمال الأكمال: ص٣٠٢.

(٥) ابن الساعي، جامع المختصر: ص١٤٥-١٨٤.

(٦) المصدر السابق: ص١٠٩.

(٧) مجهول، المصدر السابق: ص٢٧٤.

(٨) ابن الفوطي، تلخيص: ٣/ ٢٩٢-٢٩٣.

❖ طبيعة سكان الأربطة:

لم يكن نزلاء الربط من المتصوفة والمنقطعين فقط، كما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى، بل كان إلى جانبهم علماء وفقهاء وأدباء[1] وكان عدداً لا بأس به من هؤلاء العلماء يمارسون التدريس[2] وكان بعضهم يتنقل من رباط إلى آخر مثل الفقيه الحنفي أبي نصر الفرغاني الذي أقام مدة برباط الزوزني، وانتقل إلى رباط العميد[3] وكذلك الحال مع المحدث محمد بن محمد العباس الذي انقطع في رباط أبي سعد الصوفي ثم انتقل إلى الحريم الطاهري[5]. ولا يعرف سبب انتقال هؤلاء العلماء من رباط إلى آخر، ولربما يعود الأمر إلى حدوث منافسة بين العلماء المقيمين في الربط، ولتوفر الرعاية والخدمات بصورة أفضل، لا سيما المكتبات، وأجواء الهدوء وقلة الازدحام.

إن استقرار العلماء في الربط، قد ساعد على تحسين سمعة هذه الأماكن وربطها بحبل العلم والفقه والأدب والحديث، مما كان له الأثر البالغ، في تخفيف العداء والقطيعة وسوء الفهم الذي نشأ بين الفقهاء، أو من بعضهم على الأقل، وبين هؤلاء الزهاد، وهكذا أخذت الربط تساهم في الحركة العلمية، جنباً إلى جنب مع المساجد والمدارس وبقية أماكن العلم الأخرى[4]. بل وأن بعض العلماء درس العقيدة الأشعرية في الرباط كما هو الحال مع أبو الفتوح الاسفرايني، نزيل رباط أبي سعيد الصوفي[5] وكان عبد الرحمن الأنباري الملقب الكمال النحوي، أحد مدرسي المدرسة النظامية ببغداد، مقيماً برباط له شرقي بغداد، وكان يتردد إليه الطلبة للأخذ عنه[6]، كما قام المبارك بن الأثير بقراءة مصنفه المشهور (جامع الأصول في أحاديث الرسول) في رباطه[7]. وأشار ابن

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ٨/ ٣٠٤، ابن الصابوني، المصدر السابق: ص١٨٢، ابن خلكان، المصدر السابق: ٣/ ٢٢٦-٢٢٧.

(٢) ابن الصابوني، المصدر السابق: ص١٦٠-١٦١، ابن الشعار، المصدر السابق: ٣/ ٢٨،٢٩٩.

(٣) مجهول، الحوادث: ص٧٥.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم: ٩/ ٣٤؛ وينظر الصابوني، المصدر السابق: ص٣٠٢.

(٤) ابن الصابوني، المصدر السابق: ص٤٧.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم: ٩/ ٢٣٨، سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ١٨٤.

(٦) ابن القفطي، ابناه الرواة: ٢/ ١٧٠.

(٧) ابن الفوطي، المصدر السابق: حاشية المحقق مصطفى جواد: ٣/ ١٧٩، علماً بأن مجد الدين بنى رباطين الأول في قرية قرب الموصل، السبكي، طبقات: ٨/ ٣٦٧ والثاني في الموصل بدرب دراج وهو الذي دفن فيه، ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٦/ ١٩٩.

خلكان[1] إلى أن المحدث المشهور أبا الوقت السجزي، عندما جاء إلى بغداد نزل في رباط فيروز، وكان يدرس في النظامية، ومات في الرباط. كما قام أبو حامد الغزالي بعد عودته من الشام بقراءة مصنفه (إحياء علوم الدين) في أحد الأربطة فكان يجتمع إليه كل يوم الخلق الكثير[2]. وذكر الخطيب البغدادي[3] أن أحمد بن محمد المالِيني من محدثي بغداد ت ٤١٢هـ/ ١٠٢١م كان يدرس في رباط الصوفية ببغداد قرب جامع المنصور. كما كان فخر الدين بن أحمد الواسطي ت ٥٧٨ـ/ ١١٨٢م يحدث في رباط شيخ الشيوخ[4] كما أشار السمعاني[5] إلى أن مسعود بن منصور الأوشي كان يدرس بسمرقند في رباط حمزة. وعرف عن محمود بن عثمان النعال البغدادي الفقيه الحنبلي الواعظ ت ٦١٠هـ/ ١٢١٣م أنه كان يجلس في رباطه للوعظ، وكان هذا الرباط مجمعاً لأهل الدين والفقهاء والغرباء، وعرف عن هذا الرباط، إنه كان يمارس عملية التعليم أكثر من سائر المدارس، وممن سكنه الشيخ موفق الدين المقدسي والحافظ عبد الغني[6]. وأشير إلى ثلاثة شيوخ وشيخة واحدة ممن أخذ عنهم ابن الجوزي العلم، إنهم كانوا يشرفون على أربطة أو يعيشون بها[7].

إن احتواء بعض الأربطة على خزانات كتب، كما هو الحال في رباط أبو المعالي البزارت ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م[8]، وفي أربطة كثيرة أخرى، هو الذي جعل العزاوي[9] يقول أن الأربطة كانت مكملة لعمل المدارس، وذلك من خلال الاتصال بالعامة وتعليمهم أمور دينهم. ولا يستبعد لجوء بعض الساسة والإداريين المتقاعدين إلى الأربطة، للإقامة فيها، فقد أشير إلى أن الناصر لدين الله، عندما بنى رباط المرزبانية، كان هدفه أن ينقطع به ويترك الخلافة زاهداً في الدنيا، وألف في ذلك كتاباً بليغاً ليستفيد منه الناس، وتسربت نسخ منه إلى بعض مشايخ العراق، إلى أن غير رأيه في اللحظة الأخيرة، فمهنة السياسة[10]، ربما هي أكثر المهن التي من الصعب على من مارسها من أعلى موقع أن

(١) المصدر السابق: ٣/ ٢٢٦.
(٢) ابن الجوزي، المصدر السابق: ٩/ ٨٧.
(٣) تاريخ: ٤/ ٣٧٢.
(٤) ابن الدبيثي، ذيل: ص١١٦.
(٥) أنساب: ١/ ٣٩٠.
(٦) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٥٦٢.
(٧) مشيخة ابن الجوزي: ص٤٤،١١٥،١٤٥،١٦٢،١٩٩.
(٨) ابن الجوزي، المصدر السابق: ١١/ ١١٣.
(٩) ينظر روايته لدى العمر، الدليل: ص ل.
(١٠) ابن قنيتو، المصدر السابق: ص٢٨٢.

ربما هي أكثر المهن التي من الصعب على من مارسها من أعلى موقع أن يعيش بدونها كفرد عادي إلا من رحم ربي.

ويبدو أن بعض العلماء الساكنين في الأربطة، كانوا يمارسون بعض المهن الفنية ويعيشون على إيرادها زهداً في الدنيا وتعففاً عن ما في أيدي أبنائها، وتعففاً أيضاً عن خدمات الرباط الغذائية. كما هو الحال مع محمد بن أحمد الصالحي المحدث الشامي المعروف ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م حيث كان يمارس الخياطة، ويزوره تنكز نائب الشام ولا يغير وضعيته، يدخل عليه وهو يخيط الثياب وإحدى رجليه منصوبة والأخرى ممدودة فلا يغير هيئته[١]. ويلاحظ أن بعض شيوخ الربط بلغ منزلة جعلت الدولة تستخدمه كسفير لأغراض سياسية[٢].

لم تكن الحياة داخل الربط تمتاز بالجدية على طول الخط، وإنما كانت هناك مناسبات احتفالية تضفي جواً من البهجة والسرور على حياة نزلاء الربط، لا سيما في المواسم والأعياد، فقد كان الصوفية يحتفلون بوفاة شيوخهم بعمل عرس حسب مصطلحاتهم، ويحضر هذا العرس أرباب الدولة والعلماء ومشايخ الربط، ويقدم فيه المأكول والمشروب والحلوى[٣] ومن البديهي أن هذا الاحتفال من بدع الصوفية التي أدت مع أمثالها إلى إثارة الفقهاء والعلماء. كما أن زيارة بعض الخلفاء للربط، كانت مناسبة احتفالية حيث يكرم أهل الربط بهذه الزيارة، وقد عرف عن الناصر لدين الله، أنه كان يزور الرباط الذي بناه في بغداد[٤] كما أن الزوار المهمين لعاصمة الخلافة بغداد، كانوا يقومون أحياناً بزيارة هذه الربط أحياناً كما حدث عند زيارة بدر الدين لؤلؤ ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م حاكم الموصل لبغداد عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م حيث أقيمت له دعوة في رباط الخلاطية[٥].

---

(١) ابن حجر، الدرر: ٣/ ٣١٢.

(٢) ابن الساعي، المصدر السابق: ص٧٤.

(٣) ابن الجوزي، المصدر السابق: ١٠/ ١٢٩، سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ١٤٩، كما حدث عند وفاة أبو الوفاء الفيروز آبادي، أحد صوفية رباط الزرزني المشهورين حيث أنفق على الدعوة مال عظيم، وأقيم الاحتفال ما بين الرباط وجامع المنصور الذي يقع مقابله، سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ١٤٩.

(٤) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٤٢٢.

(٥) مجهول، الحوادث: ص١٨٠.

وهكذا مثلت الربط اتجاهات المجتمع الإسلامي، ومن الغريب بعد كل هذا أن يعتقد بعض الباحثين من الذين نظروا إلى الأربطة من بعيد، جاعلين على أعينهم نظارات مصنوعة في أوربا، ملونة بالعلمانية والسخرية، وانعدام الثقة، راسمين لها صوراً مستنسخة من الأديرة النصرانية بل أسوأ بكثير، فهي حسب زعمهم مكان للمتصوفة الذين يريدون أن يقضوا بقية حياتهم متفرغين للصلاة والعبادة، دون أن يرتقوا في درجات التصوف التي كانت في الخانقاه والزوايا، أي أنها ملاجئ للعجزة والبطالين الذين ليس لهم دخل يعيشون منه[1] في حين رأى آخرون بأن الربط أماكن يجد فيها العزاب والفقراء والمشردون الطعام فضلاً عن ثقافة دينية صوفية[2] وهذه الآراء القاصرة عن فهم الحياة في الربط بعكس ذلك الرأي الحصيف الذي صدر عن جواد[3] والذي قال فيه أن الربط توفر لمنتسبيها ظروفاً جيدة للعبادة والزهد فضلاً عن كونها من المعاهد الثقافية حيث كان الصوفية يؤلفون فيها ويدرسون الحديث ويسمعونه.

❖ الانتقادات الموجه إلى الأربطة:

لم تكن الأربطة في بداية الأمر تضم بين صفوفها الكسالى والعاطلين والمنحرفين والمشعوذين، حيث ظلوا استثناءً بالنسبة للقاعدة الطيبة[4] فقد نبه الرواد الأوائل كالسهروردي[5] على مخاطر استقرار هؤلاء في الربط، وأكد على ضرورة طردهم. كما ندد قبله ابن حوقل[6] أثناء زيارته لجزيرة صقلية الإسلامية برباطاتها الواقعة على الساحل والمشحونة (بالرياء والنفاق والبطالين والفساق... قد عملوا السجادات منتصبين لأخذ الصدقات وقذف المحصنات). كما وجهت أحياناً إلى بعض زعماء الربط تهماً خطيرة عن الانحراف وصحبة الأحداث[7].

وقد وصف السبكي[8] بعض صوفية عصره بقوله (أكلة بطلة سلطة لا شغل ولا مشغلة)، أي أنه كثير الأكل وعاطل عن أي عمل ومسطول بالحشيشة التي انتشرت بينهم، وعبرت قصيدة الشيخ فتح الدين محمد اليعمري عن سخطه على صوفية عصره.

---

(١) عثمان، المدينة الإسلامية: ص٢٤٣.
(٢) جاسم، بغداد: ص١٢٥، ١٥٠.
(٣) المعاهد الخيرية النسوية: ص٤.
(٤) يقارن هنا ما أورده ابن الجوزي، صيد الخاطر: ص٢٣٨، تلبيس أبليس: ص١٦٩-١٧٠.
(٥) المصدر السابق: ص١١٥.
(٦) المصدر السابق: ص١١٦.
(٧) الذلجي، الفلاكه: ٧٢-٧٣،٧٨، ينظر الوزان، وصف أفريقيا: ١/ ٢٠٩-٢١١.
(٨) معيد النعم: ص١١٥، وينظر للمزيد عن هذه الانتقادات الفعل الذي خصصه ابن الجوزي، تلبيس: ص١٥٥-٣٧١.

ما شروط الصوفي في عصرنا اليو م سوى ستة بغير زيادة
وهي نيك العلوق والسكر والسلطة والرقص والغناء والقيادة
وإذا هذى وأبدى اتحاداً وحلولاً من جهله أو إعادة
وأتى المنكرات عقلاً وشرعاً فهو شيخ الشيوخ ذو السجادة[1]

الزوايا:

ظهرت الزوايا لأول مرة، في الجوامع، حيث ينزوي الفقهاء والقراء الذين يقومون بالتدريس في أحد زوايا الجامع، بعيداً عن المصلين، كي لا يشغلوهم عن صلاتهم كما كانت هذه الزوايا تضم العباد الذين ينزون فيها لأغراض الصلاة والذكر والتهجد[2] ولا يمكن تحديد زمن محدد لهذه الزوايا، إلا أنها على الأرجح أخذت بالظهور ما بعد القرن الثاني وقد ظل هذا الارتباط المكاني ما بين الزاوية والجامع، إلى القرون المتأخرة، حيث يشير السبكي[3] إلى أنه كان يدرس في الزاوية الغربية من جامع دمشق وهي الغزالية في عصره[4] وقد أوقف على هذه الزاوية أوقافاً كثيرة، لا سيما عندما تولى التدريس فيها نصر الله بن محمد المصيصي المولود عام ٤٤٨هـ/١٠٥٦م والذي أوقف عليها ماله[5]، كما أوقف عليها صلاح الدين الأيوبي قرية خرم[6].

وعندما زار ابن جبير[7] جامع دمشق وجد فيه زوايا عديدة، قد اتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد، عن ازدحام الناس واشتهرت في هذا الجامع زاوية المالكية الواقعة في الجانب الغربي منه، حيث يجتمع بها الطلبة المغاربة لتلقي العلم وعليها أوقافاً سخية[8] وممن أوقف عليها نور الدين زنكي، حيث أوقف طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء (تزرع بالحبوب) وحمام ودكاكين بسوق العطارين[9] كما أوقف أيضاً على

---

(١) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٤١٤.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ١٢٨.
(٣) طبقات: ٧/ ٣٢١.
(٤) نسبت إلى الإمام الغزالي عندما نزلها بعد وصوله دمشق، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة: ٢/ ٢٤٧.
(٥) السبكي، طبقات: ٧/ ٣٢١.
(٦) ابن كثير، المصدر السابق: ١٢/ ٢٦٥.
(٧) المصدر السابق: ص٢١٦.
(٨) المصدر نفسه: ص٢٢٠.
(٩) المصدر نفسه: ص٢٣٢.

زاوية خصصت لتدريس الحنابلة[1] وقد أشار ابن عساكر[2] إلى دورها العلمي وبعض من درس فيها. كما أشار اليونيني[3] إلى أن زاوية بالجامع الأزهر أوقف عليها الأمير بدر الدين الخزندار ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م وقفاً جيداً على طلبة العلم والمدرسين على المذهب الشافعي وذكر المقريزي[4] إن زاوية الإمام الشافعي بالجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) أوقف عليها الملك العزيز الأيوبي ناحية الخربة من المنوفية لتمويل التدريس بها.

وإلى جوانب الزوايا المذكورة وهي الأصل، فقد ظهرت زوايا أخرى انفصلت مكانياً عن الجامع، فقد أشير في القرن الخامس إلى أن بعض العباد، اتخذ له زاوية في بيته[5] في حين اتخذ البعض الآخر زوايا في المناطق الواقعة في ضواحي المدن الكبرى، كما هو الحال مع الشيخ عمر الملاء الذي كان حيا عهد نور الدين الذي بنى زاوية في ضواحي الموصل[6]. كما بنى المؤرخ المشهور سبط ابن الجوزي ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م زاوية له بمرج الدحداح من ضواحي دمشق[7] كما كانت زاوية محمد بن أحمد بن منظور ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م قرب المقس بضواحي القاهرة[8]، ويلاحظ أيضاً أن معظم الزوايا التي تحدث عنها المقريزي[9] والتي بلغ عددها ستة وعشرين زاوية كانت في ضواحي القاهرة، أو في مناطق جغرافية يتحقق فيها العزلة النسبية.

في حين نجد زوايا أخرى في مناطق بعيدة عن العمران والمدن لأغراض الاختلاء والتعبد، وقد أشير إلى هذا النوع منذ القرن السادس الهجري، ولربما كان هذا هو السبب في قول السبكي[10] من أن غالبية الزوايا في البراري، بعكس الخوانك التي هي في الحواضر، وهو قول غير دقيق لا يأخذ بنظر الاعتبار وضعية الزوايا في العالم الإسلامي.

---

(١) ابن شداد، الأعلاق: ج١، قسم١: ص١٢١.

(٢) تاريخ دمشق: ٤١/ ٣٣٥.

(٣) ذيل مرآة الزمان: ٣/ ٢٦٢-٢٦٣.

(٤) السلوك: ج١، قسم١: ص١٣.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم: ١٠/ ١٤٧.

(٦) أبو شامة، الروضتين: ص٤٨٠، البنداري، سنا البرق: ص٩٨عمر الملاء: كان من الشيوخ الصالحين، وكان العلماء والفقهاء والملوك يزورونه في زاويته وهو الذي أشار على نور الدين زنكي الذي كان يثق به كثيراً ببناء الجامع النوري في الموصل. أبو شامة، الروضتين: ص٢٨.

(٧) القرشي، الجواهر المضية: ٢/ ٣٣١.

(٨) اليونيني، المصدر السابق: ٣/ ٢٨١.

(٩) المواعظ: ٢/ ٤٣٠-٤٣٦.

(١٠) معيد النعم: ص١٢٦، يقارن مصطفى، المدن في الإسلام: ٢/ ٢٨٥.

ومن هذا النوع من الزوايا زاوية الشيخ عدي بن مسافر الأموي(١) والتي أقامها في منطقة جبلية في لالش في جبال الهكارية(٢) وكانت هذه الزاوية تستقبل مريدي الشيخ من الأكراد وغيرهم فضلاً عن الشيوخ من إخوان الشيخ في طريق التصوف، فقد أشار الشنطوفي(٣) إلى أن قضيب ألبان الموصلي(٤) مكث شهراً في هذه الزاوية مستغرقاً في العبادة.

♦ **واجبات الزوايا:**

كما ظهر آنفاً فإن الزاوية، أدت واجبات كثيرة، فهي من جهة أدت دوراً تعليمياً، فضلاً عن دور تعبدي، ودور اجتماعي، تمثل في أنها كانت مكاناً لتقديم الطعام للفقراء، وتوزيع المساعدات لهم في أوقات الأزمات، كما حدث عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م عهد الظاهر بيبرس في القاهرة حيث أمر بتزويد الزوايا بالقمح لتوزيعه على الفقراء(٥) كما شهدت بعض الزوايا احتفالات بمناسبات معينة فقد ذكر أبو شامة(٦) أن الشيخ عمر الملاء كان يعمل دعوة كل سنة في زاويته في أيام المولد النبوي الشريف يحضره ملك الموصل والشخصيات المهمة والشعراء الذين ينشدون قصائدهم في ذلك الحفل في مدح المصطفى ﷺ. وكان يقدم إليهم الجوائز. كما عرف عن محمد بن أحمد بن منظور أنه كان يقيم أيضاً احتفالاً في زاويته بمناسبة المولد النبوي، ويجتمع فيه جمع كبير، وكان ما يقدمه من مأكل ومشرب يكلفه الكثير(٧).

---

(١) عدي بن مسافر: من الزهاد المشهورين، ينتهي نسبه إلى بني أمية، تبعه خلق كثير لا سيما أكراد الهكارية، جاوزا اعتقادهم فيه الحد حتى خرجوا من الملة، لحوافي التاريخ سموا العدوية والآن يحملون اسم اليزيدية ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م ودفن في زاويته في الهكارية شمال العراق. ابن خلكان، المصدر السابق: ٣/ ٢٥٤-٢٥٥.

(٢) ابن المستوفي، تاريخ اربل: ١/ ١١٤، ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٥/ ٣٦١: الشنطوفي، بهجة الأسرار: ص١٩٨: لالش تقع الآن في منطقة جبلية تابعة لقضاء الشيخان، محافظة نينوى، جمهورية العراق.

(٣) المصدر السابق: ص١٩٧.

(٤) قضيب البان: هو الحسين بن عيسى، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي ﷺ ولد في الموصل سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م وتوفي بها سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م. العمري، منهل: ص١١٦-١٢٨.

(٥) اليونيني، المصدر السابق: ١/ ٥٥٥.

(٦) الروضتين، ص٤٨٠، البنداري، المصدر السابق: ص٩٨.

(٧) اليونيني، المصدر السابق: ٣/ ٢٨١.

- **الحياة اليومية في الزوايا:**

قدم ابن بطوطة[1] صورة موجزة عن الحياة اليومية في إحدى الزوايا التي زارها حيث يقوم خادم الزاوية صباحاً بسؤال صوفية الزاوية عما يشتهونه من طعام فإذا اجتمعوا للأكل، كان لكل واحد منهم إناؤه وخبزه على حدة، وطعامهم مرتان في اليوم ولهم كسوة في الصيف، وكسوة في الشتاء ومرتب شهري من ٢٠-٣٠ درهم ولهم حلاوة السكر ليلة الجمعة، والصابون لغسل ثيابهم، وأجرة دخول الحمام خارج الزاوية، فضلاً عن تزويدهم بالزيت للإضاءة، وعلى مريدي الزاوية حضور الصلوات الخمس، والمبيت بالزاوية، واجتماعهم بقبة داخل الزاوية. ومن عاداتهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة خاصة به في الزاوية...

وهكذا يظهر أن الواجبات العلمية أخذت مع مرور الزمن تختفي في الزوايا واختصت فقط بالعبادة لمجموعة بعينها يمول الوقف الإسلامي عملية توفير الأكل والشرب والسكن لهم.

الخانقاه:

ساد مصطلح الخانقاه في الشام ومصر أكثر من الربط، واستخدم المصطلحان في إقليم الجزيرة الفراتية، الذي مركزه مدينة الموصل[2] بل وأشار السمعاني[3] إلى أن المصطلح استخدم أيضاً في خراسان. وإذا كان مصطلح الربط عربياً، فإن الخانقاه فارسية ومعناها الموضع الذي يأكل فيه الملك[4] وهي تمثل في معظم الأحيان المعنى نفسه للربط وعرف السمعاني[5] الخانقاه بأنها البقعة التي يسكنها أهل الخير الصوفية في حين عرفها ابن الأثير[6] بأنها رباط الصوفية، وعرفها المقريزي[7] بأنها مكان لاستقرار الصوفية وعبادتهم. في حين أشار ابن بطوطة[8] إلى أن الخانقاه والرباط شيء واحد.

---

(١) تحفة النظار: ص٣٣.

(٢) ابن جبير، المصدر السابق: ص١٧٣، ابن الفرات، تاريخ: ص١٠٨، ابن كثير، المصدر السابق: ١٣/ ٥٨،٢٦٢-٢٦٨، وينظر جواد، المعاهد: ص٦.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٣٨٨.

(٤) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٤١٤.

(٥) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٤١٤.

(٦) اللباب: ١/ ٤١٥، ابن الصابوني، المصدر السابق: ص٢٨٠.

(٧) السلوك: ج١، قسم١: ص١٨٢.

(٨) المصدر السابق: ص٣٣.

إن ما أورده الأربلي[1] من أن الخانقاهات في دمشق مخصصة للرجال فقط بعكس الأربطة التي خصصت للنساء فهو صحيح. حيث أشار ابن شداد[2] في إحصائه لعدد الخانقاهات في دمشق إلى وجود تسعة عشر خانقاهاً وتسعة عشر رباطاً. في حين كان في حلب خمس وعشرين خانقاهاً منها سبع للنساء وثمانية عشر للرجال[3] في حين أورد ثلاثة أربطة فقط للرجال[4] كما أن المقريزي[5] عند إحصاءه لعدد الخانقاهات في مصر أشار إلى وجود عشرين خانقاهاً كانت جميعها للرجال. أما في بقية دار الإسلام فلم تشر المصادر إلى خانقاهات للنساء، بينما كانت الأربطة منها ما هو مخصص للرجال ومنها ما هو مخصص للنساء.

وهناك نص منفرد أورده المقريزي[6] يفرق بين الخانقاه والرباط حيث يشير إلى أن الملك المظفر بيبرس الجاشنكيرت ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م بنى عام ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م خانقاه في القاهرة، وبنى إلى جانبها رباطاً كبيراً يرتبط بها ويلاحظ أن سكنة الخانقاه من الصوفية، بينما سكن الرباط كبار السن من الجنود السابقين والناس العاديين ويبدو أن حالة الخانقاه والرباط الذي بناهما الجاشنكير، لم تتكرر فهي حالة خاصة لا يمكن القياس عليها، فكأنما خصص الرباط للعجزة، بينما الخانقاه للصوفية.

ويعتبر خانقاه سعيد السعداء[7] أول الخانقاهات التي اتخذت في مصر وأكثرها شهرة وقد أنشأه السلطان صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م[8] وقد أنشأ له مئذنة عام ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م على يد شيخه أحمد بن محمد الأنصاري[9]، وقد بلغ عدد ساكنيها عام ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م ٥٠٠ صوفي[1] بينما بلغ عدد صوفية الخانقاه المظفرية ٤٠٠

---

(١) ينظر روايته لدى دهمان، مدارس دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي: م٢٢: ص٢٤٥-٢٤٦.
(٢) المصدر السابق: ٢/ ١٩١-١٩٦.
(٣) ابن شداد، المصدر السابق: ج١، قسم١: ص ٩٣-٩٥.
(٤) المصدر نفسه: ج١، قسم١: ص٩٦.
(٥) المواعظ: ٢/ ٤١٦-٤١٧.
(٦) المصدر نفسه: ٢/ ٤١٦.
(٧) أحد خدام القصور الفاطمية عهد المستنصر واسمه عنبر أو قنبر ولقبه سعيد السعداء، حيث حملت الدار اسمه قتل عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م. المقريزي، المواعظ: ٢/ ٤١٥.
(٨) المصدر نفسه: ٢/ ٤١٥: لمعي، التراث: ص٢٥.
(٩) ابن حجر، أبناء الغمر: ص٤٢٣، ويشير المقريزي إلى أن تاريخ الإنشاء كان ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م المواعظ: ٢/ ٤١٦.

٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م ٥٠٠ صوفي[١] بينما بلغ عدد صوفية الخانقاه المظفرية ٤٠٠ صوفي[٢] وصوفية خانقاه كريم الدين الكبير ١٠٠ صوفي[٣].

* **متى ظهرت الخانقاه لأول مرة:**

هناك ما يشير إلى ظهور الخانقاه لأول مرة في نهاية القرن الرابع الهجري، حيث بنى المحدث المشهور ابن حبان[٤] صاحب الصحيح الذي يحمل اسمه خانقاه في نيسابور وأخذ يدرس فيها مصنفاته[٥] ويبدو أنها أخذت بالانتشار بصورة واضحة في القرن الخامس الهجري[٦] إلا أن ظهورها في الشام قد تأخر إلى بداية القرن السادس الهجري، حيث أنشأ لؤلؤ الخادم عتيق الملك رضون السلجوقي أول خانقاه في حلب عام ٥٠٩هـ/ ١١١٥م[٧] ويشير النعيمي[٨] إلى أن دمشق شهدت وجود خانقاهات مثل السميساطية التي قصدها الإمام الغزالي أثناء وجوده في دمشق، إلا أن صوفيتها منعوه من دخولها لعدم معرفتهم به، ثم اعتذروا إليه بعد أن شاع صيته وعلمه.

* **وظائف الخانقاه:**

لقد تطورت مع مرور الزمن الوظائف التي تؤديها الخانقاه، فأصبح بعضها مثل خانقاه شيخو، تقوم بواجبات المدرسة، من خلال تدريس العلوم الشرعية المختلفة ومما يعزز الاعتقاد بأن الخانقاه، أصبحت لها وظيفة تعليمية موازنة لدورها التعبدي، ظهور ما يمكن تسميته بالانضباط الروحي، من خلال محاربة الأفكار الهدامة التي أخذت تسلل إلى بعض المتصوفة من خلال عدم وجدود أرضية عقدية وفقهية لدى أكثر قادتهم فكيف بمريدهم ، فها هو محمد بن إبراهيم شيخ الحنابلة بالديار المصرية، وأحد المدرسين المشهورين وممن تولوا قضاء القضاة للحنابلة بالديار المصرية، يتولى مشيخة خانقاه سعيد

(١) لمقريزي، السلوك: ج٣، قسم٢: ٨٣٥.
(٢) ابن حجر، الدرر: ١/ ٥٠٧.
(٣) ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٩/ ٨٤.
(٤) محمد بن حبان البستي: أحد الحفاظ الكبار المجتهدين، رحل إلى البلدان وسمع الكثير من المشايخ له صحيح ابن حبان ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م ابن كثير، المصدر السابق: ١١/ ٣٥٩.
(٥) ابن حبان، الإحسان: ١/ ٦، يقارن، عثمان، المدينة الإسلامية: ص٢٤٣
(٦) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٤١٤.
(٧) ابن شداد، المصدر السابق: ج١، قسم١: ص٩٣.
(٨) المصدر السابق: ١/ ٤١٣-٤١٤.

السعداء لمدة سنتين علماً بأنه كان للحنابلة موقفاً متطرفاً في معظم الأحيان من الصوفية[١] وتولى حلال الدين السيوطي مشيخة الخانقاه البيبرسية[٢].

كما كان يستقر في الخانقاه كبار العلماء فها هو محمود بن عبد الله الزنجاني من شيوخ الشافعية وإمام المدرسة التقوية بدمشق يبيت في خانقاه الشميساطية[٣] كما نزل محمد بن يحيى النيسابوري ت ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م وهو من أكبر الفقهاء الشافعية في عصره، ومن تلاميذ الإمام الغزالي، في خانقاه سعيد السعداء، عندما جاء إلى القاهرة من نيسابور[٤]. كما عرف عن محمد بن عبد الرحمن المسعودي ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م الفقيه الشافعي والصوفي والأديب الذي اشتهر بشرح مقامات الحريري، في خمس مجلدت، إن إقامته كانت في الخانقاه الشميساطية بدمشق، ودرّس الملك الأفضل بن السلطان صلاح الدين، وقد أوقف مكتبته بعد وفاته على الخانقاه[٥].

* شروط الالتحاق بالخانقاه:

جاء في وقفية السلطان برقوق في الخانقاه التي بناها، أن يكون الطالب الصوفي الفقيه مثقفاً وحكيماً وأميناً، ويفضل أن لا يكون متزوجاً، وفي حالة تزوجه عليه أن يترك سكنه في الخانقاه، ويسمح للصوفي بالمبيت، خمس ليال متصلة خارج مبنى الخانقاه وله إجازة ثلاث شهور في السنة، لزيارة أسرته القاطنة في منطقة بعيدة، وفي حالة غيابه لعشرة أيام يطرد من الخانقاه، ومن يسافر إلى الحج بناء على رغبة الخانقاه تصرف له مرتباته، وكان الصوفية يسكنون في أجنحة خاصة حسب مذاهبهم الأربعة.

وكان كادر الخانقاه، يشمل فضلاً عن الطلبة الصوفية الفقهاء، الإمام والخطيب والمؤذن في المسجد المرتبط بالخانقاه، وخادم شيخ الخانقاه، وموزع الربعات الشريفة (المصاحف) وكاتب الغيبة، وأمين المكتبة، ومزملاتي، وبواب وفراش وطباخ ومشرف على الطبخ، وسواق الساقية، ووقاد، فضلاً عن أطباء وكانت تقدم لكل صوفي عشرة دراهم، ولم يكن هناك قيود على الأكل، حيث تقدم الخضراوات واللحم والأرز واللبن والعسل والرمان وتحسن النوعية وتزداد الكمية في المناسبات الشريفة[٦]. كما يلاحظ أن

---

(١) اليونيني، المصدر السابق: ٣/ ٢٧٩-٢٨٠.
(٢) ابن اياس، المصدر السابق: ٢/ ٣٣٩.
(٣) اليونيني، المصدر السابق: ٣/ ١٦١.
(٤) ابن خلكان، المصدر السابق: ٤/ ٢٢٤.
(٥) المصدر نفسه: ٤/ ٣٩٠.
(٦) لمعي، المرجع السابق: ص٢٧-٢٨.

من شروط خانقاه شيخو، أن على شيخها "حضـور التصـوف وتدريـس الحنفيـة بالديـار المصرية، وأن يكون عارفاً بالتفسير والأصول وألا يكون قاضياً، وهذا شرط عام في جميع أرباب الوظائف بها"[1].

* **خدمات الخانقـاه:**

جاء في وقفية خانقاه سرياقوس[2] "... يصرف لكل صوفي في اليوم من لحم الضأن السليج رطل قد طبخ في طعم شهي، ومن الخبز النقي أربعة أرطال، ويصرف لـه في كـل شهر مبلغ أربعين درهماً فضة منها ديناران، ورطل حلوى، ورطلا زيتاً من زيت الزيتـون ومثل ذلك من الصابون، ويصرف له ثمن كسوة في كل سنة وتوسعة في كل شهر رمضان وفي العيدين، وفي مواسم رجب وشعبان، وعاشوراء. وكلمـا قدمـت فاكهـة يصـرف لـه مبلغ لشرائها، وبالخانقاه خزانة بها السكر والأشربة والأدوية، وبها الطبائعي أو الجرائحي والكحال ومصلح الشعر، وفي كل رمضان يفرق"[3].

وبذلك يبـدو واضحـاً نوعيـة الخدمـات السـخية الـتي تقدمـها الخانقـاه لنزلائـها ومنتسبيها وهي حسب مصطلحات وقتنـا مـن الدرجـة الأولى. أمـا الخدمـات التعليميـة للخانقاه، فقد كانت كبيرة، مثال ذلك ما ذكره المقريزي[4] عن خانقـاه شـيخو في القـاهرة من تدرسها الفقه على المذاهب الأربعة المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية، فضـلاً عـن دروس في الحديث النبوي، ودروساً لإقراء القرآن. وكان التدريس يتم فيها ما بين الظـهر والعصر، فضلاً عن إلحاق مكاتب لتعليم الصبيان الأيتام في بعض الخانقاهات.

* **أوقاف الخانقـاه:**

يشير المقريزي[5] إلى أن أوقـاف ركـن الديـن الجاشـنكير ت ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م في القاهرة والتي اكتمل بنائها عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م. كانت تتكون من عدة ضياع في دمشـق وحماه في الشام، ومنية المخلص بالجيزة مـن أرض مصـر، فضـلاً عـن ضيـاع في الصعيـد

(١) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ٢٦٦.

(٢) أنشأ هذه الخانقاه الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م في ضواحي القاهرة واكتمـل عـام ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م، وكانت تضم ١٠٠ خلوة لكل صوفي خلوة مع مسـجد تقـام فيـه الجمعـة وحمـام ومطبخ، المقريزي، مواعظ، ٢/ ٤٢٠.

(٣) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٤٢٠.

(٤) المقريزي، سلوك: ج٣، قسم١: ص١٧-١٨، المقريزي، مواعظ: ٢/ ٤٢١.

(٥) المصدر نفسه: ٢/ ٤١٧.

والوجه البحري فضلاً عن ربع (بناية أو قيسارية) في القاهرة. وهنا يلاحظ بصورة جلية أن أوقاف هذه الخانقاه رعت التنوع في اختيار الأراضي الزراعية، في الشام في منطقتي دمشق وحماه، فضلاً عن أراضي في منطقة الصعيد في مصر والوجه البحري، لضمان الحصول على إيرادات، انطلاقاً من تعرض بعض البلاد إلى الجدب أحياناً دون بلاد أخرى، فضلاً عن التركيز على الأملاك العقارية المضمونة الإيراد تقريباً.

وبذلك نجد أن الخانقاه جمعت بين التصوف وتدريس العلوم الشرعية، فهناك الصوفي الفقيه والفقيه الصوفي وقد تحقق نوع من المصالحة أو الانسجام بين الفقهاء والصوفية، فالطرفين يكملان بعضهما البعض الآخر، عبر الالتزام بالكتاب والسنة والبعد عما سواهما.

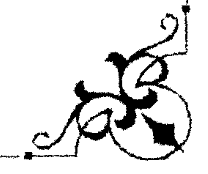
إن التصوف بكل طقوسه وسلوكياته التي تقبل التأويل والتفسيرات المختلفة أصبح في القرون المتأخرة، المفهوم الشعبي البسيط للإسلام، ولذلك كان بأمس الحاجة إلى (مصافي) إن صحت التسمية، تصفي تيارات المياه الداخلية التي تتحرك بعنف، محاولة الابتعاد عن الثوابت الإسلامية، وإعادة تفسيرها بصورة مرفوضة، متأثرة بالواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي، الذي أخذت تسوده أطراً غير إسلامية، ما بين الفينة والفينة متأثرة بأنفاس هندية ويهودية ونصرانية وصينية، وكان الشيوخ الصوفية الملتزمون والأمناء على ثوابتهم الإسلامية، سواءً كانوا في الأربطة أو الزوايا، أو الخانقاهات هم هذه المصافي، التي حاولت جهد المستطاع ضبط الأفكار والسلوكيات الجامحة على معطيات الكتاب والسنة، سواءً كان هذا الجموح بحسن نية أو بسوء نية، وبذلك يمكن القول أن دخول كتب العلم إلى أماكن التصوف، كان تطوراً إيجابياً للحفاظ على أهل السنة والجماعة، أكثر مما أعتقد عثمان[1] أن سبب تبني مؤسسات التصوف كان بدافع نشر المذهب السني على حساب المذهب الشيعي الفاطمي في مصر والشام.

---

(١) المرجع السابق: ص٢٤٣.

الفصل الثالث

خدمات الأوقاف التعليمية



خدمات الأوقاف التعليمية

دور الوقف في دعم التعليم:

لقد كان لنظام الوقف الإسلامي، دور كبير في إيجاد واستمرار المؤسسات التعليمية مثل المدارس، والمكتبات، ودور العلم، ودور القرآن، والحديث، ومكاتب الصبيان، وإيجاد نظام داخلي يتولى توفير الجو العلمي الإسلامي للمدرس والطالب، من خلال توفير الدعم المالي السخي، للسكن والمأكل والمشرب والرواتب، ومستلزمات التدريس... التي تقدم للمدرس والطالب وبدرجات متفاوتة لأعضاء الكادر الإداري، والخدمي. وكان هذا النظام مهماً جداً وخاصة للطلبة القادمين من مناطق بعيدة ومختلفة، من شتى أرجاء دار الإسلام.

وقبل الحديث عن المؤسسات التعليمية، لابد من الإشارة، إلى أنه إلى جانب هذه المؤسسات المتخصصة، فقد ظلت العلوم الشرعية، والعلوم البحتة، تدرس في الجوامع وزواياها[1] وبدرجة أقل في بعض الأماكن الصوفية مثل الخانقاه والربط[2].

*** المدارس:**

ظهرت المدارس لأول مرة بالصورة المعروفة، في القرن الرابع الهجري[3] وبلغت أوجها من خلال المدارس النظامية في نهاية القرن الخامس الهجري[4] وتكمن أهمية مدارس نظام الملك الوزير السلجوقي، في إنها أول من طبق نظام المخصصات المالية والخدمية الخاصة بالأساتذة والطلبة على السواء[5].

---

(١) ينظر الفصل الثاني: ص٧٥-٧٦.

(٢) ينظر الفصل الثاني: ص٦٩-٧١، ٨٢.

(٣) يشير السبكي إلى أن نيسابور هي أول مدينة شهدت بناء المدارس فقد بنى الأمير نصر بن سبكتكين فيها مدرستين هي المدرسة البيهقية والسعدية، كما بنى إسماعيل الاستر آبادي المدرسة الثالثة وأبو إسحاق الأسفراييني المدرسة الرابعة. طبقات: ٤/ ٣١٣، السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ٢٥٥، ويشير معروف إلى أن أول مدرسة بنيت في نيسابور كانت مدرسة حسان القرشي الأموي ت ٣٤٩هـ مدارس ما قبل النظامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، ٢٢/ ٢٥-٢٦، وينظر للمزيد عن الموضوع جواد، المدرسة النظامية، سومر: ٩/ ٣٢٣-٣٢٤، حيدر، المدارس:ص٢٦.

(٤) هي تلك المدارس التسعة التي أنشأها الوزير السلجوقي نظام الملك، لتدريس المذهب الشافعي في بغداد وبلخ

(٥) السبكي، طبقات: ٤/ ٣١٤.

إن إنشاء المدارس الوقفية، كان ضرورياً لتحقيق التخصص، الذي لابد منه ليأخذ التطور وجهته المثلى، من خلال ضمان الإيرادات اللازمة لتحقيق هذا الغرض، وإذا كان البعض قد رأى في إنشاء النظاميات وسيلة للتدخل في شؤون العلم لغرض السيطرة على العلماء[1] فإن هذا الرأي لا يخلو من الصحة، إلا أنه لا يعبر عن الحقيقة كاملة، فقد شهد العصر السلجوقي، تصاعد الخلافات المذهبية سواءً بين أهل السنة والجماعة والشيعة الإسماعيلية المتطرفة، أو الأمامية المعتدلة، أو بين المذاهب السنية نفسها، ولهذا رأى نظام الملك، في المدارس التي أنشأها وسيلة لتقوية المذهب السني، خاصة في وجه الحركات الباطنية التخريبية التي خرجت من خيمة الإسماعيلية، ومارست الإرهاب السياسي والفكري، ونشرت الكتب لدعم آرائها خاصة في أقاليم فارس والشام والجزيرة، محاولة بكل قوة زعزعة السلطات السلجوقية وطردها من هذه الأقاليم.

لم تكن المدارس تبنى من قبل السلاطين ونسائهم[2] ووزرائهم وقادتهم فضلاً عن الخلفاء الذين أخذت سلطاتهم في الانتعاش في بغداد في القرن السادس وبداية القرن السابع، وإنما كان المسلمون العاديون في دار الإسلام، يقومون ببناء المدارس، ودور العلم ابتغاء وجه الله وبعض هؤلاء بنى مدرستين في آن واحد، كما فعل أبو الحسن الدرني البغدادي ت ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م[3] وكذلك الحال مع ابن عصرون الموصلي ت ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م والذي بنى مدرسة في الموصل، وأخرى في دمشق[4] وبنى أبو النجيب السهروردي مدرسة في بغداد[5].

لقد ألفت كتب عن المدارس الوقفية، كان وصولها إلينا، سيسلط الأضواء على وضعية هذه المدارس وإدارتها وعمارتها ومناهجها من خلال نظام الوقف، إلا أنه مع الأسف لم يصل إلينا منها أقل القليل، فقد ألف المؤرخ ابن الساعي ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م "أخبار الربط والمدارس"[6] وهو مفقود، ووصلت إلينا معلومات قيمة

---

(١) العمر، الدليل: ص ي-ك.

(٢) ينظر مثلاً مدرسة بنفشا في بغداد، ومدرسة عصمت الدين بنت معين الدين أنر، سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٣٣٦،٣٨٧.

(٣) الكتبي، عيون التواريخ: ١٢/ ٤٨٩.

(٤) السبكي، طبقات: ٣/ ١٣٢-١٣٣.

(٥) ابن الجوزي المنتظم: ١٠/ ٢٤٥.

(٦) البغدادي، هدية العارفين: ١/ ٧١٢.

عن مدارس مصر من خلال المقريزي[1] فضلاً عما ذكره ابن عساكر[2] وابن كثير[3] وابن شداد[4] عن مدارس الشام والعراق ومصر والجزيرة، وغيرها من الأقطار الإسلامية، في معرض تراجمهم، وربما كان كتاب الحسن بن أحمد الأربلي ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م[5] من الكتب القليلة المهمة التي وصلتنا رغم صغر حجمه النسبي. في حين نجد أن كتاب النعيمي[6] هو الأكثر أهمية والذي حفظ لنا كثيراً من المعلومات الغنية عن مدارس الشام.

التصميم المعماري للمدارس الوقفية:

إن المدرسة الإسلامية، كان لها تصميمها المعماري الخاص بها، والذي يقوم على وجود إيوان أو أكثر، كما هو الحال في المستنصرية. وأحياناً كان تصميم المدرسة يقوم شكل بناء مثمن الشكل تعلوه قبة، عالية، ويحتوي البناء على محراب للصلاة، وتحيط بالبناء أروقة، فضلاً عن أبنية لمبيت الطلبة والأساتذة، وأجنحة للخدمات كما هو الحال في المدرسة الكمالية في الموصل وإليه تعود إلى القرن السادس الهجري[7].

* التصميم المعماري للمدرسة المستنصرية:

امتازت المدرسة المستنصرية بأنها نموذج رائع للمدرسة الإسلامية، من حيث الطراز المعماري، ومن حيث خدماتها التعليمية، وحجم الأوقاف التي كانت تمولها ولهذه الأسباب مجتمعة وصفها سبط ابن الجوزي[8] "ليس في المدينة مثل هذه المدرسة، ولا بني مثلها في سالف الأعوام فهي في العراق كجامع دمشق وقبة الصخرة بالشام...".

لقد قاومت أبنية هذه المدرسة بصورة عامة عوادي الزمن من الغزاة، والكوارث الطبيعية والظروف الجوية إلى القرن الخامس عشر حيث ظل معظمها سالماً بصورة عامة، كما قدم المؤرخون معلومات مفصلة عن مرافقها[9].

---

(١) المواعظ: ٢/ ٣٦٢-٤٠٥.
(٢) تاريخ دمشق: ٢/ ٧٢،٧٦،١٥٧-١٥٩،١٧٩.
(٣) البداية والنهاية: ١٢/ ١٧٥،٢٢٩،٢٤٣،٧١٣، ١٣/ ١٦،١٤١،١٦٣،١٩٥،٣٤١،٣٥١.
(٤) ينظر الأعلاق الخطيرة ح١، قسم١، ح٢
(٥) مدارس دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي: ٢٢/ ٢٤١-٢٤٤.
(٦) ينظر الدارس في أخبار المدارس.
(٧) البرهاوي، المدرسة الكمالية في الموصل، بحث غير منشور: ص١-٢.
(٨) المصدر السابق: ٨/ ٧٣٩.
(٩) سوسة، فيضانات بغداد: ١/ ٢٣٠، لسترنج، بغداد: ص٢٥٤-٢٥٥ وقد زارها نيبور في عام ١٧٦٥م ووجد مطبخها الذي كانت تعد فيه وجبات الطعام لمنتسبيها قد تحول إلى دار كمرك، كما أن ما تبقى من بناية المدرسة قد تحول إلى خان لأصحاب القوافل. رحلة ص٣٣.

يشير معروف[1] إلى أن المدرسة تتكون في طابقها الأول من الباب الرئيسي والمفصل على هيئة إيوانين كبيرين يقابل أحدها الآخر للحنفية والشافعية، والمدخل مزخرف مثلهما، وهناك إيوانان صغيران على طرفي المدخل يطلان على صحن المدرسة، غنيان بالزخارف الآجرية، وصحن المدرسة تحيط به الأواوين، وبيوت الطلاب، وهناك ستة سلالم يصعد منها إلى الطابق الثاني، ويصعد في أربعة منها إلى سطح المدرسة، وفي كل منها عدد من بيوت الماء، وهناك ربع الحنابلة، وربع المالكية، وربع الشافعية، وربع الحنفية، وإيوان الحنفية وإيوان الشافعية، وإيوان دار القرآن. كما أن هناك قاعتان كبيرتان، لعلهما كانتا تؤلفان خزانة المدرسة. إذا اعتبرنا القاعات الكبرى التي يدخل إليها من الدهليز، أعدت للتدريس، وعلى هذا يكون تدريس الحديث فيها. وبذلك تكون دار الحديث مجاورة لمدرسة الفقه ودار القرآن. كما أن الدهليز الذي يقع في الحد الأسفل فيه ست قاعات من القاعات الكبرى السبع، كانتا على الأغلب للتدريس، في غير فصل الصيف، وقد يكون اثنان منها خزانة للكتب، ودار الحديث، وكان هناك مسجد صغير للمدرسة صغير يحتوي على ثلاثة عقودكبيرة مطلة على صحن المدرسة، كما أن موقع مدرسة طب المستنصرية وإيوان الساعات قبالة باب المستنصرية. أما الطابق الثاني، فقد كان هناك غرفتان فوق الحجرتين أو الإيوانين الصغيرين اللذين على جانبي المدخل الرئيسي، وتطلان على صحن المدرسة، ويدخل إليهما من الرواقين الواقعين إلى صحنهما، كما هناك الرواق الذي في ربع المالكية والرواق الذي في ربع الحنفية ورواق ربع الشافعية، ورواق ربع الحنابلة، وهناك عدد من الحجر والغرف والممرات والسلالم في الطابقين ومعالمهما ليست واضحة.

في العصر المملوكي نجد أن المدارس صممت على أساس وجود الأواوين، فقد كانت المدرسة الظاهرية، مكونة من أربعة أواوين، الإيوان القبلي للشافعية والإيوان البحري للحنفية والإيوان الشرقي لأهل الحديث، والغربي لأهل القراءات[2]. كما يشير نص وقفية مدرسة سيف الدين تنكز في القدس إلى وجود أربعة أواوين أيضاً، وكان الإيوان الشرقي مسجداً والأواوين الثلاثة للتدريس، فضلاً عن وجود بركة ماء في وسط المدرسة، ومطبخ وخمسة بيوت للطهارة (مرافق صحية)[3].

---

(١) علماء المستنصرية: ١/ ٤١٧-٤١٩،٤٢٤.

(٢) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٧٩.

(٣) العسلي، معاهد العلم: ص١٢١.

إن الروعة المعمارية والدقة بلغت حداً في تصميم الأواوين إلى درجة أن أيوان مدرسة السلطان حسن في القاهرة حكم ما بين ٧٤٨-٧٦٢هـ/ ١٢٤٧-١٣٦٠م كان أكبر من إيوان كسرى انوشروان بخمسة أذرع[١] علماً بأن اتساع إيوان كسرى كان ٥٩ ذراعاً، بينما إيوان المدرسة كان ٦٤ ذراعاً[٢] والحق ببعض المدارس مكاتب لتعليم الصبيان الأيتام[٣] كما كان ملحقاً بالمدارس بناء يشكل قسم داخلي لمبيت الطلبة والمدرسين، والذي يتكون من بيوت وغرف وقد يكون المجمع أحياناً من طابقين وأكثر، وكان الأساتذة ينزلون في الطوابق العليا لراحتهم واستقرارهم[٤].

ونظراً لأهمية هذه الأقسام لراحة المدرس والطالب، فقد احتوى الفصل الخامس من تذكرة السامع والمتكلم[٥] على (آداب سكن المدارس وما يتعلق بها) وكان مبيت الأساتذة في بعض المدارس منفصلاً عن مبيت الطلبة[٦] ومن الطبيعي أن يكون هناك انفصال بين المدارس وبين مبيت الطلبة والمدرسين، وذلك للحفاظ على هيبة واحترام المدرسين لاسيما وإن الحياة داخل مبيت الطلبة، كانت تشبه الحياة في الأقسام الداخلية للجامعات في الوقت الحاضر، في بعض نواحيها، فالعلاقات الاجتماعية في هذه الأقسام لها نكهة خاصة من حيث المرح وشيوع النكتة بين الطلاب الذين كانوا يسمون آنذاك بالفقهاء فضلاً عن شيوع الألقاب. ويشير اليونيني[٧] إلى أن نجم الدين البغدادي البادرائي ت ٦٥٥هـ/ ١٢٥٨م كان لقبه في المدرسة النظامية (خولتا) بينما لقب زميله الزين قاسم النابلسي بـ (الدعشوش). وشاهد العبدري[٨] أثناء زيارته للمدرسة الظاهرية في القاهرة مكاناً للضيوف في طابقها العلوي، على الرغم من أن من شروط بعض الواقفين للمدارس أن (السكن على المرتبتين بها دون غيرهم)[٩] كما كان يبنى إلى جانب المدرسة أحياناً حمام موقوف عليها لاستعمال الطلبة[١٠] كما كانت بعض المدارس تحاط بالبساتين فهي (مدربة ومأنسة)[١١].

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ٢٦٩.
(٢) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣١٦.
(٣) المصدر نفسه: ٢/ ٣٨٢،٣٦٨-٣٦٩، النعيمي، الدارس: ٢/ ٢٢٣.
(٤) ابن جماعة، تذكرة: ص٢٢٣.
(٥) المصدر نفسه: ص١٩٣-٢٣٦.
(٦) حجة وقف الأشرف: ص٥٣.
(٧) المصدر السابق: ١/ ٧٢.
(٨) رحلة: ص٢٣٤.
(٩) ابن جماعة، تذكرة: ص٢١٠.
(١٠) ابن جبير، المصدر السابق: ص٥٠.
(١١) المصدر نفسه: ص١٧١، ابن بطوطة، المصدر السابق: ص١٣٢.

ومما يلفت النظر أن بعض المدارس احتوت على مأذنة مثل مدرسة ابن الجوزي ببغداد وهي حالة فريدة في الطراز المعماري للمدرسة(١) واحتوت المدرسة الأقبغاوية في القاهرة على مأذنة من الحجر، وكانت أول مأذنة من الحجر بعد المنصورية، وكانت تبنى قبل ذلك من الآجر(٢).

وكانت الصلوات تؤدي داخل المدرسة، وفي بعض قاعاتها حيث يبنى محراب في القاعة التي تؤدي فيها الصلوات فضلا عن الدروس(٣) بل أن بعض المدارس احتوت على منبر حيث كانت تقام خطبة الجمعة(٤) ولم يكن تصميم المدرسة في الغرب الإسلامي يختلف عنه في المشرق(٥).

النظام الداخلي للمدرسة الوقفية:

كان للمدارس نظامها الداخلي، سواء ما يتعلق بالمناهج التعليمية، أو بنوعية العلوم المدرسة، أو بالمدرسين، والكادر الإداري والخدمي للمدرسة، وضوابط عملهم، أو أوقات الدرس فضلا عن خدمات المدرسة.

وفيما يتعلق بالمناهج التعليمية، كانت للمدارس مناهجها الخاصة بها، سواء كانت تدرس مذهبا واحدا، كما هو الحال في المدارس النظامية، التي كانت تدرس المذهب الشافعي(٦). أو تدرس مذهبين كتلك التي أنشأها السلطان عز الدين الأتابكي في الموصل لتدريس المذهبين الحنفي والشافعي(٧) ثم ظهرت المدارس التي تدرس المذاهب الأربعة والتي مثلتها المستنصرية أحسن تمثيل(٨) ثم تتابعت المدارس على شاكلتها بعد ذلك مثل مدرسة شيخون في القاهرة(٩) ومدرسة الأشرف برسباي(١٠).

---

(١) ابن الساعي، المصدر السابق: ٩/ ٦٥.
(٢) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٨٤.
(٣) يؤيد ذلك تصميم المدرسة الكمالية في الموصل، فالمحراب يوجد في نفس قاعة الدرس.
(٤) كانت مدرسة الظاهر برقوق في القاهرة والتي أنشأها عام ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م يحتوي على منبر وتقام بها خطبة الجمعة. ابن حجر، أنباء الغمر: ص٣١٤.
(٥) شاهد الحسن الوزان مدرسة مراكش والتي كانت يحتوي على قاعة في الطابق الأرضي وثلاثين حجرة سكنية. المصدر السابق: ١/ ١٠٤.
(٦) ابن خلكان، المصدر السابق: ٤/ ١٥٣.
(٧) ابن الأثير، الباهر: ص١٨٩.
(٨) مجهول، الحوادث: ص٥٥، وينظر أمين، المدرسة المستنصرية: ص٥.
(٩) ابن كثير، المصدر السابق: ١٤/ ٢٥٨.
(١٠) حجة الأشرف برسباي: ص٣٠-٣١.

وفيما يتعلق بالمناهج، فقد كانت تختار أمهات كتب المذاهب، لكي تدرس مع الشروح الملحقة بها وكان وجود عدة مدرسين من عدة مذاهب داخل المدرسة الواحدة، قد ساعد على تطور الفقه المقارن، والذي ظهرت تباشيره منذ القرن الثاني الهجري من خلال بحوث الفقيه محمد بن الحسن[1] وأسد بن الفرات وأسديته[2] في المقارنة بين الأحناف والمالكية، ثم الإمام الشافعي وبحوثه في هذا المجال في كتابه الشهير الأم.

ويلاحظ أن الفقه المالكي، قد تأخرت فيه بحوث الفقه المقارن إلى القرن الرابع عندما كتب ابن رشد كتابه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد). وكذلك الحال مع الفقه الحنبلي حيث يعتبر ابن قدامة المقدسي في (المغني) رائد الفقه المقارن بين الحنابلة.

لم تكن علوم الشريعة واللغة من فقه وحديث وتفسير ونحو وبلاغة... هي المادة الوحيدة المدَّرسة في هذه المدارس، وإنما كانت تدرس أيضاً العلوم البحتة، كالطب، والرياضيات اللذين دُرِّسا في المدرسة المستنصرية[3]. وعرفت دمشق وجود ثلاث مدارس للطب وهي الدخوارية، واللبودية[4] والدنيسيرية[5] وأشار الحسن الوزان[6] عند زيارته لتلسمان الجزائرية إلى أن مدارسها الوقفية تدرس العلوم الطبيعية، فضلاً عن علوم الشريعة، وعرف عن المدرسة الكمالية في الموصل أن شيخها كمال الدين بن يونس، كان يدرس فيها العلوم البحتة مثل الرياضيات والهندسة، حيث كان يجيد أربعةً وعشرين علماً[7].

كادر المدرسة التعليمي:

يتألف كادر المدرسة من الطلاب والمدرسين والمعيدين، وقارئ التفسير والمنشد، وكاتب الغيبة، وخازن الكتب وشيخ الرواية وكاتب غيبة السامعين. ، فضلاً عن الكادر الإداري والخدمي المكون من الناظر ومشرف على الناظر وكاتب وخازن[8].

---

(١) ينظر مثلاً كتابه الحجة على أهل المدينة.
(٢) القاضي عياض، المصدر السابق: ٢/ ٤٧٨-٤٧٩.
(٣) الأشرف، المصدر السابق: ص٤٦٠.
(٤) ابن شداد، الأعلاق: ٢/ ٢٦٥-٢٦٦.
(٥) الأربلي، مدارس، مجلة المجمع العلمي العربي: ٢٢/ ٢٤٤.
(٦) المصدر السابق: ٢/ ٢١.
(٧) ابن خلكان، المصدر السابق: ٥/ ٣١١، القزويني، آثار: ص٤٦٣.
(٨) مجهول، الحوادث: ص٥٩.

* الطلبـــة:

كان الطلبة يمرون في هذه المدارس بمراحل ابتدائية ومتقدمة[1] وورد في وقفية تنكز في مدرسته في القدس، إلى أن الطلبـة الفقـهاء، كـانوا ثـلاث مراحـل المبتـدئ والمتوسـط والمنتهي، ولكل منهم مخصصاته العينية والنقدية[2]. ومن الطريف الإشارة إلى أنــه سـجل في بعض المدارس، اعتراض الطلبة على تعين أسـتاذ في المدرسـة حيـث طعنـوا في علمـه وأجيبوا إلى طلبهم في تغـيره[3] وهـذا يـدل علـى سماحـة وشـورية الأنظمـة السـائدة في المدارس الوقفية، بما ينسجم مع الحق والعدل الذي نادى به الشـرع الحنيـف واشـترطت بعض المدارس على الطلبة المبيت داخلها وليس خارجها[4].

* المدرســون:

هناك شروط يجب أن تتوافر في المدرس المعين في المدارس وهي كما أوردها ابن جماعــة[5] "أن يكون المـدرس بـها ذا رياسـة وفضـل وديانـة وعقـل ومهابـة، وجلالـة ونـاموس وعدالـة رحمـة في الفضلاء، وعطف على الضعفـاء، يقـرب المخلصـين ويرغـب المشتغلين ويبعـد اللغـائين... ويبقـي للمدرس الساكن في المدرسة أن لا يكثر من البروز والخروج مـن غـير حاجـة، فـإن كـثرة ذلـك يسقط حرمته في العيون، وأن يواظب على الصـلاة في الجماعـة فيـها ليقتـدي بـه أهلـها ويتعودوا ذلك..."

إن تعيين المدرس كان يتم أحيانا بقرار من الخليفة كما هو الحال في بغداد[6] حيـث ينعم عليه بلباس الفتوة، بعد تبني الناصر لنظام الفتوة، والذي كان يعني تشريفا لهـم[7] أو يتم التعيين بقرار من واقـف المدرسـة في معظـم الأحيـان[8] وكـان مـن ضمـن الشـروط المطلوبة أحيانا لتعيين المدرس، أن يكون عالما في الخلاف[9] وكان يسمح أحيانا للمـدرس بالتدريس في أكثر من مدرسة، فقد درس القاضي والمؤرخ المشهور ابـن خلكـان في سـبع

---

(١) دهمان، المدرسة الظاهرية، مجلة المجمع العلمي العربي ٢٣: ٥٧٨.

(٢) العسلي، معاهد: ص١٣٠.

(٣) ابن حجر، الدرر: ٣/ ٣٠٠.

(٤) المصدر نفسه: ٣/ ٢٨٣.

(٥) تذكرة السامع: ص١٩٨-١٩٩، ٢٠٢.

(٦) ابن الأثير، الكامل: ٩/ ٢٩.

(٧) مجهول، الحوادث: ص٩٠-٩١.

(٨) ابن خلكان، المصدر السابق: ١/ ٢٩.

(٩) ابن حجر، الدرر: ٣/ ٣٠٠.

مدارس في آن واحد[1] وهذا يحتاج من المدرس إلى جهدا كبيرا، فضلا عن جدول خاص به يبين هذه الدروس ومدارسها مع الأخذ بنظر الاعتبار، طول النهار، والبعد الجغرافي، ويشير السيوطي[2] إلى أن فخر الدين بن عساكر، كان مدرسا في أربع مدارس، بالعذراوية والتقوية، والجاروخية، وهذه المدارس الثلاث في دمشق، فضلا عن تدريسه في المدرسة الصلاحية في القدس، يقيم هنا أشهرا، وهنا أشهرا من السنة.

وقد ينتقل المدرس من مدرسة إلى أخرى، فقد ظل الشمس عبد السلام بن البغش أحد فقهاء الشافعية مدرسا في المدرسة النظامية أربعين سنة، ثم انتقل إلى المستنصرية، بعد أن افتتحت، وبقي بها إلى أن توفي عام ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م[3] وقد يبقى المدرس في مدرسة لفترة طويلة، كما حدث لعبد الله بن الواسطي ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م والذي درس في المستنصرية خمسين سنة[4]. وقد يكون مدرسا في مدرسة ومعيدا في أخرى ومدرسا في حلقة جامع مثل منصور بن الحسن الزنجاني، فقد كان معيدا بالنظامية ومدرسا بمدرسة ثقة الدولة الدريني بباب الأزج، كما كان له حلقة بجامع القصر الشريف[5] إن الخدمات السخية التي كانت تقدمها المدارس الوقفية للمدرس فضلا عن الحد الأدنى السائد فيها، هي التي جعلت العلاقة ودودة، بين المدرس والطلبة والمدرسة، فقد بكى الشاعر المشهور سعدي الشيرازي ت ٦٩١هـ/ ١٢٩١م والذي كان مدرسا في النظامية على بغداد ومدارسها وخليفتها المستعصم بعد احتلال التتر للمدينة عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م وما أنزلوه بها من تخريب[6].

أوقات الدرس:

لم ترد إلينا مع الأسف معلومات كافية في هذا الصدد فابن جماعة[7] يشير بصورة غير مباشرة إلى أنها بعد طلوع الشمس، إلى وقت الظهر، حيث أن أجود الأوقات للحفظ هي الأسحار وللبحث الأبكار، والكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل. في حين يشير الوزان[8] إلى أن جامع القرويين كانت الدروس تلقى فيه بعد الفجر بقليل،

(١) اليونيني، المصدر السابق: ١/ ٤٦٠.
(٢) الحاوي: ١/ ٢٤٥.
(٣) الأشرف، المصدر السابق: ص٥٩٦.
(٤) ابن حجر، الدرر: ٢/ ٢٩٩.
(٥) ابن الساعي، المصدر السابق: ٩/ ٦٤-٦٥.
(٦) عزام، الشيخ سعدي الشيرازي، الثقافة، العدد ١١، ١٣٥٨: ص٣٤-٣٥.
(٧) تذكرة السامع: ص٧٢-٧٣.
(٨) المصدر السابق: ١/ ١٧٧-١٧٨.

وتنتهي بعد ساعة من شروق الشمس، وفي الصيف تلقى الدروس من منتصف الليل إلى الساعة الواحدة والنصف صباحا، وفي مدارس فاس، كانت بعض الدروس تلقى صباحا وبعضها مساء. ويشير ابن جبير[1] إلى أنه حضر درسا في المدرسة النظامية في بغداد للشيخ رضي الدين القزويني شيخ الشافعية، وفقيه المدرسة النظامية، بعد صلاة العصر من يوم الجمعة، حيث صعد المنبر، ثم قرأ مجودو القرآن على كراسي مصفوفة "فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة، ونغمات محرجة مطربة ثم اندفع الشيخ المذكور فخطب خطبة سكون ووقار وفسر وحدث وتكلم في المعاني، ثم كتب السائلون أسئلة برقاع فأجاب عنها إلى المساء فنزل وتفرق الجمع..." ويبدو أنه كان درسا عاما للطلبة والراغبين في العلم من عامة الناس.

ويشير الفاسي[2] إلى أن أوقات الدرس في المدرسة الغياثية في مكة والتي أنشأها غياث الدين ملك البنغال سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م والتي كانت تدرس المذاهب الأربعة، كانت حسب أيام الأسبوع فللشافعية ضحى يومي السبت والاثنين وللأحناف ضحى أيام الأحد والأربعاء والخميس، وللمالكية فيما بين الظهر والعصر من أيام السبت والأحد والاثنين وللحنابلة ما بين الظهر والعصر من يومي الخميس والأربعاء وبذلك يظهر أن العطلة في هذه المدرسة كانت يوم الجمعة فقط.

ويشير النعيمي[3] إلى أن المدرسة الأمينية كان التدريس بها يتم في كل أيام الأسبوع حتى الجمعة والثلاثاء بعد أن تولى مشيختها العلاء بن الزملكاني سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م وبذلك كانت عطلة هذه المدرسة قبل تولي الزملكاني يومي الجمعة والثلاثاء. ويمكن القول بأنه كان لكل مدرسة نظام دوام أسبوعي خاص بها مع عطل أحيانا لبعض منها.

*** المعيد:**

هو دون المدرس، وأعظم درجة من عامة الطلاب، وهو الذي يعيد الدرس بعد إلقاءه على الطلبة[4] ويجب أن يتمتع المعيد بأخلاق رفيعة، فيجب أن يكون من أهل الفضل والصلاح "صبورا على أخلاق الطلبة حريصا على فائدتهم وانتفاعهم به قائما

(١) المصدر السابق: ص١٥٨.

(٢) شفاء الغرام: ص١٠٥-١٠٦.

(٣) المصدر السابق: ١/ ١٩٤.

(٤) شلبي، تاريخ: ص٢٣٩.

على وظيفة أشغالهم[1] إن أهمية المعيد تكمن في أنه يراجع محفوظات الطلبة وينبه الناظر والمدرس على الطلبة النابهين، ويعيد شرح ما توقف فهمه عليهم من دروس المدرس[2].

* **كاتب الغيبة:**

وهي من الوظائف المهمة في المدرسة، لأنه على أساس الحضور والالتزام يتم صرف المخصصات لمن سمع دون من لم يسمع، وممن تولى هذه الوظيفة المؤرخ المشهور شمس الدين ابن طولون ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م[3] علما بأن كاتب الغيبة، يسجل غياب المدرس فضلا عن الطلبة.

* **كاتب غيبة السامعين:**

إن مهمة كاتب غيبة السامعين، هي ضبط أسماء الحاضرين والسامعين.

* **شيخ الرواية:**

مهمته أن يسمع ما يقرأه المحدثون لفظة لفظة.

* **المنشد:**

هو الذي ينشد القصائد في مدح الرسول ﷺ[4].

* **الناظر:**

أنه أهم الموظفين الإداريين، فهو المشرف على إدارة المدرسة، وسير التدريس فيها، وضبط الإيرادات والنفقات، وتشير وقفية المدرسة الشامية البرانية أن من صلاحيات ناظرها أن يتصرف بإيرادات الوقف إن زادت عما هو مخصص للنفقة، من خلال صرفه إلى المنتسبين في المدرسة، على قدر استحقاقهم، وله حق الاحتفاظ بـ ١٠% من هذه الزيادة، لقاء أتعابه، كما أن من صلاحياته أن يزيد عدد الطلبة المستفيدين في المدرسة إذا ما ساعدت الإيرادات على ذلك[5].

---

(١) ابن جماعة، المصدر السابق: ص٢٠١.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٠٤.
(٣) ابن طولون، أعلام الورى- هامش المحقق: ص٧٦.
(٤) السبكي، معيد النعم: ص١٠٥-١١٢.
(٥) النعيمي، الدارس: ١/ ٣٠٢-٣٠٣.

أما موظفو الخدمات وفهم الفراشون، والبواب والحمامي والمزين والقيم والطباخ ومساعده وخازن الآلات وخزانة الديوان وغلمان الديوان والمؤذنون والنفاط[1] ولا يخلو هؤلاء من طلاب للعلم وعلماء أحيانا رغم قيامهم بهذه الواجبات، فقد ذكر ابن حجر[2] أن أحد البوابين كان ممن يسمع الحديث وهو علي بن إبراهيم المنبجي ثم الدمشقي ت ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م بواب المدرسة القليجية والذي سمع من الحافظ ابن بدران سنن ابن ماجة.

شــروط الواقـف:

لم يصل إلينا مع الأسف الكثير من شروط الواقفين خاصة المتعلقة بأوقاف العراق، فقد أشار جواد[3] إلى أنه لابن الساعي كتابا في شروط المستنصرية في مجلد واحد وهو (مفاتيح الحنان ومصابيح الجنان) وهو مفقود، ووردت بعض شروط الواقفين عرضا ويلاحظ أن بعض هذه الشروط كان غير معقولا، وظريفا أحيانا، والكثير منها يعبر عن رغبة الواقف في توفير الخدمات، بأعلى درجاتها، فقد يشترط الواقف على المدرس الذي يدرس في مدرسته، عدم التدريس في مدرسة أخرى، وأن يكون الطالب أعزبا وأن لا تدخل المدرسة إمرأة[4] اشترط البعض على الطلبة المبيت في القسم الداخلي الملحق بالمدرسة[5] وقد يشترط على المدرس قراءة شيء من كتاب الله عند البدء بالتدريس، أو الدعاء للحاضرين والواقف[6] واشترط أحدهم أن لا يلي في مدرسته أحد من العجم وظيفة من الوظائف وأن يكون من العرب[7].

وقفيـات المدارس:

إن وجود أوقاف سخية الإيرادات هي العامل الرئيسي مع الإدارة والسلطات السياسية في استمرار المدارس وغيرها من المؤسسات في أداء واجبها فقد أشير إلى أن ثمن الأوقاف التي أوقفها الوزير نظام الملك على مدارسه التسع كان ٦٠٠ ألف دينار[8] أي

---

(١) الأشرف، العسجد: ص٤٦٠، وينظر حجة وقف الأشرف برسباي: ص٩.
(٢) الدرر: ٣/ ١٠.
(٣) ابن الساعي، المصدر السابق، مقدمة المحقق: ص ت.
(٤) ابن كثير، المصدر السابق: ١٣/ ١٩٦، النعيمي، المصدر السابق: ١/ ٥٩٢.
(٥) ابن حجر، الدرر: ٣/ ٢٨٣.
(٦) ابن جماعة، تذكرة: ص٣٤-٣٥.
(٧) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٦٩-٣٧٠.
(٨) آداب المعلمين ورسائل أخرى، مقدمة المحقق عطار: ص١٧.

حوالي ٧٥ ألف دينار لكل مدرسة، ولذلك استمرت معظم هذه المدارس لأكثر من ثلاثة قرون بعد وفاة صاحبها إلى أواخر القرن الثامن لاسيما نظامية بغداد إلى العصر الجلائري المغولي في العراق[١] رغم تعرضها أحيانا لأسباب مجهولة إلى عجز في سد نفقاتها، والذي يعود على الأغلب، إلى مشاكل الإدارة وسوء إدارتها حيث يشير ابن الجوزي[٢] إلى أن أسعد المهيني الذي تولى إدارتها والتدريس فيها سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م حاول أن يسد العجز بأن يخفض الرواتب، ويستغني عن بعض كادرها، إلا أنه جوبه بمقاومة من منتسبي المدرسة، حيث اضرب المدرسون والمعيدون والطلاب عن الحضور.

ومما يدل على عظم إيرادات المدارس، إن إيراد أوقاف مدرسة أبي حنيفة كان عام ٥٢٣هـ ثمانين ألف دينار، في حين كان ما يصرف منها لا يزيد عن عشرة آلاف دينار[٣]. وأوقف السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله (صادر الإفرنج) أي الضرائب المفروضة على التجار الأوربيين الذين يصلون الإسكندرية، على فقهاء الإسكندرية[٤] وأوقف تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين على مدرسته التي أنشأها للشافعية في القاهرة جزيرة الروضة في نهر النيل وحمام الذهب وغيرها من الأملاك في القاهرة[٥].

ويمكن اعتبار وقفية المدرسة المستنصرية في بغداد نموذجا على وقفيات المدارس الإسلامية، فقد ضرب المثل بأوقافها حتى قال القزويني[٦] "لم يعرف موضع أكثر منها أوقافا ولا أرفه منها سكاناً" وقال عنها ابن كثير[٧] "إن ثمن تبن الوقف يكفي المدرسة وأهلها".

وقد رأى الذهبي[٨] نسخة وقف المدرسة في خمس كراريس، وهي تتضمن عدة رباع (أبنية) وحوانيت في بغداد وعدة قرى كبيرة وصغيرة ما قيمته ٩٠٠ ألف دينار "ولا أعلم وقفا في الدنيا يقارب وقفها أصلا سوى أوقاف جامع دمشق وقد يكون وقفها أوسع"

(١) جواد، المدرسة النظامية، سومر: ص٣٢٧.
(٢) المنتظم: ٩/ ٢٤٦.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم: ١٠/ ١١.
(٤) المقريزي، السلوك: ج١، قسم١: ص٦٣.
(٥) البنداري، سنا البرق: ١١٠.
(٦) آثار العباد: ص٣١٦.
(٧) المصدر السابق: ١٣/ ١٥٩.
(٨) تاريخ الإسلام ٦٣١-٦٤٠: ص٧-٩.

وفيما يلي أسماء القرى مع مساحة الأراضي الزراعية الموقوفة على المدرسة

	القريـــــة	مساحة الأراضي الزراعية بالحريب
١.	قصر سميكة	٣٧٠٠
٢.	الجمد	٦٤٠٠
٣.	الأجمة	٥٠٥٠
٤.	برفطا	٥٥٠٠
٥.	البدو	٣٩٩٠
٦.	قوسنيثا	أكثر من ٣٠٠٠
٧.	يزيد	٤١٨٠
٨.	طبسلى	٨١٠٠
٩.	سستا	أكثر من ٣٠٠٠
١٠.	الارحاء	٤٠٠٠
١١.	البسطامية	٤٠٠٠
١٢.	الفراسة	١٠٠٠
١٣.	حد النهرين	١٢٠٠
١٤.	الخطابية	٤٨٠٠
١٥.	بزندي	٦٥٠٠
١٦.	الشدادية	٢٠٢٥٠
١٧.	بقية	٤٨٠٠
١٨.	فرهاطيا	٦٠٠٠
١٩.	حصن خراسان ثم أضيف إليها	٥٩٠٠ ٧٢٠٠
٢٠.	قرية جديدة	٢٦٠٠
٢١.	القطينة	٦٤٠٠
٢٢.	المنسل	٥٥٠٠
٢٣.	ميثا	٢٥٠٠
٢٤.	الدنيارية	٤٦٠٠
٢٥.	الناصرية	١٩٠٠٠

وبذلك تكون مساحة هذه الأراضي الزراعية لوحدها ماعدا الأملاك العقارية هي ١٤٩،١٧٠ ألف جريب، ومن هذا يتبين لنا صدق ابن كثير وهو يقول أن تبن هذه الأراضي فقط من غير الحبوب يكفي لإعالة منتسبي المستنصرية.

ويلاحظ أن بعض أوقاف المدارس خاصة في مصر كانت تركز على العقارات المختلفة فقد أشار المقريزي إلى أن أوقاف المدرسة الناصرية في القاهرة كانت تشتمل عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م على قيسارية أمير علي بخط الشرابشين في القاهرة والربع (البناية) الذي يعلوها وكان يعرف بالدهيشة وحوانيت بخط باب الزهومة في القاهرة ودار الطعم خارج مدينة دمشق، وبذلك تكون أوقاف هذه المدرسة مزيجا من القيساريات والدور السكنية والحوانيت.

في حين كانت أوقاف المدرسة الخليلية التي أنشأها في القاهرة عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م الشيخ مجد الدين الخليلي تتضمن أراضي زراعية بناحية باربنا، وبستانا وأراضي بناحية نطوس، وأراضي بثغر رشيد، وبستانا ونصف بستان بناحية بلقس، ورباعا (أبنية) بمصر أي القاهرة[1] وهنا نجد التركيز على الأراضي الزراعية والبساتين، بالدرجة الأولى، ولم تتضمن الأبنية العقارية سوى بيوت سكنية في القاهرة، كما أن الأراضي الزراعية والبساتين كانت في مناطق مختلفة لكي لا تتعرض لنفس الظروف والمشاكل مما ينعكس على إيرادها.

خدمات المدارس الوقفية:

إن طبيعة الخدمات المتكاملة التي كانت تقدمها المدرسة الوقفية لمنتسبيها كالمسكن والمأكل والملبس صيفا وشتاء، والرواتب النقدية، تجعل المدرس والطالب يتفرغان للعلم، ويبدعان فيه فالنووي الذي يعتبر الشافعي الثاني في المذهب عاش على جراية المدرسة الرواحية في دمشق، والتي سكنها مدة سنتين[2] وأشير إلى أن بعض المدرسين مثل ثابت الهمامي الواسطي ت ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م عاش في المدرسة النظامية أربعين سنة لا يخرج منها إلا إلى صلاة الجمعة[3].

لقد كانت بعض المدارس سخية جدا في أنفاقها على منتسبيها، فقد جاء في وقفية المدرسة الحلاوية الحنفية بدمشق والتي بناها السلطان نور الدين زنكي رحمه الله فضلا عما

(١) مواعظ: ٢/ ٣٨٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٤٠٠.

(٣) اليونيني، المصدر السابق: ٣/ ٢٨٤.

كان يحصل عليه منتسبوها أن يحمل في كل شهر رمضان من وقفها ثلاثة آلاف درهم للمدرسة، يصنع بها للفقهاء طعاما في ليلة النصف من شعبان في كل سنة حلوى معلومة، وفي الشتاء ثمن بياض لكل فقيه شيء معلوم، وفي أيام شرب الدواء من فصلي الربيع والخريف ثمن ما يحتاج إليه من دواء وفاكهة، وفي الموالد أيضا الحلوى، وفي الأعياد ما يرتفقون به فيها دراهم معلومة، وفي أيام الفاكهة ما يشتهون به بطيخا، ومشمشا وتوتا[1].

إن مصطلح الفقيه هنا يعني طالب العلم بالدرجة الأولى فكيف ما كان يحصل عليه الأستاذ المدرس، كما يلاحظ أن هذه المواسم تدور على مدار السنة حيث تقدم الحلوى والفامهة والنقود فضلا عن الأقمشة (البياض) لخياطة الملابس.

كما جاء في وقفية مدرسة الشيخ أبو عمر المقدسي[2] في دمشق أن هذه المدرسة تقدم لمنتسبيها للشيخ المدرس ثلاثة أرغفة من الخبز يوميا وللطالب رغيفان، وطعام بشهر رمضان بلحم، وحلويات القمحية والزبيب والقضامة وحلاوة دهنية وكعك ومشبك بعسل وحلاوة رجب ولوزية، وجوزية في نصف شعبان وطعام في عيد الفطر حامض ولحم وهريسة ورز وحلو، وأضحية في عيد الأضحى، وحمام لاستحمام الطلبة يستفيدون منه دائما، مع توزيع الصابون والحصر مع توزيع قميص وسروال مرة في السنة، مع ختان الفقراء والأيتام سنويا لاسيما للأيتام الذين يدرسون في مكتبها[3] أن هذه المدرسة التي أنشأها رجل صالح من صالحي هذه الأمة عملت على تحقيق خدمات سخية متكاملة على مدار السنة لم تغفل حتى الملابس والحصران التي تفرش بها الغرف وأن تتعهد الطعام باللحم في المناسبات وبغير لحم في الأيام العادية. وأي جامعة خاصة تقدم هذه الخدمات في عالم القرن العشرين والواحد والعشرين.

وفيما يلي الخدمات التي كانت تقدمها المدرسة المستنصرية لمنتسبيها الذين كانوا أكثر من ٣٢٩ ما بين مدرس وطالب ومعيد وكادر إداري وخدمي والتي مثلت القمة في

---

(١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة: ح١، قسم١: ص١١٠.

(٢) الشيخ أبو عمر: هو محمد بن أحمد بن قدامة أخو موفق الدين الفقيه الحنبلي المشهور ولد سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م. في قرية من أعمال القدس وهاجر مع والده نتيجة استيلاء الصليبيين على المنطقة، كان من الزهاد الصالحين، يساعد الفقراء والمحتاجين، واشترك في جيش صلاح الدين عند تحريره القدس،وكان عظيم القدر عند الأيوبين ت ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٥٤٦-٥٥٣.

(٣) النعيمي، الدارس: ٢/ ١١١-١١٢.

ذلك، حيث كان يحصل كل مدرس على عشرين رطلا[1] من الخبز وخمسة أرطال من اللحم بخضرها وحوائجها وحطبها، وفي كل شهر اثنا عشر دينارا[2] وللمعيد في كل يوم سبعة أرطال خبز وغرفان طبيخا، وثلاثة دنانير في الشهر، وشيخ دار القرآن يحصل كل يوم على خمسة أرطال خبز وغرفان طبيخا، وفي الشهر ثلاثة دنانير، وللمعيد أربعة أرطال خبز وغرف طبيخ، وفي كل شهر دينار وعشرة قراريط، ولكل صبي في التلقين ثلاثة أرطال خبز وغرف طبيخ، وفي كل شهر ثلاثة عشر قيراط وحبة.

كما ضمت المستنصرية طبيبا له مشاهرة الخبز واللحم[3] مثل ما ينال النحوي وهو سبعة أرطال خبزا ورطلان لحم بآلاته (أي خضرها وحوائجها) وثلاثة دنانير في الشهر ومخصصات طلبة الطب أيضا كمخصصات طلبة النحو[4] وكان في المدرسة أربعة أئمة وقارئ قرآن وداعي لهم عشرة قراريط لكل شهر زيادة عن المشاهدة، فضلا عن فرضي عالم حساب يعطي في الشهر ثلاثة عشر قيراطا وحبة زيادة على مشاهرته، وكانت المشاهرات تضاعف في رمضان. كما كان شيخ التلقين ينال ثلاثين درهما وكذلك معيده.

أما الوالي المرتب للمدرسة، فله كل يوم عشرون رطلا من الخبز وخمسة أرطال لحم بحوائجها وخضرها وحطبها وفي كل شهر اثنا عشر دينارا وللمشرف في كل يوم عشرة أرطال خبز وثلاثة أرطال لحم مع حوائجها وخضرها وفي كل شهر سبعة دنانير وللكاتب في كل يوم خمسة أرطال خبز ورطلان لحما مع حوائجها وخضرها، وفي كل شهر خمسة دنانير، فضلا عما كان يقدم للنواب والمشرفين على أوقاف السواد والمشرفين

(١) الرطل يساوي (٤٥٢) غم أي أن كل (٢.٢) رطل يساوي كيلو واحد.

(٢) أن المشاهرات النقدية التي تقدم إلى المدرسين والطلاب وبقية الكادر كانت تختلف من عصر لآخر حسب تغير قيمة العملة وكذلك المواد العينية فقد أشار ابن الساعي إلى راتب أحمد بن مسعود التركماني الحنفي الذي تولى التدريس في مشهد أبي حنيفة والنظر في وقوفه أنه كان عشرة دنانير وثلاثين قفيزا من الحنطة. المختصر: ٩/ ٢٣٥، في حين ذكر ابن كثير أن راتب المدرس في الجامع الأموي عام ٧٧٦هـ/ ١٣٦٥م كان ثمانين درهما والمعيد عشرين درهما والطالب عشر دراهم وكاتب الغيبة عشرين درهما. المصدر السابق: ١٤/ ٣٢١ ويشير نص وقفية مدرسة سيف الدين تنكز نائب الشام المملوكي في القدس إلى أن الطلبة المنتهين كانوا ينالون عشرين درهما في الشهر ونصف رطل من الخبز يوميا والطالب المتوسط خمسة عشر درهما ونصف رطل من الخبز والطالب المبتدئ عشرة دراهم ونصف رطل من الخبز بينما كان راتب المدرس ستين درهما وثلثا رطل من الخبز والمعيد ثلاثين درهما وثلثي رطل من الخبز. العسلي معاهد: ص١٣٠.

(٣) الأشرف الغساني، المصدر السابق: ص٤٥٨-٤٥٩.

(٤) ابن الجزري، المختار: ص١٥١.

عليهم وعلى العمارة والفراشين العشرة، والبوابين الثلاثة والحمامي والمزين والقيم والطباخ وغلامه وخازن الآلات وخزانة الديوان وغلمان الأيوان والمؤذن والنفاط، وقد قدر لهؤلاء كلهم أخباز ومشاهرات[1].

أما طلبة الفقه في المستنصرية فقد كانوا ينالون مشاهرة قدرها دينار في الشهر فضلا عن الخبز والطبيخ والحلوى والفواكه والصابون والفرس والحمام وأربعة أرطال من اللحم[2] ويشير السيوطي[3] إلى أن المدرسة كانت تقدم أيضا الورق والحبر مجانا كما أشار صاحب الحوادث الجامعة[4] إلى أن المدرس زود أيضا بفرس بعدة كاملة لنقله وكان ملحقا بالمدرسة غرف للمبيت وكذلك بيوت[5].

وفي العصر المملوكي يمكن اعتبار وقفية السلطان المملوكي الأشرف برسبابي على جامعه ومدرسته نموذجا نهائيا لرواتب المدرسين والطلبة والمشرفين، ففي جامعه ينال المدرس الذي يشترط به أن تكون صوفيا حنفي المذهب ثلاثة آلاف درهم شهريا فيما ينال الطلبة الخمسة والعشرون لكل منهم (٣٠٠) درهم شهريا وهو راتب مرتفع ولكن من غير تقديم الطعام.

أما مدرسته التي تدرس فيها المذاهب الثلاثة الشافعي والحنبلي والمالكي فمخصصاتهم واحدة حيث ينال المدرس خمسين درهما وستة أرطال من الخبز[6] والطلبة ينالون عشرة دراهم وثلاثة أرطال من الخبز. وكانت بعض المدارس تقدم أيضا خدماتها المجانية للضيوف حيث يقدم لهم الطعام ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم[7].

أما في المغرب فيشير المنوني[8] إلى أن المرينين بنوا المدارس الوقفية، وكانت مدرسة السلطان المريني أبو سعيد الأول والتي أنشأها عام ٧٢١هـ/ ١٣٢١م أول مدرسة وقفية أوقف عليها الأبنية وغيرها وكانت تدرس الفقه والقرآن والحديث.

(١) الأشرف، المصدر السابق: ص٤٦٠-٤٦١.
(٢) الذهبي، المصدر السابق: ص١٥١.
(٣) تاريخ: ص٤٦١.
(٤) مجهول: ص٨١.
(٥) الأشرف، المصدر السابق: ص٤٦٢.
(٦) حجة وقف الأشرف برسباي: ص٢،١٣،٣١،٥٣.
(٧) ابن بطوطة، المصدر السابق: ص١١٩.
(٨) ورقات عن الحضارة المغربية: ص٢٨-٩٣.

ولابد من الاعتراف بأن مكتباتنا تعاني من شحة في المصادر والمراجع التي تتناول تاريخ هذه المنطقة المهمة من دار الإسلام، ولذلك لم أعثر على شيء ذا بال في هذا الصدد.

أما في الأندلس، فقد امتاز الفردوس المفقود كما يشير الذهبي[١] إلى أنه لم تكن فيه مدارس ولا أوقاف إلا أوقاف المساجد، وأكد هذا الأمر المقري[٢] عندما أشار إلى أن التعليم في الأندلس كان يتم في المسجد وبأجرة وليست هناك مدارس.

دور القرآن الكريم:

* الأماكن الأولى لتدريس القرآن الكريم:

من الطبيعي أن يعتبر المسجد، أول مكان لتدريس القرآن، وبقية علومه، وظل الأمر كذلك حتى بعد ظهور المدارس، ودور القرآن، فقد كان في جامع أحمد بن طولون في الفسطاط مشيخة يمولها الوقف لتدريس القراءات في القرن الثامن الهجري[٣].

كما اشتهرت مدارس عديدة، بوجود أقسام فيها تقوم بتدريس علوم القرآن المختلفة، مثل المدرسة الفاضلية في القاهرة، والتي كان يتولى منصب شيخ الإقراء فيها أبو محمد الشاطبي الرعيني الضرير ت ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م[٤] كما كان ملحقا بالمدرسة المستنصرية في بغداد دارا للقرآن الكريم[٥] وعرفت المدرسة المقدمية والزنجبلية ومدرسة ابن المنجا ومدرسة الشيخ أبي عمر في دمشق، بوجود قسم في كل منها لتدريس القرآن الكريم[٦].

كما اشتهرت المدرسة الظاهرية في القاهرة بوجود مشيخة للإقراء فيها، وكان التدريس فيها يتم في الإيوان الغربي، واشتهرت بشيخ القراءات كمال الدين المحلي[٧]. كما اشتهرت مدارس غرناطة في الأندلس بتدريس القرآن أيضا[٨] واشتهرت الترب

(١) تاريخ الإسلام ٦٠١-٦١٠: ص٧٦-٧٧.
(٢) نفح الطيب: ١/ ٢٠٥.
(٣) ابن الجزري، غاية النهاية: ١/ ١٦١.
(٤) المصدر نفسه: ٢/ ٢١-٢٢.
(٥) الأشرف، العسجد: ص٤٥٩.
(٦) ابن الجزري، غاية النهاية: ١/ ٤٩،٥٧، الأربلي، مدارس دمشق، مجلة المجمع: ٢٢/ ٢٤٥.
(٧) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٧٩.
(٨) ابن الجزري، غاية النهاية: ١/ ٨٣.

والمشاهد التي تضم أضرحة الملوك والسلاطين بوجود مشيخات كبرى تقوم بتدريس علوم القرآن، كما هو الحال في تربة أم الصالح في القاهرة، والتربة العادلية للملك العادل الأيوبي وتسمى مشيخة الافتاء الصغرى، وكذلك في التربة الأشرفية للملك الأشرف الأيوبي[١] كما أشار النعيمي[٢] إلى وجود دار للقرآن في التربة الأفريدونية في دمشق.

* دور القــرآن الكريــم:

يشير السهمي[٣] إلى أن الفقيه عبد الرحمن أبي ليلى[٤] خصص دارا لاجتماع القراء لتدريس القرآن، وكانت تحتوي على مصاحف، كما كانت تقدم الطعام لروادها، إلا أن النص لا يشير بصورة واضحة إلى إيقاف هذه الدار، أو أن تمويلها كان يتم عن طريق الوقف ومع ذلك يمكن اعتبارها أول دار تخصصية لتدريس القرآن الكريم أنشأت مستقلة عن المسجد وتعتبر دمشق، أكثر مدن الإسلام اشتهارا بدور القرآن الكريم، فقد أشار النعيمي[٥] إلى وجود سبع دور للقرآن الكريم فيها، كانت تؤدي دورها إلى القرن العاشر الهجري، وهي دار القرآن الرشائية، ودار القرآن الخضرية، ودار القرآن الدلامية، ودار القرآن السنجارية، ودار القرآن الصابونية، ودار القرآن الوجيهية...

وتعتبر دار القرآن الرشائية أقدمها فقد أنشأها رشا بن نظيف الدمشقي في حدود ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م[٦]. كما اشتهرت بغداد بدار القرآن البشيرية التي أنشأتها جارية المستعصم بالله وافتتحت عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م أي قبل سقوط بغداد بيد المغول بأربع سنوات، وكانت تقع في الجانب الغربي من بغداد على شاطئ دجلة[٧] وقد ظلت قائمة تؤدي ما أنشأت من أجله بعد سقوط بغداد حيث أشار ابن الجزري[٨] إلى أحد شيوخها

(١) المصدر نفسه: ١/ ٣٦٦-٣٨٦، ٢/ ١٨١، ٢٠٦،٢٤٠،٢٤٨.

(٢) الدارس: ٢/ ٢٢٣.

(٣) تاريخ جرجان: ص٢٠١.

(٤) عبد الرحمن بن أبي ليلى: من الأنصار ولد في خلافة عمر الفاروق ﷺ روى عن عثمان وعلي وأبي بن كعب والمقداد وغيرهم من أصحاب علي رضي الله عنهم. استشهد في معركة دير الجماجم مع الحجاج بن يوسف سنة ٨٣هـ/ ٧٠٢م. الخطيب البغدادي، المصدر السابق:١٠/ ١٩٩-٢٠٢.

(٥) غاية النهاية: ١/ ٧-١٨.

(٦) المصدر نفسه: ١/ ١١.

(٧) الأشرف، العسجد: ص٦٠٣.

(٨) غاية النهاية: ١/ ٥٣٥.

وهو أبو الفيض القزويني ت ٧٥٠هـ/١٣٤٦م. كما أشار صاحب الحوادث الجامعة[١] إلى دار أخرى في بغداد وهي التي أنشأها التاجر حسن بن محاسن الصرصري وأوقف عليها عدة أماكن وافتتحت عام ٦٧٧هـ/١٢٧٨م.

*** موظفو دور القرآن والرواتب والامتيازات التي كانت تقدم لهم:**

يعتبر الشيخ والمعيد والقيم والإمام والناظر والعامل فضلا عن الطلاب هم منتسبي دار القرآن الكريم وكان يشترط في الشيخ كما ورد في وقفية المشيخة الكبرى في تربة أم الصالح أن يكون أعلم أهل البلد بالقراءات[٢] ويشير النعيمي[٣] إلى دار القرآن الدلامية التي أسسها أبو العباس أحمد النصيبي ت ٨٥٣هـ/١٤٤٩م، كانت تحتوي على شيخ يستلم ١٢٠ درهم وإمام يستلم ١٠٠ درهم، وقيم ١٠٠ درهم، وستة طلاب لكل واحد منهم ٣٠ درهما وستة أيتام في الطابق العلوي منها لكل منهم ١٠ درهم في الشهر، ولهم شيخ له ٦٠ درهما، وهناك قارئ لقراءة صحيح البخاري في الأشهر الحرم الثلاثة له ١٢٠ درهما وناظر يستلم ٦٠ درهما. وعاملا له في السنة ٦٠٠ درهما و ٦٠٠ درهما للزيت وللشمع لقراءة البخاري وللتراويح ١٠٠ درهم، ولأرباب الدار ١٥ رطلا من الحلوى ورأس غنم أضحية ولكل من الأيتام جبة قطنية ومنديل، وقرر أيضا قارئ في يوم الثلاثاء من كل أسبوع، وله في الشهر ٣٠ درهما...

ويلاحظ أن هذه الدار، كانت تقوم بتدريس القرآن للكبار وللصغار على السواء فقد كان فيها طلبه أيتام، حيث يحفظون القرآن وقواعد القراءات، بينما كانت تقدم دروسا تخصصية للكبار، ويمول الجميع الوقف كما ورد في وقفية دار القرآن في المستنصرية، إن شيخ الدار كان ينال كل يوم خمسة أرطال من الخبز، وغرفان طبيخا، وفي كل شهر ثلاثة دنانير، وللمعيد أربعة أرطال خبز وغرف طبيخا، وفي كل شهر دينار وعشرة قراريط، وللصبيان ثلاثة أرطال خبر وغرف طبيخ، وفي كل شهر ثلاثة عشر قراريط وحبة[٤].

(١) مجهول: ص٤٠٦.

(٢) ابن الجزري، المصدر السابق: ١/ ٥٦٩.

(٣) الدارس: ١/ ٩-١٠.

(٤) الأشرف، العسجد: ص٤٥٩.

* أوقاف دور القرآن:

يشير النعيمي[1] إلى أن دار القرآن الصابونية في دمشق، كان موقوفا عليها قرية مدبري بالغوطة في المرج الشمالي، وقرية ترحيم بالبقاع فدادين ونصف وأربعة منادين بقرية الصويرة، وربع قرية القرعون بالبقاع، وستة فدادين في قرية كحيل بحوران، وفدان ونصف بقرية الخيارة قرب دمشق وفدان ونصف بقرية السبينة الغربية، ومزرعة في قرية بيت الآبار وربع بستان بقرية جرمانا وبساتين أخرى وخانات ومسقفات عديدة... ويلاحظ هنا بشكل ملفت للنظر التوزيع الجغرافي لهذه القرى والبساتين، بشكل يحقق أكبر ضمان ممكن، للحصول على الإيراد فضلا عن توفير العقارات اللازمة من الخانات والمسقفات التجارية لتنويع الإيراد.

* كيف كان يتم التدريس ومنح الإجازات:

يشير ابن الجوزي إلى أن الشيخ بدر الدين الدمشقي ت ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م شيخ دار القرآن في تربة أم الصالح بالقاهرة، كان يدرس بين الظهر والعصر، حيث يجلس في غاية الوقار لا يلتفت، ولا يتكلم، ولا يتنحنح، وكذلك من عنده من الحاضرين، ويشير إلى الطالب أن يقرأ، ولا يدعه يترك غنة، ولا تشديدا ولا غيره من دقائق التجويد حتى يأخذه عليه، ويرده إليه وإذا نسي وجها من وجوه القراءة يضرب بيده على الحصير فإن أفاق القارئ ورجع فيها إلى القراءة الصحيحة سكت، وإذا استمر في القراءة الخاطئة يرده، فإذا فشل سجل الخطأ وقام بالتصليح، فإذا ختم وطلب الإجازة سأله عن أخطائه التي نسيها أو أخطأ فيها في سائر الختمة، فإن أجاب عنها بالصواب منحه الإجازة، وإذا فشل أعاد عليه الختمة. وهنا نحن أمام دقة ما بعدها دقة في الامتحان التطبيقي الذي هو أهم من الامتحان النظري لاسيما في علم القراءات ويحتاج من يقومون في الوقت الحاضر بمنح الإجازات في التجويد أن يستخدموا طريقة الشيخ بدر الدين الدمشقي وتشدده لكي يتخرج على أيديهم من يكون مؤهلا مستقبلا لمنح الإجازات لمن يقرأ عنده.

دور الحديث النبوي:

هي تلك الدور التي كانت تدرس علوم الحديث النبوي المختلفة، ولعبت دورا كبيرا في تطوير هذه العلوم بشكل كبير، على صعيد الدراسات المتعلقة بشرح الأحاديث وعلوم الجرح والتعديل، وكانت بعض دور الحديث تسمى بدار السنة[2] وحمل بعضها

(١) غاية النهاية: ٢/ ١٥٩.
(٢) السمعاني، المصدر السابق: ٢/ ١٩٨، مجهول، المصدر السابق: ص٥٨، ابن الفوطي تلخيص: ٤/ ٦٤٧، الأشرف، المصدر السابق: ص٤٥٩.

اسم المدرسة[1] ويلاحظ أنه على الرغم من أن معظم دور الحديث، ظهرت مستقلة عن المدارس، إلا أن بعض المدارس، كان فيها قسم لتدريس الحديث النبوي[2] كما أشير إلى تدريس الحديث في بعض الجوامع بدعم من الوقف، فقد أوقف يوسف بن علي التاجر ت ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م على إقراء البخاري بجامع حلب وكان يقرأ بعد صلاة الفجر إلى صلاة الضحى[3].

يشير معظم المؤرخين إلى أن نور الدين زنكي، هو أول من بنى دارا للحديث في الإسلام[4] فقد بنى دار الحديث النورية بدمشق للحافظ أبي القاسم بن عساكر[5]. وإذا كان هذا الوصف صحيحا على مناطق الشام والجزيرة والعراق ومصر، فإن الشرق الإسلامي وخاصة خراسان وما جاورها قد شهد ظهور خمسة دور سبقت دار الحديث النورية فقد أشار معروف[6] إلى دار الحديث البسطامية، ودار الحديث الضبغية في نيسابور ومدرسة أبي علي الحسيني في خراسان، وقبة الحديث التميمية، ودار الحديث الجوزدانية ويعود إنشاء الدارين الأولين إلى الربع الأول من القرن الرابع الهجري. وأشار السمعاني[7] إلى دار السنة التي أنشأت في نيسابور عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م. ولم يشر معروف إلى كيفية تمويل هذه الدور، والمدارس الحديثية، وهل كانت وقفية أم لا. في حين نجد أن دور الحديث التي ظهرت في القرن السادس، فما بعده أشير إلى تمويلها بوضوح عن طريق الوقف.

اشتهرت دمشق بأنها أكثر المدن الإسلامية، التي شهدت ظهور دور الحديث الوقفية فقد أشار الأربلي[8] إلى وجود (٤٢) دار للحديث في عصره أي في القرن الثامن الهجري منها (١٦) داخل دمشق و (١٧) خارجها، وخمسة بجبل الصالحية، في حين أشار النعيمي[9] إلى وجود (١٥) دارا في عصره، ومن هذه الدور دار الحديث الأشرفية البرانية

(١) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٣٧٥، الكتبي، عيون: ٢٠/ ٢٠١.
(٢) اليونيني، المصدر السابق: ٣/ ٢٤٧، المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٧٩.
(٣) ابن حجر، الدرر: ٤/ ٤٦٦.
(٤)ابن الأثير، الباهر: ص١٧٢، القرشي، الجواهر: ٢/ ١٥٨، ابن واصل، مفرج: ١/ ٢٨٤، ابن كثير، المصدر السابق: ١٢/ ٢٨١.
(٥) السبكي، طبقات: ٧/ ٢٢٣، النعيمي، الدارس: ١/ ١٠١.
(٦) دور الحديث، مجلة المجمع العلمي العراقي: ص١٨٠.
(٧) أنساب: ٢/ ١٩٨.
(٨) مدارس دمشق: ٢٢/ ٢٤٤-٢٢٥.
(٩) دور القرآن: ص٨-٩.

بسفح قاسيون، والتي أنشأها الملك الأشرف الأيوبي[1]. واشتهرت القاهرة بدار الحديث الكاملية، والتي عرفت بالمدرسة الكاملية نسبة إلى منشأها الملك الكامل الأيوبي سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م وهي ثان دار أنشأت بعد دار الحديث النورية بدمشق[2] كما اشتهرت مدارس كثيرة بتدريس الحديث بصورة مستقلة عن الفقه، كما هو الحال في المدرسة الظاهرية، التي أنشأها الملك الظاهر بيبرس حيث جعل الإيوان الشرقي مكانا لتدريس الحديث النبوي[3] كما عرف عن المدرسة الخروبية التي أنشأها تاج الدين الخروبي، على شاطئ النيل، بأنه كان فيها تدريس

الحديث النبوي فقط[4] واشتهرت كل من خانقاه ركن الدين، وخانقاه شيخو أيضا بتدريس الحديث إلى جانب الفقه[5].

واشتهرت بغداد، بتدريس الحديث النبوي في المدرسة المستنصرية[6] كما اشتهرت الموصل بدور الحديث التي أنشأت فيها، مثل دار الحديث المهاجرية على نهر دجلة ودار الحديث المظفرية التي أقامها أبو سعيد مظفر الدين كوكبوري بالموصل، وكان فيها مساكن لسكن شيوخها ومن شيوخها البارزين الحسين ين باز ت ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م[7]. واشتهرت اربل بدار الحديث التي أنشأها مظفر الدين كوكبوري[8] ومن شيوخها محمد بن عمر المقدسي ت ٦١٦هـ/ ١٢١٩م[9].

*** وقفيات دور الحديث:**

لم تتوفر الإمكانيات الكافية للباحث للإطلاع على وقفيات دور الحديث، بصورة جيدة، وهي تعاني أصلا من قلة ما وصل إلينا منها لاسيما وقفيات العراق والجزيرة والشرق، بسبب عوادي الزمن، وخيانة بعض من تولى أمر الأوقاف في العهود المختلفة، حيث كان من مصلحة هؤلاء إخفاء هذه الوقفيات وشروط واقفيها. إن أهمية هذه

---

(١) النعيمي، الدارس: ١/ ٥٤، الكتبي، عيون التواريخ: ٢٠/ ٣٥٢-٣٥٣.
(٢) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٧٥.
(٣) اليونيني، المصدر السابق: ٣/ ٢٤٧.
(٤) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٦٨.
(٥) المصدر نفسه: ٢/ ٤١٧،٣٢١.
(٦) مجهول، الحوادث: ص٥٨.
(٧) ابن المستوفي، تاريخ اربل: ١/ ١٨٤، ابن الفوطي، تلخيص: ٢/ ٦٧٥.
(٨) ابن الشعار، قلائد الجمان: ٣/ ٢٠٦.
(٩) ابن المستوفي، المصدر السابق: ١/ ١٦٨.

الأوقاف أنها تتعلق بالأموال الموقوفة ومنتسبي هذه الدار والخدمات التي تقدم إليهم. فقد جاء في وقفية دار الحديث الظاهرية بدمشق والتي أنشأها الملك الظاهر بيبرس أن أملاكها الوقفية تتضمن "قرية الضرمان من شغل بانياس، وجميع قرية أم نرع من الجيدور، وبهمين من بيت رامة من الثغور ومزرعيتها الذراعة وشويهة، وتسعة عشر قيراطا، ونصف قيراط من قرية الأشرفية من الغوطة وبساتين أم سلام الثلاثة، وبستان الستة، وطاحونة والحمام على الشرف الأعلى الشمالي، وكرم طاعة في بلد بانياس وخان بنت ختروخان بحكر الفهادين" وأضيف إلى الوقف بعد ذلك "جميع أحد عشر سهما وربع سهم وثمن سهم من قرية الطرة من ضياع الجبيل من إقليم أذرعات من عمل دمشق"[1].

وتضمنت أوقاف دار الحديث الأشرفية البرانية، احتواءها على خمس ضياع بالبقاع، الدير من الدوير، والتليل، والمنصورة، والشرفية، فضلا عن بنت ابن النابلسي، والجنينة وحكر حارة الجوبان[2].

*** شروط الواقف في دور الحديث:**

ورد في شروط واقف المستنصرية، أن يكون هناك شيخ عالي الإسناد، وقارئان وعشرة طلبة، وأن تدرس الحديث، يتم في ثلاثة أيام في الأسبوع، هي أيام السبت والاثنين والخميس[3] وورد في شروط بعض الواقفين، طبيعة من يتولى إدارة الدار كما هو الحال في المدرسة الخروبية، المتخصصة في تدريس الحديث فقط والتي اشترط الواقف أن لا يتولى إدارتها أحد من العجم وأن يكون من العرب[4] وورد في فتوى للسبكي تتعلق في كيفية صرف ما يفضل من أموال وقف دار الحديث الظاهرية بدمشق، على المستفيدين في الدار، حيث أشارت إلى صرف جزء من الفائض على المستفيدين حسب نسبة رواتبهم ويجوز أن "يحفظ لهم ولمن يتجدد مكانهم" أي يوضع كاحتياطي لملافاة نقص الإيراد ولإدامة ريع الدار وتنميته لضمان تمويل الدار من الوقف[5].

---

(١) اليونيني، المصدر السابق: ٣/ ٢٤٧-٢٤٨.

(٢) النعيمي، الدارس: ١/ ٥٤.

(٣) مجهول، الحوادث: ص٥٨-٥٩.

(٤) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٦٩-٣٧٠.

(٥) دهمان، المدرسة الظهرية، مجلة المجمع ٢٣/ ٥٨٠.

*** العاملون في دور الحديث:**

يضم دار الحديث عادة شيخا متخصصا في الحديث (عالي الإسناد) وقارئا فضلا عن الطلبة[1] ويشترط في الشيخ أيضا كما ورد في وقفية دار الحديث الأشرفية، أن يكون "فمن اجتمع فيه الرواية، ومن فيه الدراية، قدم من فيه الرواية"[2]. ويضم الدار أيضا خازنا وقيما[3] وأحيانا أمين مكتبة[4] وممن تولى مشيخة دار الحديث الأشرفية تقي الدين بن الصلاح الشهرزوري، ثم تولاها من بعده خطيب الشام عماد الدين الأنصاري ت ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م. ثم أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م ومن شيوخها أبو الحجاج المزي ت ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م المحدث المشهور[5]. وممن تولى مشيخة دار الحديث الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن دحية ت ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن، ثم الحافظ المنذري[6] وعرف عن الحافظ المنذري أنه بقي فيها مدرسا ومعتكفا عشرين سنة[7] وتولى المحدث المشهور شرف الدين الدمياطي التدريسي في قسم الحديث في المدرسة الظاهرية بالقاهرة[8] وتولى أحمد بن سعيد الأزجي مشيخة دار الحديث في المستنصرية[9] أما على صعيد قارئ الحديث فقد أشار ابن السيوطي[10] إلى أن المحدث المشهور مجد الدين يوسف المصري الملقب بابن المهتار كان قارئ دار الحديث الأشرفية.

*** خدمات دور الحديث:**

كانت دور الحديث حالها حال المدارس والمؤسسات الوقفية الأخرى، تقدم إلى جانب العلم خدمات سخية أخرى لشيوخها وأبنائها من مأكل ومشرب ومسكن، فضلا عن رواتب نقدية سنوية، فقد أشارت وقفية المستنصرية، إلى أن شيخ دار الحديث فيها

---

(١) مجهول، الحوادث: ص٥٨.

(٢) النعيمي، الدارس: ١/ ١٩-٢٠.

(٣) الكتبي، عيون: ٢٠/ ٢٠١.

(٤) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٧٩، دهمان، المدرسة: ٢٣/ ٥٨٠.

(٥) النعيمي، الدارس: ١/ ٣٥،٢٣،٢٢.

(٦) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٧٥.

(٧) الكتبي، عيون: ٢٠/ ٢٠١.

(٨) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٧٩.

(٩) ابن حجر، الدرر: ١/ ١٣٦.

(١٠) حسن المحاضرة: ١/ ٣٨٣.

كان يحصل على ستة أرطال خبز يوميا ورطلي لحم وثلاثة دنانير في الشهر وللطلبة لكل واحد أربعة أرطال خبز وغرف طبيخ، وديناران وعشرة قراريط وللقارئ في كل يوم أربعة أرطال خبز وغرف طبيخ، وفي كل شهر ديناران[(1)].

وورد في وقفية دار الحديث الظاهرية، أن شيخ الدار كان ينال ٦٠ درهما وللقارئ ٢٠ درهما ولكل طالب ١٠ دراهم و٢٠ للخازن و٤٠ للقيم[(2)]. كما ضمت بعض الدور خزانة كتب تخصصية، كما هو الحال في دار الحديث الأشرفية بدمشق، والتي كانت تضم ضمن كتبها النادرة كتاب روح العارفين للخليفة العباسي الناصر لدين الله[(3)].

*** دور حديث وقرآن في آن واحد:**

أشير إلى وجود دور للقرآن والحديث في آن واحد، كما هو الحال في دار القرآن والحديث التنكزية[(4)] والتي كان من أوقافها (١٨) حانوتا خارج سوق القشاشين و(١٩) داخل السوق، وبحارة الإسطبل طبقتان، وإصطبل وبستان يعرف بالنيدر في زبدين وإصطبل[(5)].

مكاتب الصبيان الأيتام والفقراء:

نظرا لتكامل العملية التربوية، فإن الوقف الإسلامي، لم يركز فقط على التعليم المتوسط، والعالي التخصصي فحسب، وإنما التفت إلى التعليم الابتدائي، لاسيما إلى أولئك الذين تحول أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، دون إرسالهم إلى مكاتب التعليم، مثل الأيتام والفقراء وكانت هذه المكاتب بحق كما قال عنها ابن جبير[(6)] "من المفاخر الإسلامية".

إن عقيدتنا الإسلامية أعطت من الثمار الناضجة، على يد أبنائها البررة، ما يقف الآن متسولوا الحضارة الغربية، في جانبها الاجتماعي أمامها صما وبكما وعميا، ومن هذه الثمار مكاتب الأيتام والفقراء التي تتكفل بتعليم هؤلاء الأطفال غير القادرين على دفع تكاليف التعليم لكي ينهلوا من العلم جنبا إلى جنب مع أطفال بقية أبناء المجتمع من

---

(١) الأشرف، العسجد: ص٤٥٩.
(٢) دهمان، المدرسة الظاهرية، مجلة المجمع: ٢٣/ ٥٨٠.
(٣) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٥٤٣، المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٩٥.
(٤) النعيمي، الدارس: ١/ ١٢٣.
(٥) المصدر نفسه: ١/ ١٢٦-١٢٧.
(٦) المصدر السابق: ص١٩١.

القادرين على دفع هذه الكلفة وكانت هذه المكاتب تتكفل باحتياجات هؤلاء الأطفال من المأكل والمشرب والملبس والمصاريف النقدية كما سيظهر لاحقا.

*** ظهور مكاتب الأطفال:**

من المعروف أن الرسول ﷺ طلب من بعض أسرى بدر الذين يجيدون القراءة والكتابة أن يعلم كل واحد منهم عددا من صبيان المدينة[١] بدل دفع الفدية وورد ما يشير إلى وجود مكاتب في المدينة في عهد الراشدين لتعليم الصبيان[٢] وكانت هذه المكاتب منذ القرن الأول كما يبدو مرتبطة بالجوامع، أو مستقلة عنها، ثم عندما ظهرت المدارس والخانقاهات ودور الحديث ألحقت بها أحيانا فقد أشار ياقوت[٣] إلى أحد هذه المكاتب المستقلة عن الجوامع في نهاية القرن الأول الهجري، وهو مكتب أبي القاسم البلخي ت ١٠٥هـ/ ٧٢٣م والذي كان يتعلم فيه ثلاثة آلاف من هؤلاء الأطفال.

وأشار سبط ابن الجوزي[٤] إلى مكتب عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م في مدينة لم يشر إليها كان يضم (٩٠٠) طفل. وإن أول إشارة واضحة إلى تمويل الوقف لهذه المكاتب، وردت عندما أشار ابن عذاري[٥] إلى قيام الخليفة الأموي في الأندلس الحكم المستنصر بإنشاء مكاتب لتعليم أبناء الفقراء والمساكين والأيتام في قرطبة حيث بلغ عددها (٢٧) مكتبا كما أورد ابن الأثير[٦] بناء نور الدين الشهيد رحمه الله مكاتب للأيتام في بلاده وإنه أوقف عليها، فضلا عن استمرار تواجد الأيتام الذين كانوا يقرأون القرآن في المساجد.

لقد أنشأ الحكام وأهل الإحسان من المسلمين مكاتب السبيل والأيتام في المدن الإسلامية المختلفة، فقد أشار ابن حجر[٧] إلى أن التاجر والمفسر واللغوي عبد الرحيم بن أحمد الحلبي ت ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م أنشأ مكتبا للأيتام لتعليم القرآن الكريم في مدينة حلب مقابل المدرسة الشرفية وأوقف عليه.

---

(١) شلبي، المرجع السابق: ص٢٢.
(٢) ابن حجر، فتح الباري: ٩/ ٢٢.
(٣) معجم الأدباء: ١٧/ ٥٣.
(٤) ينظر روايته أدى ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٥/ ٦١، ينظر عن هذه المكاتب ومعلميها ابن الشعار، قلائد الجمان: ٣/ ٥٠،٦٥.
(٥) البيان المغرب:٢/ ٢٤٠،٢٤١.
(٦) الباهر: ص١٧٢، ابن كثير، المصدر السابق: ١٢/ ٢٧٨.
(٧) الدرر: ٢/ ٣٥٣.

*** أماكن إنشاء مكاتب الأطفال:**

كانت مكاتب تعليم الأطفال، إما ملحقة بالجوامع[1] أو بالمدارس[2] أو بالخانقاه[3] أو دور الحديث[4] أو مستقلة عن هذه المؤسسات جميعا[5].

*** أنواع مكاتب تعليم الأطفال:**

تنقسم هذه المكاتب عادة إلى قسم يستقبل جميع الأطفال بغض النظر عن المكانة الاقتصادية والاجتماعية، فقد أشار ياقوت[6] إلى مكتب أبي الفرج المؤدب المبارك بن سعيد الحمامي ت ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م والذي كان في محلة قراح بني رزين ببغداد ووصفه "تخرج عليه خلق كثير، وكان محمود السيرة، مشكور عند الناس، وكان ذا هيبة على الصبيان وكان أولاد الأكابر يقصدون مكتبه من جميع بغداد لما يشاع من خيره وصلاحه... وكان مكتبه حافلا مزدحما". ولم يشر ياقوت إلى كيفية تمويل هذا المكتب، وهل كان وقفيا أم لا.

أما المكاتب المخصصة للأيتام، فقد كانت كثيرة، فقد أنشأ نور الدين زنكي مكاتب للأيتام كما أوقف على الأيتام الذين يقرأون القرآن في المساجد[7] كما أنشأ مجاهد الدين قايماز[8] مكتبا للأيتام في الموصل[9] وألحق بالمدرسة المستنصرية مكتبا للأيتام أيضا[10].

كما عرف عن الظاهر بيبرس أنه بنى إلى جانب مدرسته في القاهرة في منطقة بين القصرين عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م مكتبا لتعليم الأطفال[11] وسار على منواله السلطان

---

(١) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٢٧٦، وينظر، النعيمي، الدارس: ٢/ ٤١١.

(٢) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٦٨-٣٦٩.

(٣) المصدر نفسه: ٢/ ٤٢١،٤٢٦.

(٤) النعيمي، المدارس: ١/ ٩،١٥.

(٥) ابن تغري بردي، المصدر السابق: ١٢/ ١١٥.

(٦) معجم الأدباء: ١٧/ ٥٣.

(٧) ابن الأثير، الباهر: ص١٧٢.

(٨) مجاهد الدين قايماز: هو عتيق زين الدين بن بكتكين حاكم قلعة الموصل. وقد تولى هو أيضا قلعة الموصل عام ٥٧١هـ/ ١١٧٥م كان كثير الخيرات في الموصل واربل توفي عام ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م ابن خلكان، المصدر السابق: ٤/ ٨٢،٨٤.

(٩) ابن خلكان، المصدر السابق: ٤/ ٨٣.

(١٠) مجهول، الحوادث: ص٥٩، ابن الكازروني، المصدر السابق: ص٢٦٠.

(١١) اليونيني، المصدر السابق: ١/ ٥٥١.

قلاوون حيث بنى هو الآخر مكتبا لتعليم الأيتام[1]. كما بنى الطوايشي قيماز ت ٧١٦هـ/ ١٣١٦م.

مكتبا للأيتام على باب قلعة دمشق[2] كما أنشأت خوندتتر الحجازية ابنه الناصر محمدا مكتبا للسبيل لتعليم الأطفال الأيتام[3] كما ألحق الجيبغا المظفري ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م بالخانقاه التي بناها في القاهرة مكتبا لتعليم الأيتام[4] ويشير النعيمي[5] إلى أن دار الحديث الدلامية التي أنشأت عام ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م كان فيها مكتب لتعليم الأطفال الأيتام فيه شيخ مكتب وإمام وقارئ وقيم يقدم لهم رواتب نقدية مقدارها عشرة دراهم في الشهر فضلا عن الحلوى واللحم في العيد، ولكل جبة قطنية وقميص ومنديل.

كما كان في خانقاه يونس بالقاهرة مكتب لتعليم الأطفال القرآن[6] وألحق بالجامع الأزهر عام ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م بعد تجديده مكتبا لإقراء أيتام المسلمين[7] وأنشأ الظاهر برقوق مكتبا للأيتام لتعليم القرآن بقلعة الجيل في القاهرة، وجعل عليه وقفا[8]. ومثلت حجة وقف الأشرف برسباي صورة للنظام الداخلي لمكاتب الأيتام، حيث أوصت أن يكون المؤدب ممن يمتاز بالعفة والصيانة والدين مشهورا بذلك، ويستمر التعليم في المكتب إلى أن يبلغ الطالب ويحفظ القرآن، ليستبدل بطالب آخر، وأن وصل سن البلوغ، وقد بقي عليه اليسير فيستمر في المكتب إلى أن يكمل حفظ القرآن، إذا رجي خيره ثم يستبدل به غيره...[9] ولربما سأل سائل إذا كانت مشكلة تعليم الأطفال قد حلت فماذا عن مشكلة أطفال الفقراء والجواب على هذا السؤال هو أن البعض من أهل الخير أنشأوا مكاتب للسبيل للفقراء وأوقفوا عليها، مثلما أشير إلى نور الدين زنكي والذي أنشأها في بلاده الواسعة فضلا عن صلاح الدين الأيوبي الذي أنشأ بدوره مكتبا لتعليم أبناء الفقراء والأيتام أي مختلطا[10]. كما أن خوندتتر أنشأت هي الأخرى مكتب سبيل[11] ويشير

---

(١) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٤٠٧.
(٢) ابن كثير، المصدر السابق: ١٤/ ٧٨-٧٩.
(٣) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٨٢.
(٤) المصدر نفسه: ٢/ ٤٢١.
(٥) دور القرآن: ص٨-٩.
(٦) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٤٢٦.
(٧) المصدر نفسه: ٢/ ٢٧٦.
(٨) ابن تغري بردي، المصدر السابق: ١٢/ ١١٥.
(٩) حجة وقف الأشرف: ص٣-٤.
(١٠) ابن جبير، المصدر السابق: ص٥٣.
(١١) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٨٢.

الوزان[1] إلى أن عدد المدارس العامة في فاس في زمنه بلغ (٢٠٠) مدرسة. كما أن المؤرخ ابن تغري بردي كما ورد في وقفيته إلى أنه أنشأ مكتبا للسبيل لتعليم الأطفال الفقراء والمحتاجين والأيتام[2].

*** مناهج الدراسة:**

كانت مناهج التعليم في المكاتب تقوم على حفظ القرآن الكريم، ومن ثم تعلم القراءة والكتابة بالدرجة الأولى[3] وأحيانا كان يدرس أيضا الخط العربي[4]. ومن المؤكد أنه كان يتم في هذه المكاتب تعليم العبادات، خاصة الصلاة والصوم بصورة مبسطة، استنادا إلى حديث المصطفى "مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين وإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها"[5].

*** الكادر التعليمي:**

إن كبر الكادر التعليمي وصغره يعود إلى سعة المكتب وقابليته على استيعاب الأطفال، وعلى هذا الأساس يفترض وجود مساعدين للقائم على التعليم في المكتب ففضلا عن المؤدب المعلم[6] أشير إلى وجود العريف[7] وهو ضابط الصف على الأرجح.

*** خدمات مكاتب التعليم:**

كانت هذه المكاتب تقدم خدمات سخية، فضلا عن توفير التعليم المجاني، فقد كانت تقدم كما هو الحال في مكتب الأيتام التابع للمدرسة المستنصرية الخبز واللحم والحلوى والنفقة فضلا عن السكن[8] في حين كان المكتب الذي أنشأه الظاهر بيبرس، يقدم الخبز اليومي وكسوة الصيف والشتاء[9] وكان المكتب الذي أنشأه السلطان قلاوون يقدم لكل طفل رطلين من الخبز مع كسوة الصيف والشتاء وامتاز المكتب الذي أنشأته خوند

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٢٠٣.

(٢) المصدر السابق: ص٢٠٨-٢٠٩.

(٣) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٤٢١،٢٧٦، حجة وقف ابن تغري بردي، ص٢٠٨-٢٠٩.

(٤) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٤٢١.

(٥) أبو داؤد، سنن: ١/ ١٣٠.

(٦) ابن الحاج، المدخل: ٢/ ٩١.

(٧) ابن حجر، أنباء الغمر: ص٢٩٣.

(٨) ابن الجزري، المصدر السابق: ص٤٥٩، ابن كثير، المصدر السابق: ١٣/ ١٣٩.

(٩) المقريزي، مواعظ: ٢/ ٤٠٧.

تتر الحجازية، بكونه كان يقدم خمسة أرغفة من الخبز النقــي، لكـل طفـل مـع مبلـغ مـن الفلوس مع كسوة الصيف والشتاء فضلا عن توزيع الكعـك في عيـد الفطـر واللحـم في الأضحى وطبيخ في شهر رمضان[1]. وامتاز المكتب الذي أنشــأه مجـاهد الديـن قايمـاز في دمشق، بأنه كان يصرف لكل طالب يتيم الطعام مع كسوة الصيف والشتاء وكان الواقف يزورهم ويمتحنهم بنفسه ويظهر لهم المودة الشخصية[2].

أما وقفية الأشرف برسباي فقد أكدت على أن يصرف للطلبـة الأيتـام في المكتـب (٢٠٠) درهم لكل واحد، مع كسوة الصيف والشــتاء، فضـلا عـن (٤٥) مـن الفلـوس الموقوفة لكل يتيم، في حين نال الأطفال الأيتام في جامعه في كل شهر خمسة دراهم وخمسة أرطال من الخبز وكسوة سنوية[3] ويعود انخفاض المخصصات النقدية في الجــامع عنـه في المكتب لأن أيتام الجامع تصرف لهم امتيازات طعام. أما درهما في جامعه الآخـر في رأس الحريرين في القاهرة فقد كان الأيتام ينالون درهم ونصف في الشهر مع رطلين مـن الخـبز وكسوة الصيف والشتاء ومسكن[4].

*** أوقات الدوام في هذه المكاتب ومدة الدراسة:**

ورد في وقفية ابن تغري بردي[5] أن الدوام في المكتب يبدأ من الصبــاح البـاكر إلى العصر في كل أيام الأســبوع سـوى الثلاثـاء والجمعـة وأيـام الأعيـاد والمواسـم. ويشـير الوزان[6] إلى أن مدة الدراسة لأغراض الحفظ كانت ســنتين أو ثـلاث، ثـم يبـدأ بتعليـم القراءة والكتابة بعد السادسة، في حين تشـير وقفيـة الأشـرف برسـباي[7] إلى أن التعليـم لحفظ القرآن الكريم يستمر إلى أن يحفظ الطالب عند بلوغه، ثم يستبدل بطالب آخر.

إيقـاف الكــتب:

أجاز الفقهاء إيقـاف الكتـب، نظـرا لمـا تتمتـع بـه الكتـب مـن أهميـة في المنظـور الإسلامي قرآنا وسنة، وتعاون الفقهاء، وموقفو الكتب في إيجاد شــروط شـرعية ملزمـة،

(١) المصدر نفسه: ٢/ ٣٨٢.

(٢) ابن كثير، المصدر السابق: ١٤/ ٧٨-٧٩.

(٣) حجة وقف الأشرف: ص٣-٤.

(٤) المصدر نفسه: ص٥٣.

(٥) المصدر السابق: ص٢٠٨-٢٠٩.

(٦) المصدر السابق: ١/ ٢٠٣.

(٧) حجة وقف: ص٣-٤.

تعبر عن وجهة نظر الواقف، والتي يجب أن تحترم، من قبل أولياء الأمر، ومن قبل إدارة المكتبة، والمستفيدين منها.

- **شروط الواقف:**

اشترط بعض الواقفين شروطا خاصة في خزانات كتبهم، كأن توضع كتبهم في مسجد بعينه أو مدرسة أو تربة (مشهد)[1] وقد يشترط الواقف كما ورد في وقفية الخاتون بنت بركة خان زوجة الظاهر بيبرس ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م في خزانة الكتب الظاهرية أن لا يخرج شيء من ذلك من المدرسة، بل من أراد الانتفاع به ينتفع بالمدرسة[2] أي منع خروج الكتاب خارج مكتبة المدرسة من أجل المحافظة عليه. في حين ورد في شروط المستنصر بالله في خزانة كتب المستنصرية، أنه يجوز إخراجها لمن عساه يرغب في شراء شيء منها[3] وجاء في شرط ابن خلدون في وقفية كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر، إنه لا يجوز إعارة الكتاب إعارة خارجية، إلا إذا كان المستفيد، شخصا ذا سمعة جيدة وأمينا وشريطة أن يدفع رهنا مناسبا، وأن يرد الكتاب في مدة أقصاها شهران[4].

وقد عمل السيوطي، على الحد من شروط الواقفين، الذين كانوا يشترطون منع إخراج الكتب الموقوفة من مكانها، وأن يؤول هذا الشرط، وأن يستنبط منه ما يسمح باستثناء ما شرطه الواقف، والإفتاء بجواز العارية، لمن هم جديرون بحفظها وصونها، ويظهر أن الذي دفعه إلى ذلك، هو رغبته في الاستفادة من المكتبة، الموجودة في المدرسة المحمودية في القاهرة، والتي كان من شروطها أن لا يخرج منها كتاب، فألف السيوطي رسالة (بذل المجهود في خزانة محمود)، وأفتى بجواز إخراج الكتاب منها، وكانت فتواه تحدد أنه لا يستعار من هذه الخزانة، إلا ما لا يتيسر وجوده في غيرها، وأن لا يمكث الكتاب عند المستعير إلا بقدر ما يقضي حاجته منه في العادة[5].

ومع ذلك فقد لا يحترم أحيانا شروط الواقف، إذا كانت صعبة التنفيذ، فقد أشار اليونيني[6] مثلا إلى أن أبا شامة اشترط شروطا صعبة التطبيق عمليا في مكتبته فلم يعتد بها بعد وفاته.

---

(١) ابن المستوفي، المصدر السابق: ١/ ٣٢٤، وينظر المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٩٥.

(٢) اليونيني، المصدر السابق: ٤/ ٢٠٤.

(٣) ابن الكازروني، المصدر السابق: ص٢٦٠.

(٤) حمادة، المكتبات: ص١٦١.

(٥) إبراهيم، دراسات في الكتب: ص٦١.

(٦) المصدر السابق: ٢/ ٣٦٧-٣٦٨.

- **أماكن المكتبات الأولى:**

- المساجد:

من الطبيعي أن تكون المساجد، والجوامع أول الأماكن التي احتضنت الكتب الوقفية، ابتداء من المصاحف الكريمة، وقد شاهد العبدري[1] عند توقفه في جامع القيروان كتبا موقوفة تعود إلى عصر الفقيه المالكي المشهور سحنون ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م مما يدل على كفاءة نظام وقف الكتب، على صعيد الحفظ والصيانة، عبر مئات السنين. وهذا مما قد لا يتوفر الآن في كثير من مكتبات العالم الثالث، رغم التخصص والتطوير، وتضخم الكادر الإداري والخدمي[2].

- دور العلم:

ظهر في القرن الرابع الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ما يسمى بدور العلم، والتي ظهرت في دار الإسلام في العراق لأول مرة.

دار علم نصر بن سابور[3]: يشير ابن الجوزي[4] إلى أن الوزير البويهي أبا نصر سابور بن أردشير بنى دارا في الكرخ في محلة بين السورين[5] عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م وسماها دار العلم، وقد أوقفها على أهل العلم، ومولت من خلال أوقاف كثيرة ونقل إليها كتبا بلغت عشرة آلاف مجلد. ويشير ابن الأثير[6] إلى أن هذه الكتب كانت تحتوي على (٤٠٠) صنف من العلوم، وكانت تحتوي ضمن ما تحتويه على مائة مصحف بخط ابن مقلة[7].

---

(١) المصدر السابق: ص٦٥، وينظر للمزيد عن خزانات الجوامع، السبكي، طبقات: ٥/ ٦٦، سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٩٨، ياقوت، معجم الأدباء: ١٣/ ٣٣-٣٤، ١٧/ ١٨٥.

(٢) إن الخلل الآن هو في المطالع، وأمين المكتبة وموظفيها بدرجات متفاوتة فمعظم الطلاب غير متحمسين للمطالعة، وأصول البحث، فلا يحترمون الكتاب، ولا يحافظون عليه، بل وقد يعبثون به، ومعظم أمناء المكتبات غير متخصصين، كما لا يملكون الرغبة في العمل الجاد، نتيجة الشعور بالغبن في الأجور.

(٣) سابور بن أردشير: وزير السلطان البويهي بهاء الدولة بن عضد الدولة، ولد ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م وتوفي ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م وكان من كبار وزراء البويهيين قيل عنه جمع بين الكتابة والدراية. ابن خلكان، المصدر السابق: ٢/ ٣٥٤.

(٤) المنتظم: ٧/ ١٧٢، ٨/ ٢٢، ابن الأثير، الكامل: ٧/ ٣٢٤.

(٥) بين السورين: محلة كبيرة من أحسن محلات بغداد، البغدادي، مراصد الإطلاع: ١/ ٢٤٥.

(٦) الكامل: ٨/ ٨٨.

(٧) بني مقلة: من أشهر أبناء هذه الأسرة التي اشتهرت بإجادة الخط العربي والإبداع فيه أبو علي محمد بن علي الذي تولى الوزارة للمقتدر والقاهر والراضي مات مسجونا عام ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م. ابن الجوزي، المصدر السابق: ٦/ ٣٠٩-٣١١.

وفيما يتعلق بالخدمات العلمية، التي كانت تقدمها هذه الدار، نجد أنها على الأغلب كانت تقوم بعملين مزدوجين، فهي تقدم خدمات مكتبية لطلبة العلم، عبر إتاحة مطالعة الكتب النادرة والتخصصية، كما أنها كانت تقوم بدور تدريسي محدود، وهذا ما دفع ابن كثير[1] إلى القول "وأظن أن هذه أول مدرسة وقفت على الفقهاء، وكانت قبل النظامية بمدة طويلة". ولا أدري هل كانت هذه الدار، تقدم ضمن ما تقدمه من خدمات، سهرات لهو بريئة تغني فيها الجواري في العشيات، فقد أشار أبو العلاء المعري الشاعر المشهور إلى ذلك عند تواجده بالدار.

وغنت لنا في دارسابور قينة من الورق مطراب الأصائل صيهال[2]

وكانت هذه الدار تحتوي على كادر إداري، وخدمي للإشراف على الكتب التي فيها[3] وأشار السمعاني[4] إلى أحد خزنة دار العلم هذه وهو محمد بن علي بن اسحق الكاتب ت ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م. كما أن هذه الدار احتضنت الشاعر المشهور المعري أثناء قدومه إلى بغداد حيث آثر الإقامة فيها[5]. ومن المشاهير الذين أشرفوا على إدارتها أبو القاسم المرتضى الموسوي نقيب النقباء[6].

لقد تعرضت هذه الدار إلى نهاية مفجعة عام ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م حيث احترقت بتعمد عند دخول السلطان السلجوقي طغرلبك بغداد، ونهب قسم من كتبها، وبدل أن يقوم وزير السلطان عميد الملك الكندري بحمايتها، فقد شارك في عملية النهب المنظمة من خلال انتخابه للكتب التي سطا عليها مما جعله هدفا مشروعا لتنديد وشجب العلماء والعامة على السواء ببغداد[7].

دار علم جعفر بن حمدان الموصلي: يشير ياقوت[8] إلى أن جعفر كان من كبار علماء وأدباء الموصل متخصصا في علوم كثيرة، وله منزلة لا يدانيها أحد على صعيد

---

(١) المصدر السابق: ١١/ ٣١٢، ياقوت، معجم الأدباء: ١٤/ ٩٨، وينظر كنار، بغداد في القرن الرابع، المورد، العدد ١٩٧٣: م٢: ص٢١: ديوان، المكتبات في العالمين العربي الإسلامي: ص٢٨٦.
(٢) التبريزي وآخرون، شرح سقط الزند: ٣/ ١٣٣٩.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم: ٧/ ١٧٢.
(٤) المصدر السابق: ٥/ ١٤.
(٥) التبريزي وآخرون، شرح سقط الزند: ٣/ ١٣٣٩، ٤/ ١٦٣٣،جواد، سوسة، دليل: ص١٤٦-١٤٧.
(٦) الصابي، الهفوات: ص١٤٣.
(٧) ابن الأثير، الكامل: ٨/ ٨٨.
(٨) معجم الأدباء: ٧/ ١٩١-١٩٣.

العلم في الموصل وقد توفي عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م وكانت له دار في الموصل، تحتوي على خزانة كتب في جميع العلوم، قد أوقفها على طلبة العلم، يباح دخولها للجميع، كانت تقدم لطلبة العلم لاسيما المحتاجون منهم الورق والحبر والنقود، وتفتح أبوابها طيلة أيام الأسبوع، وكانت تقوم بدور تعليمي فضلا عن دورها كمكتبة على صعيد إتاحة مطالعة الكتب، وكان واقفها يقوم بتدريس كتبه ومؤلفاته المختلفة لاسيما في الأدب، فضلا عن الحكايات والنوادر وطرفا من الفقه، فقد وصفه ابن النديم[١] بقوله "حسن التأليف والتصنيف متفقه على مذهب الشافعي، وكان شاعرا أديبا ناقدا للشعر كثير الرواية وله في الفقه عدة كتب...".

دار علم الشريف الرضي: يشير ابن عنبة[٢] إلى أن الشريف الرضي[٣] أنشأ دارا للعلم كانت تحتوي على مكتبة قيمة، وكان طلبة العلم يترددون إليها للمطالعة وطلب العلم، وكانت هذه الدار توفر لروادها كل ما يحتاجون إليه، ولغرض تسهيل استفادتهم من الكتب تم تزويد الطلبة المواظبين على الحضور نسخا من مفاتيحها حتى لا يحتاجوا إلى الالتزام بدوام الخازن المخصص للإشراف على الكتب، وكانت تفتح أبوابها ليلا ونهارا وكانت تمول عن طريق أوقافها.

دارا علم البصرة: يشير ابن النديم[٤] إلى أن الدار الأولى أنشأها أبو علي بن سوار الكاتب صديق ابن النديم، والذي اشتهر بشغفه بالعلوم وحبه لها، وقد احتوت على كتب نفيسة، ولا يشر إلى عددها، وقد وصف ابن كثير[٥] هذه الدار بأنه "لم ير في الإسلام مثلها" وكانت توفر لروادها تسهيلات كبيرة، على صعيد الورق والحبر فضلا عن المطالعة وقد احترقت هذه الدار بتعمد في فتنة الساحر المدعو (بليا) والذي أدعى أنه المهدي المنتظر عام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م[٦]. ويبدو أن أوقافها اختفت أيضا. أما الدار الثانية فهي دار الوزير أبو منصور بن شاه مروان وكانت دارا وقفية تحتوي على نفائس الكتب وقد احترقت مع الدار الأولى في فتنة بليا أيضا[٧].

---

(١) الفهرست: ص١٤٩.
(٢) عمدة الطالب: ص١٨٥.
(٣) الشريف الرضي: هو محمد بن الحسين العلوي، لقبه بهاء الدولة البويهي بالرضي، كان نقيب الطالبين، عالما فاضلا شاعرا ت ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م، ابن الجوزي، المنتظم: ٧/ ٢٧٩-٢٨٣.
(٤) المصدر السابق: ص١٣٩.
(٥) المصدر السابق: ١٢/ ١٣٦.
(٦) ابن الجوزي، المصدر السابق: ٩/ ٥٣، ابن كثير، المصدر السابق: ١٢/ ١٣٦.
(٧) ابن الأثير، الكامل: ٨/ ١٥٣.

دار علم الري: أشار إلى هذه الدار الجغرافي البشاري[1] بقوله "دار الكتب إلا حدوثه" من غير تفاصيل مما يدل على شهرتها على صعيد عدد الكتب الموجودة فيها ونوعيتها، فضلا عن الخدمات التي كانت تقدمها لمرتاديها والله أعلم.

دار علم غرس النعمة: بنى هذه الدار أبو الحسن غرس النعمة محمد بن هلال الصابي ت ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م عام ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م في شارع ابن أبي عوف في بغداد[2].

ويشير ابن الجوزي[3] إلى أنها كانت تضم نحو ألف كتاب[4] وكان السبب الذي دعا غرس النعمة إلى إنشائها، هو تعرض دار سابور بن أردشير إلى الحريق، فبعثه الخوف على ذهاب العلم إلى إيقاف هذه الدارن وكان ممن تولى منصب الخازن فيها ابن الأقساسي العلوي[5]. وكان العلماء يترددون إلى هذه دار لسنين كثيرة، وقد حل وقفها وبيعت كتبها بعد إنشاء دار الكتب في المدرسة النظامية، على يد منشئها.

وقد أشار الصابي[6] إلى وجود عائلة ديليمية كانت تقوم بمهمة الخدمة والحراسة في هذه الدار. وكان يتولى الإشراف عليها على الأرجح منشؤها.

دار علم هرمز: أنشأ هذه الدار أيضا أبو علي بن سابور، على غرار دار العلم التي أنشأها في البصرة، وكانت كشقيقتها في البصرة تقدم الخدمات المجانية على صعيد المطالعة، وتوفير مستلزمات النسخ من ورق وحبر وغيرها[7].

دار العلم الفاطمية في القاهرة[8]: تعد هذه الدار بحق أهم دور العلم الوقفية في

---

(١) أحسن التقاسيم: ص٣٩١.

(٢) الصابي، الهفوات: ص١٧٥.

(٣) المنتظم: ٨/ ٢١٦، ابن كثير، المصدر السابق: ١٢/ ٨٥.

(٤) أشار ابن الجوزي في موضع آخر إلى أن عدد كتبها كان أربعمائة. المنتظم: ٩/ ٤٢ وينظر ابن الفوطي، تلخيص: ٢/ ١١٦٣ في حين أشار ابن كثير إلى أن عدد الكتب كان أربعة آلاف مجلد في فنون العلم، ويبدو أن الرقم الذي أورده ابن كثير صحف من أربعمائة إلى أربعة آلاف، المصدر السابق: ١٢/ ١٣٤.

(٥) ابن الجوزي، المصدر السابق: ٩/ ٤٢، وهو أبو طاهر بن أبي قيراط العلوي الصابي، الهفوات: ص١٧٥.

(٦) الهفوات: ص١٧٥.

(٧) البشاري، المصدر السابق: ص٤١٣.

(٨) لابد من التفريق بين دار العلم، وخزانة الكتب الفاطمية، فإن المقريزي يشير إلى أن الأخيرة كانت خاصة بالخلفاء الفاطمين، والمقربين منهم، وكانت تضم كنوزا نادرة في العلوم الشرعية والعقلية، وكانت تضم ما بين مائتين ألف إلى مليون وستمائة ألف كتاب، مواعظ: ١/ ٤٠٨-٤٠٩ وكانت نهايتها محزنة فقد تعرضت منذ عهد المستنصر إلى عمليات السطو والنهب وازداد الأمر سوء بعد انتهاء الخلافة الفاطمية فقد وزعت كتبها وتبعثرت. ينظر عن مصيرها أبو شامة، الروضتين: ص٥٠٨، ٦٨٦-٦٨٧، البنداري، سنا البرق: ص٢٣٤-٢٣٦.

الإسلام، ويشير المقريزي[1] إلى أن الحاكم بأمر الله الفاطمي أنشأ هذه الدار عام ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م وكانت تقع بجوار القصر الغربي، وقد احتوت على مكتبة ضخمة ونفيسة، تزودت بها من مكتبات القصور الفاطمية، في شتى العلوم والآداب، والخطوط النادرة. وكانت مكتبة عامة يباح للناس كافة دخولها، والاستفادة من خدماتها مطالعة ونسخا، حيث وفر فيها الحبر والأقلام والورق والمحابر مجانا. كما كانت تمارس عملية التعليم من خلال وجود عدد كبير من العلماء، في شتى التخصصات، وكانت المناظرات تجري بين يدي الخليفة الحاكم. ويكرم الجميع.

ويشير ابن خلكان[2] إلى أن هذه المناظرات كانت في الآداب لاسيما مناظرات العالم اللغوي جنادة الأزدي، والحافظ عبد الغني المصري، والمقرئ علي بن سليمان. وكانت الأوقاف تمول احتياجات هذه الدار، وهي عبارة عن مناطق في الفسطاط ثبتت عند قاضي القضاة مالك بن سعيد[3] كما كانت أجزاء من أوقاف الجامع الأزهر وجامع راشدة موقوفة أيضا على دار الحكمة[4] وقد بلغت نفقات هذه الدار كما يشير المقريزي[5] مبلغ مائتين وسبعة وخمسين دينارا وزعت كالآتي:

ثمن الحصر العبداني وغيره من أثاث الدار عشرة دنانير، والورق للنساخ تسعون دينارا والماء اثنا عشر دينارا، والورق والحبر والأقلام اثنا عشر دينارا، والستائر دينار وترميم الكتب وورقها وتجليدها اثنا عشر دينارا، ولبود الفرش في (السرائر) مع الطنافس تسعة دنانير، كما ألحق فيها خزان وفراشون كانوا يستلمون ثلاثة وستين دينارا. للخازن ثمان وأربعون دينارا، وللفراش خمسة عشرا دينار وخمسة عشر دينارا للماء، فضلا عن القوام والخدم الآخرين، ويبدو هذا الرقم متواضعا ولربما كان لسنة من السنوات وليس ما كان يصرف بصورة عامة، أو الأمر يعود إلى تصحيف النساخ والله أعلم.

لقد ظلت دار العلم الفاطمية تؤدي دورها العلمي بتمويل من أوقافها، إلى أن أبطلها الوزير الأفضل بن أمير الجيوش عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م ثم أمر الخليفة الأمر بأحكام الله ٤٩٥-٥٢٤هـ/ ١١٠١-١١٢٩م وزيره البطائحي بإعادة فتحها، فافتتحت في مكان آخر[6] ويبدو أن أمرها انتهى بعد ذلك، حالها حال خزانة الكتب الفاطمية.

---

(١) مواعظ: ١/ ٤٥٨-٤٦٠.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٣٧٢.
(٣) المقريزي، مواعظ: ١/ ٤٥٩.
(٤) المصدر نفسه: ١/ ٢٧٤.
(٥) المصدر نفسه: ١/ ٤٥٩.
(٦) المصدر نفسه: ١/ ٤٥.

* **مكتبات المدارس:**

تنافس منشؤو المدارس الوقفية، في تزويد مدارسهم بخزانات كتب نادرة ومتنوعة، وفي شتى العلوم والآداب.

١. خزائن العراق:

خزانة النظامية: حرص منشؤها نظام الملك على تزويد مدرسته بمكتبة تتناسب وأهداف هذه المدرسة التي أولاها نظام الملك اهتماما استثنائيا إلى جانب مدارسه الأخرى، بسبب وقوعها في قلب دار الإسلام بغداد. فقد أشار ابن الجوزي(١) إلى أنها كانت تضم نحو ستة آلاف مجلد، ومن نفائس كتبها كتاب غريب الحديث لإبراهيم الحربي، بخط أبي عمر بن حيوية في عشر مجلدات، وكان قد أهداه إلى نظام الملك عبد السلام بن محمد القزويني المعتزلي المفسر(٢). وقد شهدت هذه المكتبة نقلة نوعية، وعددية في محتوياتها، عندما أمر الخليفة الناصر لدين الله عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م بعمارة خزانتها، ونقل إليها ألوفا من الكتب النفيسة(٣) وقد أشار سبط ابن الجوزي(٤) إلى عدد الكتب التي أضافها الناصر بأنه عشرة آلاف كتاب، منها كتب بخط كبار الخطاطين المشهورين. وقد ظلت هذه المكتبة تقدم خدماتها العلمية الجليلة إلى ما بعد سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م فقد أشار ابن الفوطي(٥) إلى وفاة أحد معيدي النظامية ومدرس النحو فيها وخازن كتب الخزانة الناصرية في السنة المذكورة.

خزانة المستنصرية: يشير الذهبي(٦) إلى أن المستنصر بالله حمل إلى هذه الخزانة كتبا قيمة من سائر العلوم ما حمل على مائة وستين جملا سوى ما حمل بعد ذلك. وكان يزورها بنفسه. ويشير ابن عنبة(٧) إلى أن عدد كتبها بلغ ثمانين ألفا من المجلدات وكانت تزود بالكتب الوقفية بصورة مستمرة. فقد أشار ابن الفوطي(٨) إلى أن أحد معيدي المدرسة المستنصرية الحسن بن محمد الطبسي كانت له كتب نفيسة أكثرها بخطه أوقفها على خزانة

---

(١) صيد الخاطر: ص٣٦٧.
(٢) السبكي، طبقات: ٥/ ١٢١.
(٣) ابن الأثير، الكامل: ٩/ ٢٢٩، الأشرف، العسجد: ص٢٢٤-٢٢٥.
(٤) المصدر السابق: ٨/ ٤٢١-٤٢٢.
(٥) تلخيص: ٢/ ٩٩٨.
(٦) تاريخ الإسلام أحداث ٦٣١-٦٤٠: ص٦-٧، العسجد، المصدر السابق: ص٤٥٨.
(٧) المصدر السابق: ص١٨٢، معروف، نشأة المدارس: ص٢٦.
(٨) تلخيص: ٣/ ١٤٩.

كتب المدرسة وشرط فيها شروط المستنصرية واستفاد منها الناس. ومع الأسف لم تشر المصادر إلى طبيعة شروط واقف المستنصرية في خزانة كتبه. وقد ظلت هذه الخزانة تقوم بدورها العلمي إلى الغزو المغولي الثاني على يد تيمورلنك حيث لم يعد لها أثر بعد ذلك[1].

خزانة المدرسة البشيرية: امتازت المدرسة البشيرية التي أنشأها المستعصم بالله سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م بأنها احتوت على خزانة كتب أشير إلى أن كتبها حملت في (٣٦) صندوقا، وكانت مكتوبة بالخطوط المنسوبة والنسخ المضبوطة[2] ولم تشر المصادر إلى معلومات محددة عن عدد كتبها بالضبط أو كيفية تقديمها لخدماتها ولا مصيرها بعد الغزو المغولي الأول.

٢. خزائن مدارس مصر:

خزانة المدرسة الفاضلية: حرص القاضي الفاضل على تزويد مدرسته بمكتبة ضخمة كانت مما حصل عليه من المكتبات الفاطمية، لاسيما من دار الحكمة ومن مكتبة آمد[3] حيث يشير سبط ابن الجوزي[4] إلى أنه أوقف على خزانة مدرسته مائة ألف كتاب.

خزانة المكتبة الظاهرية: يشير المقريزي[5] إلى أن الظاهر بيبرس بعد أن بنى مدرسته في القاهرة بين القصرين، جعل فيها خزانة كتب جليلة ولم يشر إلى عدد كتبها. وقد أضيفت إليها كتب جديدة سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م[6].

خزانة مدرسة الأستادار محمد بن علي السودوني ت ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م: يشير ابن حجر[7] إلى أن السودوني قد اشترى كتب الفقيه والقاضي الشافعي المشهور ابن جماعة، في أيام الظاهر برقوق، وأوقفها على مدرسته خارج باب زويلة، وكانت كثيرة جدا، مما

---

(١) معروف، تاريخ: ١/ ٥٠.
(٢) الأشرف،العسجد، المصدر السابق: ص٦١٠.
(٣) آمد: من أعظم مدن ديار بكر في منطقة الجزيرة الفراتية، وأكثرها شهرة، ياقوت، معجم البلدان: ١/ ٥٦-٥٧.
(٤) المصدر السابق: ٨/ ٤٧٣، المقريزي، مواعظ: ٢/ ٣٦٦.
(٥) السلوك: ج١، قسم٢: ص٥٠٤.
(٦) اليونيني، ذيل: ٤/ ٢٠٤.
(٧) الدرر: ٤/ ٣٢٩.

يدل على أنها ضخمة، وكانت على الأرجح تضم خيرة الكتب التخصصية في العلوم الشرعية.

خزانة المدرسة المحمودية: وصف المقريزي[1] خزانة هذه المدرسة التي أنشأها الأمير جمال الدين المحمودي ت ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م في القاهرة بأنه (لا يوجد اليوم في ديار مصر والشام مثلها وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل صنف...) مما يدل على عظمة هذه المكتبة وإمكانياتها.

٣. خزائن المدينة المنورة:

رغم الإشارة إلى العدد الكبير من مدارس الحرمين الشريفين، والتي كانت على الأرجح تحتوي كل منها على خزانات كتب وقفية، إلا أن المصادر التي اطلعت عليها حسب إمكاناتي المتواضعة لم تشر إلا إلى مكتبة الأشرف قايتباي، حيث أشار العيدروسي[2] إلى أن السلطان المذكور أوقف خزانة كتب في المدينة المنورة، وجعل عليا بن عبد الله السمهودي[3] ناظرا عليها من غير أن يورد التفاصيل عن كتبها وأصنافها.

٤. خزائن دور الحديث:

احتوت دور الحديث على خزائن كتب كانت ترفد طلبة العلم وأساتذة الدار بما يحتاجونه في تعزيز علومهم، مثال ذلك خزانة دار الحديث الأشرفية التي كانت تضم كتبا نادرة ونفيسة مثل كتاب (حمل الأصول الدالة على الفروع) لأبي رجاء الأسواني، الفقيه الشافعي ت ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م[4]. وكتاب (روح العارفين) للناصر لدين الله[5].

٥. خزائن الأربطة:

أشير إلى وجود خزانات كتب وقفية، في بعض الأربطة، مثل رباط المستجد[6] والرباط الذي أنشأه الناصر لدين الله سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م في الحريم الطاهري[7] ورباط

(١) مواعظ: ٢/ ٣٩٥.
(٢) النور السافر: ص٦٠.
(٣) السمهودي: هو علي بن عبد الله، ولد في قرية سمهود من قرى مصر، طلب العلم واجتهد فيه واستقر في المدينة المنورة فأصبح عالمها وفقيهها ومؤرخها ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م. ابن العماد، المصدر السابق: ٨/ ٥٠-٥١.
(٤) السبكي، طبقات: ٣/ ٧٠.
(٥) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٥٤٣.
(٦) ابن الفوطي، تلخيص: ٣/ ١٧٨.
(٧) الأشرف، المسجد: ص٢٢٤.

ابن النيار الأسدي، بقراح ابن أبي الشحم، والذي كان يضم كتبا نفيسة، وخطوطا منسوبة، وكان لها ناظرا[1] وأشار الفاكهي[2] إلى أن رباط إقبال الشرابي الذي أنشأ سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م في مكة المكرمة، كان يحتوي على كتب وقفية.

٦. خزائن الخانقاهات:

اشتملت بعض هذه الخانقاهات، بدورها على خزانات عامرة، كما هو الحال مع الخانقاه الصلاحية، التي أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي في القاهرة[3]. وخانقاه السميساطي في بغداد[4].

٧. خزائن الترب (المشاهد):

أشير في هذه الصدد إلى مكتبة الملك الأشرف الأيوبي الملحقة بضريح أمه[5] كما أشير إلى أن التاجر محفوظ بن معتوق البغدادي أوقف كتبه على تربته بدمشق[6] كما أوقف ياقوت الحموي كتبه على مشهد الزبدي ببغداد[7] وقد كلف المؤرخ ابن الأثير بتنفيذ هذه الوصية[8].

٨. المكتبات الوقفية الخاصة:

هناك من الفقهاء والأدباء من أوقف مكتبته الخاصة للصالح العام، فقد أوقف القاضي أبو الفرج بن البقاء خزانة كتبه في مدينة البصرة والتي لم ترد عنها معلومات كافية سوى نهبها عام ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م[9] وخزانة نجاح بن عبد الله التركي أمير الجيوش، في عهد الخليفة الناصر لدين الله ت ٦١٥هـ/ ١٢١٨م والتي أوقفت بعد موته[10] ويشير ابن

---

(١) ابن الفوطي، تلخيص: ١/ ١٣٣.
(٢) المنتقى: ٢/ ١٠٨.
(٣) ابن حجر، أنباء الغمر: ص٢٤٦.
(٤) ياقوت، معجم الأدباء: ١٨/ ٢١٥.
(٥) النعيمي، الدارس: ٢/ ٢٩٥.
(٦) المصدر نفسه: ٢/ ٢٢٧.
(٧) ابن المستوفي، تاريخ اربل: ١/ ٣٢٤.
(٨) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب: ١/ ٣٣٩.
(٩) ابن الأثير، الكامل: ٨/ ٢٣٤.
(١٠) ابن الفوطي، تلخيص: ١/ ٣٧٤.

حجر[1] إلى أن المحدث والفقيه علي بن الحسين المصري ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م أوقف مكتبته على طلبة العلم وأكثرها مكتوبة بخطه ومكتبة الوزير ابن هبيرة ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م التي أوقفها على طلبة العلم وكانت تحتوي على كتب نادرة، مثل كتاب البستان في الدقائق لابن الليث السمرقندي، بخط منسوب وكان مذهبا[2].

ولابد من الإشارة أخيرا إلى وقف يتعلق بالكتب والمكتبات، وهو وقف أدوات الكتابة، كالحبر والكاغد، ومواد الكتابة الأخرى، على طلبة العلم، فقد أشار ياقوت[3] إلى أن أحمد بن عبد الملك النيسابوري ت ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م كان يتولى أوقاف المحدثين من الحبر والكاغد وغيرها ويقوم بتفريقها على طلبة الحديث، وهي صورة أخرى من صور الوقف العلمي المشرق، والتي نحتاج إليها اليوم أكثر من أي وقت مضى مع اختلاف في المواد والأساليب.

- **موظفو المكتبات الوقفية:**

يلاحظ أن المكتبة الإسلامية، كانت تحتوي على كادر مكتبي تخصصي وإداري وخدمي، كما هو الحال في الوقت الحاضر، لتمكينها من أداء دورها التعليمي والثقافي، فهناك المشرف والخازن والمناول[4] فضلا عن الخدم والحراس[5].

أ. المشرف:

كانت مهمة المشرف، الاشراف الإداري، على أداء موظفي المكتبة، وبقية كوادرها لواجباتهم، وتحقيق شروط الواقف في المكتبة، ولذلك كان يختار لهذا المنصب أناس ممن اشتهروا بالعلم والأدب، فضلا عن الأمانة والكفاءة، ومن المشاهير الذين تولوا هذا المنصب، أبو عبد الله بن حمد الذي كان مشرف دار العلم في بغداد[6]، وعمر بن عبد الله الدباس ت ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م مشرف خزانة المدرسة النظامية[7] وكذلك علي بن محمد النيار، ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م[8] وتولى هذا المنصب في خزانة المدرسة المستنصرية ببغداد

---

(١) الدرر: ٣/ ٤٢.
(٢) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٢٣٦.
(٣) معجم الأدباء: ٣/ ٢٢٥.
(٤) مجهول، الحوادث: ص٥٦.
(٥) الصابي، الهفوات: ص١٧٥.
(٦) المصدر نفسه: ص١٤٣.
(٧) ابن الفوطي، تلخيص: ٤/ ٨٣٢.
(٨) الأشرف، المصدر السابق: ص٦٣٧.

العماد علي بن الدباس عند افتتاحها[1] والمؤرخ ابن الفوطي[2] وفي مصر نجد أن المؤرخ والكاتب القلقشندي ت ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م[3] كان مشرفا على خزانة المدرسة الأشرفية التي بناها الأشرف برسباي[4].

ب. الخازن[5]:

هو الموظف المختص بالإشراف على الكتب من الناحية الفنية والعلمية فضلا عن حفظها وصيانتها، فهو المدير التنفيذي للمكتبة[6]، وقد جاء في وثيقة السلطان المؤيد شيخ ما يوضح مسؤوليات الخازن "خازن المصاحف أمين ثقة يحفظ المصاحف والربعات الشريفة، وكتب العلم الشريف التي تكون، بخزانة الكتب بالجامع المذكور... ولا يخرج من الجامع المذكور كتابا واحدا ولا أكثر منه مطلقا" وجاء في وقفية الأتابكي أزبك... "على أن يتولى إحراز الكتب المذكورة في الخزانة المذكورة، ونفضها من الغبار وتعهدها على العادة وصونها عما يفسدها..."[7].

وجاء في توقيع لأحمد بن مسعود التركماني ت ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م أحد مدرسي مدرسة أبي حنيفة فيما يتعلق بواجب الخازن "وليثبت ما بخزانة الكتب من المجلدات وغيرها معارضا ذلك بفهرسته متطلبا ما عساه قد شذ منها وليأمر خازنها بعد استصلاحه بمراعاتها ونفضها في كل وقت ومعرفة شعثها وأن لا يخرج منها شيئا إلا إلى ذي أمانة مستظهرا بالرهن عن ذلك"[8] وممن تولى هذا المنصب من الأدباء والعلماء هلال بن المحسن الصابي[9] ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م ويعقوب بن سليمان الأسفرايني ت ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م خازن كتب النظامية ببغداد والذي خلفه الشاعر المشهور محمد بن أحمد

---

(١) ابن الساعي، المصدر السابق: ٩/ ١٦٠، مجهول، الحوادث: ص٥٦.

(٢) تلخيص: ٣/ ٣٣٣، ٤/ ٨٣٢.

(٣) القلقشندي: أحمد بن علي من الفقهاء الذين برعوا في الأدب والإنشاء واشتهر بكتابه صبح الأعشى ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م. ابن العماد، المصدر السابق: ٧/ ١٤٩.

(٤) العيدروسي، النور السافر: ص١١١.

(٥) ظل هذا المنصب يحمل نفس المصطلح واللفظ إلى القرن الثاني عشر الهجري. المرادي، سلك الدرر: ٢/ ١٠١.

(٦) الصابي، الهفوات: ص١٤٤.

(٧) إبراهيم، دراسات: ص٦١.

(٨) جواد، مدرسوا مدرسة أبي حنيفة، المعلم الجديد: ص٨.

(٩) البتريزي، المصدر السابق: ٤/ ١٦٣٣.

الأبيوردي ت ٥٠٧هـ/ ١١١٣م[١] كما تولى عبد العزيز بن علي الخوارزمي والـذي كـان حيا عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، خزانة كتب مدرسة الإمام أبي حنيفة[٢].

كما تولى خزانة المستنصرية جمال الدين ياقوت الكاتب المستعصمي عند افتتاحها[٣] وتولاها المؤرخ المشهور علي بن انجب (ابـن السـاعي)[٤] وتولاهـا في نفـس المدرسـة في العصر المغولي مؤرخ العراق عبد الرزاق بن الفوطي[٥].

وفي الموصل تولى الفقيه مكي بن ريان الماكسيني، خزانة المدرسة البدرية[٦] وتولاها أيضا عماد الدين بن باطيش ت ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م[٧]. وفي القاهرة كـان محمـد بـن علـي المصري ت ٧٠١هت/ ١٣٠١م خازن كتب المدرسة البادرائية[٨]. كما تولى يحيى بن عبـد الله الفارقي الدمشقي المولود عام ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م خزانة الكتب الأشرفية، وأثنى عليـه المحدث البرزالي[٩] كما كان الحسين بن علي الشبلي ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م خـازن الكتـب بدار الحديث الأشرفية[١٠].

ج. المنـاول:

هو الذي يقوم بنقل الكتب من رفوف الخزانة إلى المطالعين، ويفـترض ممـن يتـولى هذا المنصب أن يكون على معرفة تامة بالكتب وأماكنها، وقد أشـير أيضـا إلى كثـير مـن الفقهاء والأدباء، الذيـن تولـوا هـذا المنصـب مثـل الجمـال إبراهيـم بـن حذيفـة منـاول المستنصرية عند افتتاحـها[١١] وعبـد الرحيـم بـن محمـود الحـدادي ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م والذي تولى المنصب في المستنصرية بعد أبيه وكان على معرفة بالكتب[١٢]. مما يـدل علـى أن الخبرة كانت تتوارث أحيانا.

(١) ياقوت، معجم الأدباء: ١٧/ ٢٣٧.
(٢) القرشي، الجواهر: ١/ ٣٢٠.
(٣) مجهول، الحوادث: ص٥٦، ابن الفوطي، تلخيص: ٤/ ٨٣٢.
(٤) اليونيني، المصدر السابق: ٣/ ١٤٧.
(٥) ابن الفوطي، تلخيص: ٣/ ١٧٠،١٩٣، الكتبي، فوات: ١/ ٥٦٧.
(٦) ابن خلكان، المصدر السابق: ٧/ ٣٣٨.
(٧) ابن الفوطي، تلخيص: ٢/ ٦٩٤.
(٨) ابن حجر، الدرر: ٤/ ٦٦.
(٩) المصدر نفسه: ٤/ ٤٢٠.
(١٠) المصدر نفسه: ٢/ ٦.
(١١) مجهول، الحوادث: ص٥٦.
(١٢) ابن حجر، الدرر: ٢/ ٣٦٠.

وكانت الخزانة تضم أيضا نساخا ينسخون الكتب النادرة، التي كانت تحتاجها المكتبة أو يلجأون من خلال النسخ إلى زيادة أعداد نسخ الكتاب الواحد في الخزانة، لضمان بقائه إذا ما فقدت نسخة منه أو تعرضت للتلف، أو الاستهلاك التدريجي للورق أو العدوان[1] كما لا يستبعد وجود مجلد في المكتبة[2] وهناك حالات كان يتولى فيها الخازن منصب المناول أيضا[3].

- **كيف كان يتم رفد المكتبات الوقفية بالكتب:**

إن قيمة المكتبات قديما وحديثا تزداد كلما رفدت بالكتب الجديدة، والمهمة، وهكذا كان الحال مع المكتبات الوقفية، فقد كانت هناك عدة قنوات، ترفدها بصورة مستمرة، فقد سن بعض علماء الإسلام سنة طيبة، في إيقاف كتبهم، ومكتباتهم، في خزانات المكتبات الوقفية ليستفاد منها طلبة العلم والأساتذة على السواء، فقد أوقف المؤرخ والمحدث المشهور الخطيب البغدادي[4] كتبه على المسلمين[5] كما أوقف ثابت بن منصور الكيلي ت ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م أحد شيوخ ابن الجوزي كتبه[6] وكذلك محدث العراق محمد بن ناصر البغدادي ت ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م الذي أوقف كتبه رغم فقره[7]. وقد أثنى ابن الجوزي[8] على هذه المكتبة التي ذكرها ضمن مكتبات أخرى، ساهمت في تكوينه فكريا وعلميا. وأشار ياقوت[9] إلى أن الرشيد محمد بن محمد البلخي (الوطواط)[10] أوقف ألف مجلد من الكتب النفيسة على خزائن الكتب في دار الإسلام. وأوقف علي بن عساكر المعروف بالبطائحي الضرير[1] كتبه على خزانة مكتبة الشيخ عبد القادر

(١) إبراهيم، دراسات: ص٧٦-٧٧.

(٢) المرجع نفسه: ص٧٧-٧٨.

(٣) المرجع نفسه: ص٧٩.

(٤) الخطيب: هو الحافظ أبو بكر أحمد بن علي، فضله أشهر من أن يوصف، كان فقيها شافعيا فغلب عليه الحديث والتاريخ ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م. ابن خلكان، المصدر السابق: ١/ ٩٢-٩٣.

(٥) ياقوت، معجم الأدباء: ٤/ ٢٧، السبكي، طبقات: ٤/ ٣٧.

(٦) ابن الجوزي، المنتظم: ١٠/ ٥٢.

(٧) ابن العماد، شذرات: ٤/ ١٥٥.

(٨) صيد الخاطر: ص٣٦٧.

(٩) معجم الأدباء: ٩/ ٩٩.

(١٠) الوطواط: هو محمد بن محمد، يعود بنفسه إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ وصفه ياقوت بأنه (أفضل زمانه في النظم والنثر) توفي بخوارزم سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٦م. معجم الأدباء‌ك ١٩/ ٢٩-٣٦.

المعروف بالبطائحي الضرير[1] كتبه على خزانة مكتبة الشيخ عبد القادر الكيلاني[2] كما أوقف محدث ومؤرخ العراق محمد بن محمود البغدادي (ابن النجار) ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م كتبه على خزانة المدرسة النظامية ببغداد[3] وأوقف ابن الطويل الدمشقي ت ٥١٤هـ/ ١١٢٠م كتبه في الجامع الأموي بدمشق في الزاوية الغربية[4]. كما أن الدخوار الطبيب[5] ت ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م أوقف كتبه وداره على الأطباء في دمشق[6]. كما أوقف الفقيه والمؤرخ ابن أبي شامة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م كتبه على المسلمين[7] وأوقف الحافظ الصوفي نور الدين الموصلي نزيل حلب ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م والذي كان شيخا للإمام الذهبي وآخرين كتبه بعد أن فقد كثيرا منها في أحداث الهجوم التتري[8] كما أوقف الإمام الحافظ والمحدث علم الدين البرازيلي الإشبيلي ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م كتبه على المسلمين[9].

وأحيانا كان يتم إيقاف كتاب بعينه، فقد أوقف المؤرخ المشهور ابن خلدون كتاب العبر (تاريخ ابن خلدون ومقدمته) على جامع القيروان[10] كما أوقف السبكي قصيدة لأبي رجاء الأسواني أحد فقهاء الشافعية، والتي كانت أشبه بالملحمة منها بالقصيدة العادية، حيث ضمت أخبار العالم وقصص الأنبياء، ومختصر المزني، والطب والفلسفة وبلغت مائة وثلاثين ألف بيت[11] وأوقف أبو الوفاء بن عقيل الفقيه الحنبلي المشهور كتابه (الفنون) والذي يقع في مائتي مجلد، والذي استغرق تأليفه عمره تقريبا على خزانة

(١) البطائحي الضرير: نحوي من قرية من قرى البطائح توفي بالحمدية مات ببغداد سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م. ياقوت، معجم الأدباء: ١٤/ ٦١-٦٢.
(٢) ياقوت، معجم الأدباء: ١٤/ ٦٢.
(٣) الكتبي، فوات: ٢/ ٥٢٢-٥٢٣.
(٤) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٩٤.
(٥) الدخوار: عبد الرحيم بن علي، كان من مشاهير الأطباءن توفي ودفن في دمشق بشرقي قاسيون سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م. سبط ابن الجوزي: ٨/ ٦٧٢.
(٦) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٦٧٢.
(٧) اليونيني، المصدر السابق: ٢/ ٣٦٧-٣٦٨.
(٨) مشيخة ابن الجوزي: ص٣٦.
(٩) الكتبي، فوات: ٢/ ٢٦٤.
(١٠) حمادة، المكتبات: ص١٦١.
(١١) ابن العماد، المصدر السابق: ٤/ ٨٥.

المدرسة المأمونية ببغداد[1] كما أوقف المقرئ الفقيه عسكر بن الحسن العكبري كتابي الفنون، وكتاب الفصول لأبي الوفاء بن عقيل على المسلمين[2] كما أوقف محمد بن عبد القادر الأنصاري، أحد تلامذة محي الدين بن عربي، الصوفي المعروف كتاب شيخه (الفتوحات المكية) [3] كما أوقف شخص مجهول النسخة الأصلية من كتاب علي بن يوسف الشنطوفي ت ٧١٣هـ في سيرة عبد القادر الكيلاني والواقع في ثلاثة مجلدات في خزانة الخانقاه[4] الصلاحية في القاهرة.

وسار الخلفاء والسلاطين وغيرهم على سياسة العلماء في إيقاف الكتب على الخزانات الوقفية، فقد أشار ابن الكازروني[5] إلى أن الخليفة الناصر لدين الله أوقف الكتب النفسية الفقهية وغيرها في خزانات الكتب. ووصف سنبط قينتو الأربلي[6] هذه الكتب بأنها كانت في جميع العلوم النافعة، أي ليست مقتصرة على العلوم الشرعية فقط. كما سبق للناصر وأن عمر خزانة المدرسة النظامية ببغداد، وأوقف عليها آلاف الكتب النفيسة مما لا يوجد مثلها[7]. وحذا حذو الناصر حفيده الخليفة المستعصم بالله ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م عندما أمر عام ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م برفد المكتبات الوقفية للمدارس بكتب جديدة[8] كما أشير إلى أن السلطان المجاهد غياث الدين الغوري ت ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م بأنه كان يوقف مصاحف منسوخة بيده على مدارسه الوقفية التي أنشأها[9] كما عرف عن الأمير بيبرس الجاشنكير بأنه أوقف خزانة كتب في جامع الحاكم بأمر الله الفاطمي في القاهرة[10].

---

(١) ابن الجزري، غاية النهاية: ١/ ٥٥٧.

(٢) ابن العماد، المصدر السابق: ٤/ ٨٥.

(٣) اليونيني، المصدر السابق: ٣/ ١٥٠؛ ٣/ ١٥٠؛ الفتوحات المكية من كتب التصوف المشهورة ومما يؤخذ على هذا الكتاب احتواءه على فلسفة وحدة الوجود المرفوضة.

(٤) ابن الجزري، غاية النهاية: ١/ ٥٨٥.

(٥) المصدر السابق: ص٢٤٦.

(٦) خلاصة الذهب: ص٢٨١.

(٧) ابن الأثير، الكامل: ٩/ ٢٢٩، سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٤٢١-٤٢٢.

(٨) مجهول، الحوادث: ص١٨١.

(٩) الأشرف، العسجد: ص٢٧٧.

(١٠) ابن حجر، الدرر: ٣/ ٤٥٣.

* **ترتيب خزانات الكتب وفهارسها:**

شهدت المكتبات الإسلامية تطورا، على صعيد إيجاد خزانات خشبية، ورفوف خشبية معلقة في الجدران، فقد وصف البشاري[1] خزانات كتب عضد الدولة في شيراز بأنها عبارة عن بيوت طويلة ارتفاعها القامة، وعرضها ثلاثة أذرع، مرتبطة بالحيطان، مصنوعة من الخشب المزوق، وتغطي هذه الرفوف أبواب تنحدر من فوقها، والكتب منضدة على الرفوف ولكل علم رفوف خاصة به، وعلى كل رف هناك فهرست يحتوي على أسماء الكتب.

كما وصفت مكتبة القارئ الشهير محمد بن أحمد بن شنبوذ ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م بأن فيها رفوف عليها كتب، وكل رف في فن من الفنون[2]. ويمكن القول أن موضوع الفهارس قد شهد تطورا كبيرا، سواء فهرس الكتاب الواحد، الذي يحتوي على محتوياته[3] أو فهارس المكتبات وفهارس الرفوف، فقد أشار ياقوت[4] إلى أنه رأى فهرس خزانة جامع مرو يحتوي على جميع أسماء الكتب، التي تضمها المكتبة الوقفية في هذا الجامع وشاهد فهرس كتب البيروني فقط في النجوم والهيئة والمنطق والحكمة والتي كانت في ستين ورقة بخط مكتنز (صغير ومتقارب).

* **المخاطر التي تعرضت لها المكتبات وأماكن تواجد الكتب الوقفية الأخرى:**

يمكن إيجاز هذه المخاطر كما يلي:

١- الاضطرابات السياسية، وانعدام السلطة وسيادة الفوضى وأعمال النهب كما حدث عام ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م عندما هاجم عرب ربيعة والنتفك البصرة، فنهبت خزانة كتب القاضي أبو الفرح بن أبي البقاء الوقفية[5].

٢- الأسباب المذهبية والسياسية، كما حدث مع دار العلم الفاطمية في القاهرة بعد سقوط الخلافة الفاطمية[6].

---

(١) المصدر السابق: ص٤٤٩.

(٢) ابن الجزري غاية النهاية: ٢/ ٥٥-٥٦.

(٣) ياقوت، معجم الأدباء: ١٨/ ١١٦.

(٤) المصدر نفسه١٧/ ١٨٥، وينظر ابن الفوطي، تلخيص: ٣/ ٥٧.

(٥) ابن الأثير، الكامل: ٨/ ٢٣٤.

(٦) المقريزي، مواعظ: ١/ ٤٠٩.

٣- عدم نزاهة المشرفين على هذه المكتبات أحيانا، فقد تنقل من مكان إلى آخر وقد تباع رغم أنها موقوفة[١].

٤- عدوان الطلبة والمطالعين: يشير المقريزي[٢] إلى أن خزانة الكتب الموجودة في المدرسة الفاضلية، تعرضت عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م إلى النهب حيث أخذ الطلبة أثناء المجاعة يبيعون الكتاب برغيف... كما لا ينسى النهاية المأساوية لمكتبة المستنصر بالله الأموي في قرطبة[٣] وكذلك الحال مع مكتبة آمد التي كانت تضم مليون كتاب[٤].

٥- العدوان الخارجي: إن الغزوين الصليبي والمغولي، دمر الكثير من كنوز المكتبات الإسلامية، حرقا وإتلافا ونهبا[٥].

---

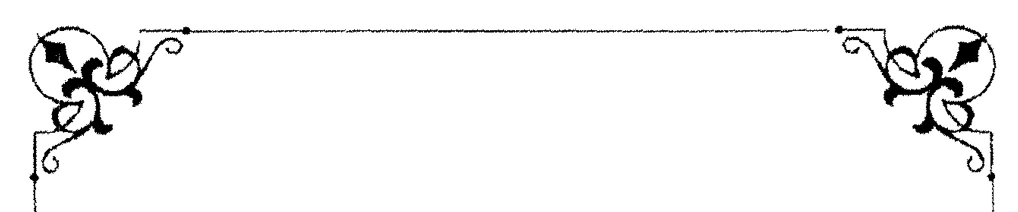
(١) مشيخة ابن الجوزي، مقدمة المحقق: ص٣٦.

(٢) مواعظ: ٢/ ٣٦٦.

(٣) ابن خلدون، تاريخ: ٤/ ١٤٦، الذهبي أحداث ٣٨١-٤٠٠: ص٢٩١.

(٤) ابن كثير، المصدر السابق: ١٢/ ٣١٣.

(٥) ينظر مثلا ابن كثير، المصدر السابق: ٣/ ٢١٥، معروف، تاريخ علماء: ١/ ٥٠.



الفصل الرابع

خدمات الأوقاف الجهادية والاجتماعية




خدمات الأوقاف الجهادية والاجتماعية

أ. أوقـاف الجهـاد:

* الفقهاء ووقف الجهاد:

يمتاز هذا المحور بأهميته من خلال المساهمة الواعية لأفـراد المجتمـع الإسـلامي، في ترصين حدود دار الإسلام (الثغور) والممتدة ما بين نهري سيحون وجيحـون (أموداريـا وسرداريا)، فيما وراء النهر (وسط آسيا الإسلامية)[1]. ومن ثغور أرمينية وأذربيجـان في القوقاز الإسلامي الذي يمتد بين بحر قزوين والبحر الأسود، على شكل قوس فوق جبال القوقاز[2]، مروراً بثغور الجزيرة والشام في شمال الجزيرة الفراتية والشام، مروراً بـالثغور البحرية على سواحل البحر المتوسط من أقصى شرق الشام إلى أقصى سواحله الغربية في المغرب والأندلس، والذي شهد صراعاً بحريـاً لا هـوادة فيـه بـين الأسـاطيل الإسـلامية المتمركزة في الشام ومصر وتونس والمغرب والأندلس، وبين الأساطيل الأوربيـة، مـروراً بثغور الأندلس البرية في الشمال وإلى الحدود الفرنسية والإيطالية، ثم الدول الإسـبانية في قشتالة وأراغون التي أصبحت البؤر التي تجمع حولها الأسبان، ومن ورائهم أوربا البابوية فيما سمي بحرب الاسترداد لإخراج المسلمين من الأندلـس[3] وقـد نجحـوا مـع الأسـف الشديد في تحقيق هدفهم نتيجة تصدع الجبهة الإسلامية الداخلية وتشرذمها وانقطاع المدد من الغرب الإسلامي الذي حال دون سقوط

الأندلس منذ نهاية القرن الخامس الهجري[4].

---

(١) يقصـد بـها جمـهوريات كازخسـتان وقـر غيزسـتان، وأوزبكسـتان وطاجيكسـتان، وتركمانسـتان والتركستان الشرقي المحتل من قبل الصين.

(٢) ويشمل جمهورية أذربيجان وجمهورية أرمينيا وجمهورية جورجيا فضلاً عن جمهوريات تتمتع بـالحكم الذاتي داخل اتحاد روسيا مثل داغستان والشيشان الجريح وتاتاريا وابخازيا وبشكيريا.

(٣) شنت البابوية ومن ورائها أوربا حرباً صليبيـة لا هـوادة فيـها لدعـم الأسـبان قبـل أن يعلـن البابـا أنوست الثالث الحرب الصليبية للسيطرة على القدس.

(٤) لقد وقف المرابطون والموحدون موقفاً إسلامياً ملتزماً من مسألة مد يد العون لإخوانهم في الأندلس والذين تحالفت القوى البابوية بأجمعها لإخراجهم مـن الأندلـس وإعادتـهم إلى الـبر الأفريقـي عبـد المؤمن بن علي ثم يعقوب بن المنصور ولولا هذه الوقفـات الجهاديـة لسـقطت بـلاد الأندلـس قبـل سقوطها بثلاثمائة سـنة. ينظـر ابـن الكردبـوس، نصـوص: ص٥٨، محمـود، قيـام دولـة المرابطـين: ص٢٦١-٣٠٦، علام، الدولة الموحدية: ص١٧٩-٢١٢ فقد عبر يوسف بـن تاشـفين إلى الأندلـس مجاهداً أربع مرات وسار على نهجه من الموحدين.

ويلاحظ أن خط الحدود، هذا الواقع ما بين أقصى الشرق الأوسط الآسيوي وأقصى الغرب الأفريقي، مروراً بشمال الأندلس، كان يتعرض أحياناً للتمدد وللتراجع أحياناً أخرى حسب قوة القلب (المركز)، والذي يأتي بالدرجة الأولى، من رصانة الجبهة الداخلية وإسلاميتها، والتزام المجتمع والسلطة بالقيم والسلوكيات الإسلامية.

إن مساهمة المواطنين المسلمين في صيانة حدود أمتهم، كانت في غاية الأهمية، فقد كانوا يرفدون ثغور دار الإسلام من شتى الأقطار بغض النظر عن الحساسيات السياسية التي كانت بسبب الصراع على السلطة بين الحكام المسلمين، ولدينا أمثلة كثيرة في هذا المجال[1]. وكانت مساهمة الفرد المسلم في الدفاع عن حدوده تزداد أهمية عندما يعجز أو يتهاون مركز السلطة في العاصمة، أو مركز الأطراف عن الإيفاء بالتزاماتهم، وكانت هذه الأوضاع هي التي دفعت الوزير العباسي علي بن عيسى الجراح إلى إيقاف بعض ضياع الدولة للمساهمة في سد متطلبات الثغور[2] بعد أن لاحظ ضعف الخليفة المقتدر العباسي وتسلط القادة العسكريين الأتراك، على إمكانيات الدولة المادية واستنزافها لأهوائهم وملذاتهم.

في مثل هذه الأوضاع، يصبح دور المواطن المسلم، الذي يجود بماله ودمه ضرورياً جداً ورغم أن المصادر مع الأسف لا تقدم لنا الكثير في هذا المجال، والذي كان على أصعدة عديدة منها تشجيع السكن في مدن الثغور، ومدها بأسباب الحياة، فأخذت هذه المدن بجوها الإسلامي الذي امتزج فيه عبق العلم ودموع الطاعة والتوبة والحب لله، وأريج التراب المنبعث من سنابك خيل الله، تستقطب الكثير من المواطنين من شتى بلاد الإسلام الذين يشتاقون إلى حياة إسلامية خالية من التعفن والإنحراف، الذي أصيبت به حواضر الإسلام، نتيجة لانحراف معظم رجال السلطة، وعدد لا يستهان به من أبناء المجتمع عن القيم الإسلامية، سواءً على صعيد الحكم أو المال أو العلاقات الاجتماعية التي غزاها الترف الفاجر على صعيد المسكن، والمأكل، والمشرب، فضلاً عن الاستسلام بصورة أو بأخرى لمغريات الجنس حلالاً وحراماً، عبر الحرائر والجواري والغلمان... أو الاستسلام للفقر الكافر على الأصعدة نفسها، وصدق سيدنا عمر رضي الله عنه عندما يقول ما دخل الفقر بيتاً إلا وقال للكفر اتبعني.

---

(١) ينظر مثلاً ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٣/ ٣٣٥، ٤/ ٦٥-٦٦.

(٢) ابن طباطبا، المصدر السابق: ص٢٦٨.

لقد ذهب العلماء العاملون للسكن في مدن الثغور جامعين بين الجهاد وطلب العلم وتدريسه، وهكذا اشتهرت هذه المدن باحتضانها للكثير من هؤلاء، فقد مات الأوزاعي مرابطاً في بيروت سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٦م[١]. وكان الإمام عبد الله بن المبارك دائم التنقل بين مدن الثغور مرابطاً مجاهداً[٢] وعرف عن الإمام أحمد بن حنبل ذهابه إلى طرطوس لأغراض الجهاد[٣] وآخرون كثير...

ومن المتوقع أيضاً اجتذاب هذه المدن للمثقفين المسلمين[٤] لكونها تجمع بين قلة الضجيج الاجتماعي، بما فيه من نفاق، وعلاقات باهتة بعيدة عن القيم الإسلامية وبين حياة يغطي جنباتها الهدوء المحيي للنفس، والذي يتيح لها الانطلاق في عالم الملكوت، للتفكير في خلق الله ولمعايشة المعطيات التي أتى بها القرآن الكريم والسنة المطهرة، كما كانت في عهد الرسول ﷺ وخلفائه المهديين من بعده ﷺ إذ كانوا كما قيل عنهم فرساناً بالنهار رهباناً بالليل[٥].

لقد لعب الفقهاء المبدعون دوراً كبيراً في حث المسلمين على الاهتمام بهذه الثغور وإمدادها بأسباب الحياة، فجوزوا الوقف على الدور في الثغور، لأغراض سكن المجاهدين المرابطين، وحوزوا صرف إيرادات الأرض الموقوفة على المجاهدين في الثغور[٦]. كما حوزوا بناء الحصون والإيقاف عليها[٧] وكذلك حوزوا أن يجهز المجاهد بما يحتاجه من إيرادات الوقف[٨] وذهب ابن تيمية[٩] إلى إنه لو وقف على الفقهاء والصوفية واحتاجت الأمة لإيرادات هذا الوقف لأغراض الجهاد، يصرف في أبواب الجهاد، وهذا الرأي يتفق

---

(١) ابن حبان مشاهير: ص١٨٠، وينظر الخطيب البغدادي، المصدر السابق: ٦/ ٩٥،٩٨،١٧٨.

(٢) عبد الله بن المبارك: من العلماء الربانيين الذين جمعوا بين العلم والعمل والجهاد وقال عنه إسماعيل بن عياش (ما على وجه الأرض مثل عبد الله بن المبارك ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها في عبد الله بن المبارك ت ١٨١هـ/ ٧٩٧م. الخطيب البغدادي، المصدر السابق: ١٠/ ١٥٢-١٦٩.

(٣) ابن الوزير، العواصم والقواصم: ٤/ ٢٣٧.

(٤) عثمان، الحدود الإسلامية: ٣/ ٣٣٧-٣٣٦.

(٥) هنا الفرق الجوهري بين رهبانية تتبنى الجهاد كما في قوله ﷺ (رهانية أمتي الجهاد)، وبين مفهوم الرهبنة النصرانية الذي تبناه بعض الصوفية.

(٦) الخصاف، المصدر السابق: ص٣١٩-٣٢٠.

(٧) الطرابلسي، المصدر السابق: ص١٧.

(٨) الخصاف، المصدر السابق: ص٣٥١.

(٩) ينظر رواتبه لدى المروادي، الأنصاف: ٧/ ٥٨.

مع الحس الجهادي المرهف لابن تيمية، والذي ضرب المثل الأعلى في الجهاد بسيفه ولسانه وقلمه، طيلة حياته حتى مات شهيداً في سجنه.

كما جوز الفقهاء إلى أنه لو أوقف على المجاهدين في مكان ما فتوقف الجهاد في هذه الجبهة أو تعطل لأي سبب جاز صرف إيرادات هذا الوقف إلى مجاهدين في جبهة أخرى مشتعلة لكي يحقق الوقف الأهداف التي من أجلها وجد[1]. علماً بأن الفقهاء جوزوا أيضاً صرف أموال الزكاة لأغراض الجهاد، لكي تصرف على المجاهدين وما يحتاجون إليه من سلاح وعدة وما تحتاج إليه الجبهة من حفر الخنادق وشراء المجانيق (المدافع) ووصل الأمر ببعضهم إلى القول بأنه إذا كانت حملة ضد الكفار، فإن دفع أموال الزكاة لتمويل حاجات الجهاد أولى من صرفها على المساكين كما كانت تدفع للمجاهدين على الثغور نفقات ذهابهم وإيابهم من الصدقات، فضلاً عن نفقات طعامهم ما أمكن ذلك[2]. ولابد من الاعتراف بأن بعض الفقهاء، قد وقف موقفاً متحفظاً من قضية الاستخدام الأمثل للأموال الفائضة عن شروط الواقف، لأغراض الجهاد في سبيل الله، كما حدث عندما سأل السلطان العادل نور الدين زنكي الفقهاء عن جواز صرف هذه الأموال في بناء الأسوار وحفر الخنادق، فأفتاه المالكي بالجواز، بينما كانت وجهة نظر القاضي الشافعي شرف الدين ابن أبي عصرون الموصلي بعدم الجواز إلا على سبيل الاقتراض، بينما توقف القاضيان الحنفي والحنبلي[3] ولا أدري ما قيمة الأوقاف ومستحقيها، إذا احتلت الأرض الإسلامية وسقطت السلطة الإسلامية تحت سنابك خيول الأعداء.

علماً أن هؤلاء الفقهاء كانوا يعرفون حق المعرفة، بأن نور الدين الشهيد، حاكم مسلم لم يعرف له نظير بعد عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) على صعيد القوة والكفاءة والفقه والجهاد والشورى ونظافة اليد والفرج واللسان.

وبذلك يلاحظ أننا اليوم بأشد الحاجة إلى الاقتداء بهؤلاء الفقهاء ذوي الأفق المتسع وممن وضحت في بصيرتهم قواعد الأولويات، والتي يعاد ترتيبها وتنسيقها حسب أوضاع المجتمع الإسلامي سياسياً وعسكرياً، واقتصادياً واجتماعياً، لاسيما في ظل اشتداد

---

(١) زيدان، المفصل: ١٠/ ٤٥٠.

(٢) أبو يعلى، المصدر السابق: ص١٣٣، الماوردي، المصدر السابق: ص١٥٧، الونشريسي، المصدر السابق: ٧/ ١٤٨.

(٣) ابن قاضي شهبة، الكواكب: ص٤٩-٥٠.

الهجمة الكافرة للصهيونية والصليبية الجديدة شرقاً وغرباً، لمقاومة النهوض المبارك للأمة وعودتها إلى ثوابتها الإسلامية، من أجل بناء مشروعها الحضاري النهضوي.

إن الفقهاء المبدعين مدعوون اليوم، لكي يساهموا بفعالية في أسلمة المجتمع والمؤسسات على السواء، واستخدام كل ما أنتجه العقل المسلم طيلة (١٤) قرناً من تراث فقهي ضخم في ضبط وتأطير عودة المسلمين إلى دينهم حكاماً ومحكومين، فكم من مليارات الدولارات تصرف اليوم في الترف الفاجر وفي ملذات البطن والملبس والفرج،

في الوقت الذي نحتاجها لتحصين العقل المسلم، وزيادة ترصين الاقتصاد وتسليح المجاهدين للوقوف بوجه جيوش أعداء الأمة.

* **دور الوقف في بناء الأربطة والحصون:**

إن الدور الأساسي للسلطات الحاكمة في دار الإسلام، كان في أعداد الجيوش وقيادة الأمة في الدفاع عن حدودها، وفي قمع التمردات غير المشروعة، ويسير بموازاة هذا الجهد الكبير جهد آخر يعززه ويوآزره، بل وينفخ فيه روح الصمود والاستشهاد واسترخاص الغالي والنفيس من الدم والمال والأهل، ألا وهو المشاركة الجماعية لمسلمي دار الإسلام في الدفاع عن حدودهم.

* **الجبهة الشرقية:**

إن أهمية هذه الجبهة الممتدة من وسط آسيا الإسلامية، وإلى حدود الهند، تكمن في أنها ظلت مشتعلة إلى القرن السابع الهجري بصورة عامة. ولذلك نجد أن سكان ما وراء النهر كما يقول الأصطخري[١] كانوا يوقفون على الجهاد في سبيل الله، لترصين ثغورهم المواجهة للترك الكفار آنذاك، والذين ظلوا طيلة قرون عديدة يشكلون خطراً على الشرق الإسلامي إلى أن تم استيعابهم وأسلمتهم داخل دار الإسلام، بفضل القيادات الإسلامية الملتزمة سواءً في العهد الساماني[٢] أو الغزنوي[٣] أو السلجوقي[٤]، أو الغوري[٥]، أو الخوارزمي[٦]... ولذلك برز دور الوقف بصورة واضحة في هذه المناطق

---

(١) المصدر السابق: ص٢٩٠، ابن حوقل، المصدر السابق: ص٣٨٦م.

(٢) حكم السامانيين بين عامي ٢٠٤-٣٩٠ هـ/ ٨١٩-٩٩٩ م.

(٣) حكم الغزنويون بين عامي ٣٥١-٥٥٥ هـ/ ٩٦٢ -١١٥٥ م.

(٤) حكم السلاجقة بين عامي ٤٢٩-٥١١ هـ/ ١٠٣٧-١١١٧ م.

(٥) حكم الغوريين بين عامي ٤٩٣-٦١١ هت/ ١١٩٩-١٢١٤ م.

(٦) حكم الخوارزميين بين عامي ٤٧٠-٦١٧هـ/ ١٠٧٧-١٢٢٠م.

الشاسعة، في بناء الأربطة الجهادية هذه الأربطة التي بلغت في منطقة اسبيجاب(١) لوحدها ١٧٠٠ رباط(٢). وقد يكون هناك مبالغة في هذا الرقم، إلا أنه يمكن قبوله في حالة تصور أن هذه الأربطة هي أشبه بالربايا الدفاعية الممتدة في الجبهات لاسيما الجبلية منها في الوقت الحاضر.

ويشير ابن تغري بردي(٣) إلى أن حاكم خراسان والمشرق الأمير عبد الله بن طاهر ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م قام بتعمير الأربطة في خراسان، هذا الإقليم الكبير الذي تتقاسمه اليوم إيران وأفغانستان وتركمانستان، وأوقف على هذه الأربطة الوقوف. أن قيمة هذه الأوقاف كانت كبيرة لاسيما عند عجز المركز عن تمويلها، عند حدوث الأزمات الداخلية أو عند تولي حكام تنعدم لديهم روح الجهاد، ويخلدون إلى الترف والملذات.

ويشير ابن الجوزي(٤) إلى أن حاكم ما وراء النهر المجاهد إسماعيل الساماني بنى العديد من الأربطة في الجبهات القريبة من كفار الترك، وكان كل رباط يتسع لألف فارس، وأوقف عليها أوقافاً لتمويل حاجاتها من ترميم وسلاح وخيول ومأكل ومشرب ورغم عدم إشارة النص إلى عدد هذه الأربطة ومواقعها، فإن هذا النص يعطي صورة واضحة عن حجم الأوقاف التي أوقفت عليها من مزارع وحمامات، أو دور أو دكاكين وغيرها لتمويل حاجات هذه الأربطة، كما ان هذا النص يوضح الدور المزدوج للحاكم المسلم في إيجاد أكثر من قناة لتمويل عمليات الجهاد، وجعلها تسير نحو تحقيق أهدافها الشرعية.

كما لا ننسى دور المسلمين العاديين، ممن آتاهم الله مالاً ورغبة في الإنفاق والجهاد في بناء هذه الأربطة، والإيقاف عليها، هذا الدور الذي كان يتحول أحياناً إلى جهد جماعي خلاق في خدمة المرافق الجهادية. ويشير ابن حوقل(٥) إلى أن رباط ميلة في خراسان والذي بناه محمد بن الحسن ماه على طريق الختل قرب بلخ في أفغانستان الحالية، هذا الرباط الكبير الذي كان يستوعب مسلمي المنطقة. عند تعرض العدو على الجبهة، فضلاً عن فائدته عند سقوط الثلوج في هذه المنطقة الباردة في معظم أشهر السنة. وقد عرف عن

(١) اسبيجاب: وردت باسم اسفيجاب وهي مدن ثغور ما وراء النهر المهمة على حدود الترك، ياقوت معجم البلدان: ١/ ١٧٩.

(٢) البشاري، أحسن التقاسيم: ص٢٧٣.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٢٠١.

(٤) المنتظم: ٦/ ٧٧، ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٣/ ١٦٣.

(٥) المصدر السابق: ص٣٧٨.

هذا الرجل الصالح إنشاؤه لأربطة أخرى في مناطق ما وراء النهر، ولم يقدم لنا ابن حوقل شيئاً ذا بال عن بانيه أو عن الطراز المعماري لهذا الرباط، فضلاً عن مرافقه وأقسامه ومساحته.

كما أشار ابن حوقل[1] إلى رباط آخر فيما وراء النهر يسمى رباط خدير في مدينة ديزك، وكان من أشهر الأربطة المرسومة للجهاد ضد الترك، وقد بناه الأفشين قائد المعتصم العباسي، وكان في وسطه عين ماء وأوقف عليه أوقافاً وضياعاً قبل عودته إلى العراق. وأورد المقدسي[2] معلومات عن رباط دور رنك في إقليم سجستان، حيث كان الجهاد ضد الغور قبل إسلامهم، وتحولهم إلى سيوف إسلامية، فتحت أجزاء مهمة من الهند في القرنين السادس والسابع[3] فقد كان في هذا الرباط مرابطون ويمول الوقف كل ما يحتاجه من حاجيات مختلفة.

كما أشار المقدسي[4] إلى رباط آخر يموله الوقف وهو رباط افراوة بين مدينتي نسا وابيورد[5] بخراسان وكان مجهزاً بكل ما يحتاج إليه من احتياجات الجهاد. أما في بلاد الشام، أرض الجهاد والرباط إلى قيام الساعة، فقد أشار المسعودي[6] إلى أن زبيدة زوجة الرشيد رحمها الله كان من جملة أعمالها الخيرية التي أوقفت عليها أوقافاً، بناء دور للمجاهدين في مدينة طرطوس الساحلية لسكن المجاهدين. وعرف عن الوزير علي بن عيسى الجراح أنه خصص جزء من إيرادات ديوان البر، الذي كان يدير أوقاف الدولة لإصلاح الثغور[7]. كما ويشير ابن حوقل[8] إلى أنه شاهد عند زيارته لطرطوس أنه لا يوجد بلد إسلامي إلا وله دار أو رباط في هذه المدينة، وكانت الأموال والصلات تتدفق عليها من مصادر عديدة لاسيما الأوقاف التي يوقفها صالحو هذه الأمة حيث كانوا

(١) المصدر نفسه: ص٤١٤.
(٢) المصدر السابق: ص٣٠٦.
(٣) ينظر عن جهاد الغوريين في القرنين السادس والسابع، النمر، تاريخ الإسلام في الهند: ص٩٨-١١٥.
(٤) المصدر السابق: ص٣٢٠.
(٥) ابيورد: من مدن خراسان المهمة، انجبت الشاعر المشهور أبو المظفر الأبيوردي، ياقوت معجم البلدان: ١/ ٨٦-٨٧.
(٦) مروج الذهب: ٤/ ٢٢٥.
(٧) ابن طباطبا، الفخري: ص٢٦٨.
(٨) المصدر السابق: ص١٦٨-١٦٩.

يوقفون المزارع والفنادق والدور والحمامات والخانات التي يذهب ريعها إلى هذه المدينـة، فضلاً عما كان يصلها عن طريق الوصايا ومعونات الحكام وأرباب النعم.

ويشير ابن كثير(1) إلى أن جزءً من وقف المدرسة التقوية في دمشق كان موقوفاً على المجاهدين، والواقع أن الواقفين، لاسيما خلال الحروب الصليبية أخـذوا يحسـون بأهميـة الوقف على الجهاد إلى جانب الإيقاف على العلم والمرافق الأخرى.

* **وقف الأسطول:**

رغم عدم ورود معلومات عن أوقاف على الأربطة والحصون بمصر، والتي كـانت سواحلها تتعرض دائماً لاسيما في فترات ضعف السلطات الحاكمة في الفسطاط ومن ثم في القاهرة، إلى هجمـات الأسـطول البـيزنطي والأسـاطيل الأوربيـة، إلا أن عـدم ورود المعلومات لا ينفي وجودها. فقد وردت إشارة إلى إيقـاف أوقـاف مختلفـة وهـي الحبـس الجيوشي على الأسطول بمصر. وكانت هذه الأوقاف تقع في البرين والنطـرون، ويشـمل في البر الشرقي بـهتين والأميريـة والمنيـة، وفي الـبر الغربـي ناحيـة سـقط ونهيـة ووسـيم والبساتين خارج القاهرة، والمراكب الديوانية وناحيتي اشناي وطنبرة(2) ومع الأسف فـإن المصادر لا تقدم بصورة عامة إلا مادة شحيحة في ميدان أوقاف الجهاد لا تقارن أبـداً بمـا قدمته من معلومات عن الأوقاف التعبدية، والتعليمية والاجتماعية والصحية.

* **وقف الجهاد في الغرب الاسلامي:**

أما في الغرب الإسلامي فقد ساهم الوقف في دعم أكبر رباطين للجـهاد والعبـادة على ساحل البحر المتوسط، وهما رباط المستنير الواقع بين المهدية وسوسة بتونس ورباط شقانص(3) حيث أن هذين الرباطين كانا يضمان أعداداً كبيرة من المجاهدين العباد، الذيـن يتلقون الدعم المالي من خلال أوقاف ملحقـة بـهما بأفريقيـة(4)، وصدقـات تأتيـهما مـن كل مكان(5).

(1) المصدر السابق: ١٤/ ٢٩٦.

(2) المقريزي، السلوك، ح١، قسم١: ص١٠٧-١٠٨.

(3) شقانص: لم أعثر على ترجمة لها.

(4) يقصد بأفريقية تونس أما القارة فتكتب أفريقيا.

(5) ابن حوقل، المصدر السابق: ص٧٥.

وكانت هذه الأربطة تسمى أحياناً بالقصور مثل قصر الرباط على البحر المتوسط بسوسة[1] وقصر الحديد الذي كان يمول حاجاته الجهادية، فضلاً عن عمليات الترميم والإدامة، أوقاف منها ربع حمام الجزارين بتونس[2]. وعرف عن القاضي عبد الله بن غانم تلميذ الإمام مالك بن أنس إيقافه على الأحمية في مراسي أفريقية على المرابطين في هذه القصور (الأربطة)[3].

أما الأندلس (الفردوس المفقود)، فقد شهدت اهتماماً خاصاً بأوقاف الجهاد حيث أوقف الخليفة الأموي المستنصر على ثغور الأندلس من أملاكه الخاصة[4]. ويشير القزويني[5] إلى صورة نادرة في مساهمة الوقف والوصايا في بناء مدينة أنفاق تحت الأرض في مدينة مراغة الأندلسية الواقعة قرب مدينة لاردة وهي عبارة عن سراديب تحت الأرض يلجأ إليها سكان المدينة، عندما يدهمهم عدو، وهي تبدو على سطح الأرض بما يشبه البئر الضيقة الرأس الواسعة الأسفل، وتتصل هذه الأنفاق بأزقة كثيرة مثل بيوت الجرابيع ولا يستطيع العدو الوصول إليها من الأعلى، وإن انتشر فيها الدخان بفعل العدو لجأ سكان الأنفاق إلى الأزقة وسدوا منافذها، ورجع الدخان وإن طم العدو مدخل المدينة من الأعلى، يخرج السكان من باب سري من داخل الأرض يعود إلى مخرج آخر على السطح، وتسمى مثل هذه الأنفاق الدفاعية بالفوج[6].

إن هذه الأنفاق صورة رائعة يجب تقليدها من قبل الواقفين في الوقت الحاضر من أجل ترصين حدود الأمة، لاسيما في المناطق الرخوة من جسد الأمة، وعلى حدودها أينما كانت من أجل ردع الأعداء، ومساعدة السلطات المسلمة، في مهمة الدفاع، وعدم وضع المسؤولية على عاتق خزينة الدولة فقط. فضلاً عن مردودها الكبير في توثيق أواصر الأخوة الإسلامية وإشعار الجميع بقيمة حديث المصطفى ﷺ "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[7].

---

(١) القاضي عياض، ترتيب المدارك: ٣/ ٢٧٤، سوسة: مدينة تونسية بينها وبين صفاقس يومان يحيط بها البحر من ثلاث جهات، ياقوت معجم البلدان: ٣/ ٢٨١-٢٨٣.

(٢) القاضي عياض، المصدر السابق: ٣/ ٣٨٢.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ٣١٩.

(٤) ابن عذاري، المصدر السابق: ٢/ ٢٣٤.

(٥) المصدر السابق: ص٥٤٩.

(٦) مسلم، صحيح: ٨/ ٢٠.

(٧) مسلم، صحيح: ٨/ ٢٠.

* **وقف الأسلحة والخيول:**

اهتم الوقف الإسلامي بوقف الأسلحة، لكي يقاتل بها المجاهدون، فقد أوقف خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو القدوة في هذا المجال دروعه وعتاده في سبيل الله[1]. ويلاحظ أن المصادر تقدم مادة شحيحة في هذا المجال، ولا تعني الشحة هنا انعدام الوقفيات، فقد أشار المقدسي[2] إلى وجود وقف للسلاح في رباط افراوة، وكذلك الحال في رباط وررنك.

كما أوقفت الخيول لأغراض الجهاد أيضاً حيث ورد عن رسول الله ﷺ "من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً وتصديقاً بوعده فإن شعبه وريه وبوله وروثه حسنات في ميزانه يوم القيامة"[3]. وتكمن أهمية الخيول في أن أساليب القتال آنذاك تحتاج إلى المقاتل المتحرك أكثر من المقاتل البطيء الحركة. والذي يمثله المشاة، وكانت هذه الخيول توسم بميسم الوقف[4] وكانت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه توسم على أفخادها (حبس في سبيل الله)[5] وأحياناً كانت توسم بعبارة (الملك لله)[6] ويلاحظ أن العصر الأموي الذي شهد التوسع العسكري الكبير للأمة من أجل نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله، عرف إيقاف الخيول على المجاهدين[7] وقد أوصى نصر بن أحمد الساماني عند موته "أن يحبس في الثغور لقتال الترك ألف دابة من دوابه"[8] وقد أورد ابن العطار[9] الوثائقي الأندلسي صورة لوقف الخيل في وطنه الأندلس "أحبس فلان بن فلان الفلاني فرسه الورد الأغر القارح في سنه ووقفه للجهاد في سبيل الله عز وجل ووسمه في فخذيه بسمة الحبس".

* **وقف الأسرى:**

وهو مجال حيوي آخر ساهم فيه الوقف الإسلامي، في ميدان الجهاد في سبيل الله، حيث أوقف لإطلاق سراح الأسرى، الذين وقعوا في أسر العدو، سواءً كانوا من المجاهدين، أو من المدنيين رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخاً، والذين كانت أعدادهم تزداد

(١) المصدر نفسه: ٣/ ٦٨، ابن قدامة، المصدر السابق: ٦/ ٢٣٧.

(٢) المصدر السابق: ص٣٢٠، ابن حوقل، المصدر السابق: ص٣٠٦.

(٣) البخاري مع الفتح: ٦/ ٧١.

(٤) الونشريسي، المصدر السابق: ٧/ ٢٧١.

(٥) السرخسي، المصدر السابق: ١٢/ ٤٥.

(٦) القاضي النعمان، المصدر السابق: ص٢٥١.

(٧) الصابي، الهفوات: ص١٢٩، ياقوت، معجم الأدباء: ١١/ ١١٣.

(٨) الصولي، أخبار الراضي: ص٢٧٣، ابن كثير، المصدر السابق: ١١/ ١٠٦.

(٩) المصدر السابق: ص٢٠٦.

أثناء فترات التراجع في الجهد العسكري للأمة فتسقط أحياناً مناطق الحدود ومدنها الرئيسية، فتقع أعداد كبيرة منهم في الأسر والسبي وكانت القنوات الرئيسة لتحريرهم هي التبادل والشراء.

إن أبناء المجتمع الإسلامي، كانوا يساهمون بصورة فاعلة في إطلاق سراح الأسرى، فضلاً عن الوقف عن طريق تخصيص جزء من أموالهم لفك الأسرى، فضلاً عن التبرعات السخية في هذا المجال من قبل الحكام والمحكومين على السواء والتي استمرت عبر تاريخنا الإسلامي الطويل المعطر بأريج الجهاد والشهادة.

فعلى سبيل المثال يشير ابن تغري بردي[1] إلى أن عبد الله بن طاهر افتدى أسرى مسلمين من كفار الترك بمبلغ مليون درهم، وهو مبلغ كبير جداً آنذاك يتناسب مع جبهة واسعة هي وسط آسيا فيما وراء أموداريا وسرداريا في الوقت الحاضر. كما ويشير ابن جبير[2] إلى أن الملوك المسلمين في المشرق ونسائهم وأهل اليسار والثراء ينفقون أموالاً كثيرة في إطلاق سراح الأسرى، وامتد الأمر إلى المسلمين الذين احتلت أراضيهم، فكانوا بحكم علاقتهم المباشرة مع الصليبيين، مثل مسلمي صقلية بعد احتلالها من قبل النورمانديين يشترون ويحررون الأسرى من المسلمين.

كما ويشير سبط بن الجوزي[3] إلى أن عدد من حررهم ملك اربل مظفر الدين كوكبوري من أسرى المسلمين من الصليبيين بلغ ستين ألفاً ما بين رجل وامرأة حيث كان يقدم لهم بعد أن يتم إيصالهم إلى اربل كسوة ونفقة توصلهم إلى مواطنهم في ديار الإسلام الرحبة، علماً بأن فداء الأسرى لم يكن شيئاً هيناً، فقد كان العدو يلجأ إلى الابتزاز وطلب مبالغ باهضة قد تصل إلى ألف دينار وهو مبلغ ضخم آنذاك[4].

ومن وقفيات الأسرى التي تثير الانتباه وقفية ذكرها المحسن التنوخي[5] تشير إلى أن أحد تجار بغداد ويدعى ابن رزق الله أوقف أكسية وأغطية شتوية سميكة بمال كثير لتدفئة الأسرى المسلمين لدى البيزنطيين، وذلك عن طريق إيداعها لدى راهب طلب منه أن يغطي من يمر بقريته من أسرى المسلمين، وضمن له مقابل ذلك أن ينفق على بيعه في دار

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٢٠١.

(٢) المصدر السابق: ص٢٥٣، ٣٦٩.

(٣) المصدر السابق: ٨/ ٦٨٢، وينظر القزويني، المصدر السابق: ص٢٩٠، ابن خلكان، المصدر السابق: ٤/ ١١٧.

(٤) الخطيب البغدادي، المصدر السابق: ٦/ ١٠١.

(٥) نشوار المحاضرة: ١/ ٥٦.

الإسلام ما دام يقوم بتطبيق هذه الإتفاقية، ونظراً للعلاقات التجارية التي كانت مستمرة في معظم الأحيان بين دار الإسلام، ودار الحرب، وخاصة مع البيزنطيين في الشمال براً وبحراً فإنه من المتوقع أن يكون هناك عدد لا بأس به على شاكلة التاجر المجاهد ابن رزق الله والذين تدفعهم حميتهم الإسلامية إلى متابعة شؤون الأسرى ومحاولة تحسين أوضاعهم لحين قيام الدولة الإسلامية بتبادل الأسرى ومفاداتهم حسب ما كان يتم بين الطرفين.

وعرف عن القاضي الفاضل ت ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م الذي كان اليد اليمنى لصلاح الدين الأيوبي أنه كان له أوقاف على تحرير الأسرى[١] بحكم إطلاعه على معاناة الأسرى الرهيبة في بلاد العدو خاصة النساء والأطفال والشيوخ، ويدافع الإيمان قربة إلى الله تعالى. ولم تورد المصادر شيئاً عن طبيعة وحجم هذه الأوقاف وإيراداتها فضلاً عن الآلية التي اشترطها الواقف في كيفية صرف مبالغ الوقف، وهذه المشكلة تكرر في أغلب الوقفيات.

كما ويشير سبط ابن الجوزي[٢] إلى أن القاضي كمال الدين الشهرزوري ت ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م أوقف قرية الهامة بوادي نهر بردى من ضواحي دمشق على الأسرى[٣] وعرف أيضاً عن مسرور أحد خواص السلطان صلاح الدين والذي اشتهر كسيده في أعمال الخير أنه أوقف على الأسرى. وأشير إلى طبيعة هذا الوقف الذي هو عبارة عن خان مكون من (٩٩) بيتاً ويحتوي على مسجد جامع[٤].

ويشير نص مهم للمقريزي[٥] إلى عودة فخر الدين بن جلبان سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م في عهد السلطان الظاهر بيبرس من بلاد الفرنج مع عدد من الأسرى المحررين عن طريق الشراء بمال الوقف وكان فيهم النساء والأطفال، سلم النساء منهم إلى قاضي دمشق لكي يزوجهن من أكفائهن. وفي هذا النص يظهر جلياً أن الدولة الإسلامية، كانت توحد الأموال الوقفية المرصودة لتحرير الأسرى، وترسل عبر شخص بصفة رسمية لكي يقوم بعملية الشراء وتأمين عودتهم إلى دار الإسلام، وإلى أفضلية كما يظهر للنساء والأطفال ولا تنتهي المهمة بمجرد التحرير، وإنما حل المشاكل المترتبة على

---

(١) ابن الأثير الكامل: ٨/ ٤٧٣، سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٤٧٣، ابن العماد، المصدر السابق: ٤/ ٢٢٦.
(٢) المصدر السابق: ٨/ ٣٤١.
(٣) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٩٢.
(٤) المصدر نفسه: ٢/ ٩٩، ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٧/ ٣٨٤.
(٥) السلوك: ح١، قسم٢: ص٥٤٤.

العودة، عبر تزويج النساء بأكفائهن أي متابعة إيجاد استقرار عائلي لهن خوفاً من الانحراف، وهذه سنة يجب الانتباه إليها في معالجة الأسرى في أي قطر عربي وإسلامي، وإن كان الأمر الآن على صعيد الرجال فقط. في معظم الأحيان، فمتابعة الاستقرار النفسي وإيجاد مصدر رزق لهم بعد العودة على جانب كبير من الأهمية.

كما وأشار ابن تغري بردي[1] إلى أن الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوري ت ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م من أمراء السلطان المنصور قلاوون، كان له وقف على الأسرى، من غير تفاصيل عن طبيعة الوقف وإيراداته.

ب. الوقف الاجتماعي:

يشمل هذا الوقف عدة أقسام منها الأربطة الخانات والجسور والقناطر والطرق، والبيوت ودور الضيافة والحمامات، فضلاً عن ملاجئ اللقطاء والأيتام، والأرامل، والمطلقات والمهجورات والمزملات ومياه الشرب والأنهار والقنوات، وتحرير العبيد وخدمة المحررين، والعميان، وغسل وتكييف ودفن الموتى، والحلي والملابس الموقوفة.

* الأربطة والخانات:

إن امتداد مساحة دار الإسلام، على رقعة جغرافية واسعة امتدت من جبال البيرنيه غرباً وإلى حدود الصين شرقاً، عبر ثلاث قارات، فضلاً عن طبيعة الدين الإسلامي الذي أكد على الجهاد وطلب العلم، وعلى الحج، وعلى طلب الرزق من خلال التجارة، كل ذلك قد جعل المسلمين يؤكدون على السفر والرحلة، بغض النظر عن الصعوبات التضاريسية، والمناخية، والصعوبات المترتبة على البعد، فهناك حوالي خمسة عشر ألف كم ما بين الشرق والغرب الإسلامي.

إن الأسباب الآنفة الذكر حتمت على المسلمين قادة وأفراداً الاهتمام بطرق المواصلات ودعم مرافق الخدمات المرتبطة بها، مثل الأربطة والخانات، والتي كانت تقدم خدمات الفندق[2] والمطعم في الوقت الحاضر. وقد أجاز الفقهاء بناء الخانات لأبناء السبيل وجوزوا نزولها للفقير والغني على السواء[3].

---

(١) المصدر السابق: ٧/ ٣٨٤.

(٢) إن كلمة الفندق قديمة استخدمت منذ القرن الرابع الهجري. ينظر القاضي النعمان، المصدر السابق: ص٥.

(٣) الخصاف، المصدر السابق: ص٣٢١.

ففي بلاد ما وراء النهر الشاسعة المسافة، والتي تتخللها صحاري وسلاسل جبلية طويلة ومعقدة كان من الضروري تلبية حاجات المسافرين، والمجاهدين، والتجار في هذه المناطق، وهكذا نجد إشارات كثيرة إلى دور الأربطة الاجتماعية المتمثلة في كونها تمثل المبيت الآمن مع الأكل الشرب وخدمة حيوانات الحمل والركوب. فضلاً عن دورها الرئيس المتمثل في الجهاد والتعبد، ويشير المقدسي[1] إلى الرباط الذي أنشأه نصر بن أحمد الساماني في فربر [2] وجعل فيه ضيافة لأبناء السبيل كما أشار ابن حوقل[3] إلى رباط أبي الحسن بن ماه في مدينة صرمنجي[4] فيما وراء النهر والذي كان يقدم خدماته للمسافرين، والواقع أن هذه الأربطة كانت أيضاً بمثابة محطات. للدلالة على الطرق للتجار والمسافرين على السواء[5] ويشير ناصر خسرو[6] إلى أن الأربطة التي زارها أثناء رحلته كانت تقدم خدمات مجانية للمسافرين. وشاهد عند زيارته لرباط زبيدة (رباط المرامي) خمسة آبار لتوفير المياه للشرب والخدمات، فضلاً عن خدمات المبيت[7] كما أنه عند زيارته للخليل في فلسطين، شاهد الخدمات التي كانت تقدم للزوار والمصلين والعباد، فهناك خادمات يطبخن، ويقدمن كل يوم للنزلاء رغيفاً من الخبز وطبقاً من العدس المطبوخ بالزيت وزبيباً يقدم كفاكهة جافة، وكان عدد الزائرين يصل في بعض الأيام إلى ٥٠٠ شخص، وكانت الأوقاف تمول كل هذه الخدمات من خلال قرى ومستغلات في القدس[8] وقد استمرت هذه الخدمات في الخليل، بل وتحسنت أيضاً، حيث شاهد العمري[9] عند زيارته لها عام ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م إن المشرفين كانوا يوزعون الخبز في ليالي العشر من ذي الحجة، بحيث يبلغ عدد ما يوزعوه في كل ليلة ثلاثة عشر ألف رغيف، ومعدل ما يوزع في أيام السنة ما بين ٧-١٠ آلاف رغيف كل يوم مع العدس المطبوخ بالزيت والسماق، وفي الصباح كانت توزع شوربة الدشيشه[10] على الزوار والواردين، وفي بعض أيام الأسبوع

---

(١) المصدر السابق: ص٢٩١.

(٢) فربر: وصفها ياقوت بأنها بليدة تقع ما بين نهر جيحون وبخارى وكانت تعرف، برباط طاهر بن عبد الله، وقد أنجبت جماعة من العلماء. معجم البلدان: ٤/ ٢٤٥.

(٣) المصدر السابق: ص٤٢٤.

(٤) صرمنجي: وردت لدى ياقوت باسم صرمنكان وهي من قرى ترمذ. معجم البلدان: ٣/ ٤٠٢.

(٥) ابن حوقل، صورة الأرض: ص٣٧٨،٤٢٢-٤٢٣.

(٦) المصدر السابق: ص٧.

(٧) المصدر نفسه: ص١٠٤.

(٨) المصدر نفسه: ص٣٥.

(٩) مسالك الأبصار: ١/ ١٧-١٧١.

(١٠) هي عبارة عن حنطة تنظف وتسلق ثم تجفف وتجرش، وتنقى من القشور ثم تطبخ.

يطبخ ما هو أقل من هذا، علماً بأن من يقوم بذلك كان كادراً كبيراً من الخدم يعمل ليل نهار.

كانت الخانات الوقفية تتفاوت في طبيعة الخدمات، التي تقدمها، وفي شروط واقفيها فقد أوقف الأمير بدر بن حسنويه الكردي[1] خاناً مخصصاً للمسافرين الغرباء[2] وعرف عن مجاهد الدين قايماز[3] أنه بنى خانات السابلة في الطرق والقناطر[4].

وبنى بهاء الدين قراقوش[5] خاناً للسبيل، كان ملحقاً به طاحون وساقية[6] وعرف عن الوزير الموصلي جمال الدين الأصفهاني أنه بنى المنازل في الطرق الصحراوية لخدمة أبناء السبيل والمسافرين وبنى الخانات على طريق العراق والشام لأبناء السبيل أيضاً[7] وكان بعض واقفي الخانات يشترط صفة مخصصة لأناس بعينهم، فقد كان في بغداد خاناً في محلة قطيعة الربيع مخصصاً للفقهاء الأحناف[8].

وعرف عن السلطان المجاهد غياث الدين الغوري والذي حكم الهند وخراسان ت ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م أنه بنى الخانات في العراق والصحاري في بلاده الشاسعة، وأوقف عليها لتمويل خدماتها[9].

ويشير اليونيني[10] إلى أن الملك الظاهر بيبرس بنى سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م خاناً بالقدس الشريف لأبناء السبيل، وأوقف عليه أراض زراعية في مناطق دمشق وبصرى

---

(١) بدر بن حسنوية: من الأمراء الذين حفظ لهم التاريخ مواقفهم على صعيد البر والإحسان، وكان يتولى حكم إقليم الجبل ويشمل همذان والدينور وبروجرد ونهاوند وأسد أباد وغيرها ت ٤٠٥/ ١٠١٤م. ابن الجوزي، المنتظم: ٧/ ٢٧١-٢٧٢.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم: ٧/ ٢٧١-٢٧٢.

(٣) مجاهد الدين قايماز: هو عتيق الأمير زين الدين علي بن بكتكين حاكم قلعة الموصل في العصر الأتابكي، وقد تولى مجاهد الدين المنصب نفسه عام ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م. وكان كثير الخيرات في الموصل وأربل ت ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م في قلعة الموصل. ابن خلكان، المصدر السابق: ٤/ ٨٢-٨٤.

(٤) ابن الساعي، المصدر السابق: ٩/ ٨.

(٥) هو الأمير أبو سعيد الأسدي، أحد القادة المجاهدين والمهندسين المبدعين في عهد صلاح الدين بنى سور القاهرة ومصر وما بينهما وقلعة الجبل والقناطر بالجيزة، وأسره الصيليون في عكا وأفتكه صلاح الدين ت ٥٧٧، المقدريزي، المواعظ: ٢/ ٩٣.

(٦) ابن كثير، المصدر السابق: ١٣/ ٢٧٥-٢٧٦، ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٤/ ٤٦.

(٧) ابن جبير، المصدر السابق: ص١٠٠.

(٨) ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ١٥٠.

(٩) ابن الساعي، المصدر السابق: ص١٠٥.

(١٠) المصدر السابق: ١/ ٥٥٤، ابن خلكان، المصدر السابق: ٤/ ٩١، المقريزي، السلوك: ح١، قسم٢: ص٥٢١.

والقدس الشريف، لتمويل عملية المبيت والطعام، حيث كان ملحقاً بالخان فرن وطاحونة، فضلاً عن نقود تقدم إليهم وخدمات إصلاح نعال المسافرين. ويبدو أن النقود كانت تقدم في هذا الخان أيضاً للمسافرين الذين انقطعت بهم السبل أو تعرضوا للإفلاس فيدفع إليهم ما يوصلهم إلى بلادهم، وهي خدمات إنسانية متكاملة.

أما عن عمارة هذا الخان فيبدو أنه كان ذا طراز معماري متميز، فقد وصفه ابن كثير[1] بأنه كان (خاناً هائلاً) وكان بابه يعود إلى قصر الخلفاء الفاطميين بالقاهرة، وكان ملحقاً بالخان بستان لتوفير الراحة للمسافرين، كما أشار اليونيني[2] إلى أن الأمير المملوكي جمال الدين آقوش أوقف خاناً ومداراً للسبيل في دمشق وجعل عليها أوقافاً، وجعل ناظره القاضي والمؤرخ شمس الدين بن خلكان. وعرف عن نائب الشام المملوكي تنكز إنشاؤه لخان المنة والذي كان مخصصاً لأبناء السبيل الذين يطرقون مدينة دمشق وكان يقع في حلحولية في الشام[3].

وأخيراً فإن خدمات الطرق التي كان الوقف الإسلامي يمولها، ظهرت بصورة رائعة من خلال تلك المحطات والأرباض التي أقامها المسلمون ما بين العريش في مصر وطنجة في المغرب الأقصى والتي بلغت أكثر من مائة محطة بين كل مائة كيلومتر محطة، وفي كل منها مجمع يتكون من مسجد ومدرسة ومركز صحي، وغرف للنوم، وبساتين حول البناء يزرع فيها، وكان المسلمين يوقفون بعضاً من أموالهم على هذه الأرباض لإدامة خدماتها[4].

* **وقف البيوت:**

لم يكن الوقف مقتصراً على خدمات الخانات فقط فقد كانت هناك سقائف ودور موقوفة لسكنى الضعفاء قرب جامع قرطبة في الأندلس[5] كما أوقفت عتيقة الملك العادل الأيوبي أرغون الحافظية دارها على خدمها[6] وهذا دليل على وفاء هذه المرأة المسلمة لخدمها وثمرة من ثمار التقوى وحب العمل الصالح.

---

(١) المصدر السابق: ١٣/ ٢٧٥-٢٧٦.
(٢) المصدر السابق: ٣/ ٣٠٠.
(٣) النعيمي- الدارس: ١/ ١٢٦.
(٤) الطباع، الخدمات المكتبية: ص٦٠.
(٥) الونشريسي، المصدر السابق: ٧/ ٢٢٠.
(٦) ابن كثير، المصدر السابق: ص١٣/ ١٨٠.

كما أوقف الأشرف قايتباي بيوتاً لسكنى الفقراء في القاهرة قرب مدفنه وجعل لها أوقافاً[1] ولا ينسى في هذا الميدان تأكيد بعض الواقفين على أن يكون ضمن العقارات الموقوفة بيوت سكنية يرعى فيها الإيجارات المعتدلة لمن يسكن فيها من الضعفاء، وذوو الدخل المحدود ويمكن الإشارة في هذا المجال إلى وكالة قوصون والتي كانت عبارة عن وحدة معمارية ضخمة تضم في طابقها الأرضي مخازن ومحلات، وفي طابقها العلوي أربعمائة بيت سكني، يستوعب أربعة آلاف نسمة، واشترط صاحبها أن تكون أجرة المخزن فيه خمسة دراهم، ولا يخرج منها المؤجر ولذلك تم توارثها من قبل مؤجريها[2] وإذا كانت هناك امتيازات وتسهيلات هائلة لمن أجر المخازن والمحلات فكيف إذاً بمن سكن الدور التي كانت في الطابق العلوي، والتي حتماً كانت فيها تسهيلات كبيرة على صعيد السكن.

* **دور الضيافة:**

وهي صورة أخرى من صور التكامل الاجتماعي التي ضمنها الإسلام لأبناءه وقد قدم الوقف الإسلامي في هذا المجال نظاماً متكاملاً من الخدمات، فلم يوفر فقط المبيت المجاني لمن هو بحاجة إليه سواءً الفقير المقيم، أو المسافر المستطرق أو طالب العلم، أو الحاج، وإنما كان أيضاً يقدم الغذاء المجاني. ويشير الاصطخري[3] إلى أنه شاهد في ما وراء النهر، أكثر من عشرة آلاف رباط، في كثير منها إذ أنزل المسافر يقدم له الطعام وعلف دابته إذا احتاج إلى ذلك. وفي مدينة السغد[4] وجد بيتاً يتسع لمائة ومائتين وأكثر يقدم خدمات متكاملة من المبيت والغذاء وعلف الدواب.

وفي بغداد عاصمة الخلافة العباسية، أنشأ الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م دوراً للضيافة في محلات بغداد كافة، ليفطر عليها الفقراء، ويقدم في هذه الدور لحم الضأن والخبز الجيد، وكان يعطي كل إنسان قدحاً مملوءاً من الطبيخ واللحم ومناً[5] من الخبز[6] كما أنشأ داراً للضيافة لفقراء الهاشمين في خربة

---

(١) النهروالي، المصدر السابق: ص٢٣٧.
(٢) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٩٣.
(٣) المصدر السابق: ص٢٩٠، ٢٨٤.
(٤) السغد: بلاد مشهورة بالخيرات الكثيرة، لا سيما الزراعية، عاصمتها سمرقند، ياقوت معجم البلدان: ٣/ ٣٢٢-٣٢٣.
(٥) أشار ابن الساعي إلى أنه كان يقدم رطلين من الخبز الفائق ونصف رطل من لحم الضأن، المصدر السابق: ٩/ ٢٣٠.
(٦) ابن الأثير، الكامل: ٩/ ٢٩٨، ابن الساعي، المصدر السابق: ٩/ ٢٢٩-٢٣٠، الأشرف الغساني، العسجد: ص٣٢٢.

ابن جردة[1] ويشير البغدادي[2] إلى أن المستنصر بالله استخرج نهراً من دجيل سماه المستنصري، أوقفه على تمويل دور الضيافة. كما قام هذا الخليفة المبدع، ببناء دور ضيافة جديدة في محلات بغداد القريبة والبعيدة لفطور الفقراء في رمضان، وافتتحت هذه الدور سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م[3] وكان الفقراء يأخذون إفطارهم في قدح إلى بيوتهم[4].

وفي اربل التي شهدت عصرها الذهبي في عهد حاكمها مظفر الدين كوكبوري الذي كان له باعاً طويلاً في الجهاد ضد الصليبيين، وفي ميادين الخير أنشأ داراً كبيراً للضيافة وأجرى على ساكنيه الجرايات والكسوة، فضلاً عن المأكل[5]. ويشير ابن المستوفي[6] إلى أن كوكبوري عين علي بن ملاعب الشاهد ناظراً على دار الضيافة المذكورة، وبذلك قضى على ظاهرة التسول المقيتة. علماً بأن هذه الظاهرة السيئة لا تزال مزدهرة في كثير من الدول، وروادها الكسالى والطفيليين، والمحتالين.

وفي العصر المملوكي أنشأ الظاهر بيبرس، داراً للضيافة للرسل والواردين والوافدين في دمشق[7] وشهد هذا العصر أن ابن السبيل كان يراجع القاضي في المدينة التي يمر فيها فيعطيه من أوقاف السبيل إذا كان محتاجاً[8].

* **وقف الخبز والطعام:**

يشير ابن جبير[9] عند زيارته للإسكندرية إلى أن السلطان صلاح الدين الأيوبي خصص خبزتين في اليوم لأبناء السبيل المغاربة، لكل إنسان بالغاً ما بلغوا، وقد أوقف مجاهد الدين قايماز وقفاً في الموصل، على خبز الصدقات[10].

---

(١) مجهول، الحوادث الجامعة: ص٤٤.

(٢) مراصد الإطلاع: ٢/ ٩٥٣.

(٣) ابن الكازورني، المصدر السابق: ص٢٦١.

(٤) ظلت هذه العادة المباركة إلى العصر الحديث، حيث كان يوزع في جامع النبي شيت ومدرسته الطعام المجاني على الطلاب والدراويش والفقراء كل يوم. رؤوف، الموصل: ص٥٣٥-٥٣٦.

(٥) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٦٨٢.

(٦) تاريخ اربل: ١/ ١٥٧.

(٧) اليونيني، المصدر السابق: ٣/ ٢٦٠.

(٨) ابن بطوطة، المصدر السابق: ص٤٠-٤١.

(٩) المصدر السابق: ص٤٦.

(١٠) ابن خلكان، المصدر السابق: ٤/ ٨٣.

ويشير صاحب المروج السندسية[1] إلى أنه كان في دمشق عام ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م وقف الصالحية، الذي كان يوزع كل يوم رغيف من الخبز على الفقراء. كما أورد ابن اياس[2] أن السلطان قايتباي أوقف دشيشة توزع في مدينة الرسول ﷺ، وقد أوقف على تمويلها أبنية وحوانيت في مواضع متفرقة.

* **وقف دور الأيتام واللقطاء:**

أجاز الفقهاء الإنفاق على الأيتام الفقراء من أموال الوقف[3]. وفي هذا المجال بنى زين الدين علي كجك والد مظفر الدين كوكبوري داراً للأيتام واللقطاء[4] وسار على خطاه أبنه مظفر الدين، الذي بنى داراً للأطفال اللقطاء ورتب فيها جماعة من المراضع، وكل مولود يلتقط يحمل إليهن فيرضعنه وكان مظفر الدين يذهب كل يوم إلى دار الأيتام الذي أنشأه بإربل فيقعد اليتيمة والمسكينة على فخذه ويقول لها أيش تريدين، أيش تأكلين، أن تكسين فمهما طلب أحضره، وإذا كبرت اليتيمة زوجها[5]. وفي هذا دليل ساطع على سماحة الإسلام وتكافله وتضامن أبناء المجتمع فيما بينهم حكاماً ومحكومين.

* **دور المطلقات والمهجورات:**

يشير المقريزي[6] إلى أن رباط البغدادية بالقاهرة في عهده، كان ينزل فيه النساء المطلقات أو المهجورات، حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن، صيانة لهن لما اشتهر به هذا الرباط من شدة الضبط والعبادة والالتزام.

* **وقف دور الأرامل:**

أجاز الفقهاء الإيقاف على الأرامل الفقراء[7] وكانت بعض الأربطة تقوم بدور اجتماعي في رعاية المنقطعات الأرامل ويشير الفاسي[8] إلى أن رباط الفقاعية في مكة،

---

(١) ابن كنان: ص١٠٦.
(٢) المصدر السابق: ٢/ ٣٠١.
(٣) الخصاف، المصدر السابق: ص٣٢٣.
(٤) الذهبي، العبر: ٥/ ١٢٢.
(٥) ابن خلكان، المصدر السابق: ٤/ ١١٦.
(٦) المواعظ: ٣/ ٤٢٧-٤٢٨.
(٧) الخصاف، المصدر السابق: ٣٢٥.
(٨) المصدر السابق: ص١٠٩، الذهبي، العبر: ٥/ ١٢٢، الأشرف الغساني، المصدر السابق: ص٤٥٣، وقد أرجع ابن الوردي حبه وعطفه على الأيتام واللقطاء بأنه لم يكن له ذرية. تاريخ: ٢/ ٢٣٤، بينما أشار ابن الفوطي إلى أنه كان له بنت تزوجت سلطان الموصل نور الدين أرسلان شاه مجمع الآداب: ٢/ ٧٢٦-٧٢٧.

والذي أوقفته قهرمانة المقتدي الخليفة العباسي على الأرامل سنة ٤٩٢هـ/١٠٥٨م يقوم باستقبالهم والعناية بهم مسكناً ومأكلاً وملبساً ورعاية. وكان لزين الدين علي كجك للأرامل داراً تموله أوقاف موقوفة عليه[١] ولا يعرف أن كان هذا الدار في الموصل أو أربل. وقد بنى مظفر الدين كوكبوري داراً للأرامل هو الآخر[٢].

* **وقف العميان:**

لم يحرم العميان الذين حرموا نعمة البصر من أوقاف خاصة بهم تساعدهم في معيشتهم، وقد اختلف العميان في عهد الخليفة العباسي المأمون مع القاضي المشرف على أوقافهم يحيى ابن أكثم، في كيفية صرف ما يخصص لهم، وإن كان النص لا يشير إلى طبيعة الخدمات التي كان الوقف يقدمها لهم، وهل هي مجرد نقود أو خدمات[٣].

ويشير ابن خلكان[٤] إلى أن كوكبوري كان قد خصص إحدى الخانقاهات الأربع التي بناها في إربل لإقامة العميان، حيث قرر لهم كل ما يحتاجون إليه، بل وكان يزورهم بنفسه في كل عصرية اثنين وخمسين واحداً واحداً يمازحهم ويباسطهم، ومن المعروف عن كثير ممن فقد نعمة البصر إن الله عوضهم عما أخذ منهم فهماً وذوقاً وذكاءً قد لا يوجد لدى من رزق نعمة البصر.

* **وقف الحلي والملابس:**

إن الغرض من هذا الوقف، هو توفير الملابس الفاخرة والغالية، فضلاً عن الحلي الذهبية للعرائس، الذين يزفون إلى أزواجهم، ولا يستطيعون الحصول على هذه الملابس والحلي، وكان أول من سن هذه السنة الحسنة في موضوع الحلي هي أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، حيث أوقفت عشرين مثقالاً من الحلي لبنات آل الخطاب[٥] كما ورد ما يشير إلى وقف الملابس الغالية التي قد تكون من الخز وهو أغلى أنواع الأقمشة، ويسترد الوقف هذه الملابس بعد استعمالها[٦].

---

(١) الذهبي، العبر: ٥/ ١٢٢.

(٢) ابن خلكان، المصدر السابق: ٤/ ١١٦، الذهبي، العبر: ٥/ ١٢٢.

(٣) القزويني، المصدر السابق: ص٣١٨.

(٤) المصدر السابق: ٤/ ١١٦.

(٥) ابن قدامة، الشرح: ٦/ ١٩٠.

(٦) ابن العطار، المصدر السابق: ص٢٠٦.

* **وقف الحمامات:**

اهتمت الشريعة الإسلامية بالنظافة، اهتماماً بالغاً فالاغتسال والوضوء والطهارة، شرط من شروط صحة الصلاة والصيام، وهكذا شهدت دار الإسلام إيقاف الكثير من الحمامات لكي يستحم بها المسلمين مجاناً، فضلاً عن خدمات أخرى تقدم لهم أثناء وبعد الاستحمام، ويمكن اعتبار حمام يمكان في بذخشنان[1]، نموذجاً لحمامات الوقف بخدماته المتطورة، فقد كان كما يقول القزويني[2] تحفة معمارية رائعة، وقد بناه الحكيم ناصر خسرو ملك بلخ، وأصبح أشهر حمام في خراسان، وكان من شروط هذا الحمام أن لا يؤخذ ممن يدخله أجرة الحمام، وكان مزوداً بالسطول، والطاسات، والمآزر، والطين، والأمشاط والمناشف، وجميع ما يحتاج إليه المستحم، فإذا أكمل استحمامه وخرج يؤتى له بالمأكولات. أي أن الحمام لا يكتفي بتقديم كل ما يحتاج إليه المستحم، وإنما يقدم الطعام أيضاً.

* **وقف القصور للفقراء:**

يشير كرد علي[3] إلى أن نور الدين زنكي أوقف قصراً على الفقراء في ربوة دمشق[4] حيث كان هذا المكان متنزهاً يعج بقصور الأغنياء، فعز على هذا الحاكم الراشد أن لا يستطيع فقراء الأمة أن يتمتعوا مثلهم، فبنى هذا القصر، وأوقف عليه قرية داريا وهي أعظم قرى الغوطة وفي ذلك يقول تاج الدين الكندي.

إن نور الدين لما أن رأى ... في البساتين قصور الأغنيا

عمر الربوة قصرا شاهقا ... نزهة مطلقة للفقرا

ولم يرد في النص شروط وكيفية دخول هذا القصر من قبل الفقراء.

---

(١) قال عنها ياقوت بلدة تقع في أعلى إقليم طخارستان متاخمة للترك، وبينها وبين بلخ ثلاثة عشر مرحلة، تحتوي على كثير من المعادن الثمينة. معجم البلدان: ١/ ٣٦٠.

(٢) المصدر السابق: ص٤٩٠.

(٣) خطط الشام: ٥/ ١٠٩.

(٤) الربوة: محلة تقع في ضاحية مدينة دمشق، على سفح جبل يجري من تحته نهر بردى وهي من أنزه مواضع الدنيا. ياقوت، معجم البلدان: ٣/ ٢٦.

* **وقف غسل وتكفين الموتى ودفنهم:**

أجازت الشريعة الإيقاف على أكفان الموتى، وحفر القبور[1] وكان الأمير بدر الدين بن حسنوية الكردي يصرف في كل شهر عشرين ألف درهم على تكفين الموتى[2] كما عرف عن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، أنه أوقف على تكفين موتى المسلمين[3] وأوقف الظاهر بيبرس وقفاً على تكفين الأموات الغرباء بالقاهرة ومصر[4] وهنا نجد أن التخصيص مهم إذ قد يكون الغرباء لا يملكون ما يشترون به الكفن وأجور الغسل وحفر القبر، فيقوم الوقف بتمويل كل ذلك. وما أكثر حاجة المسلمين اليوم إلى مثل هذا الوقف لا سيما ونحن في عصر أصبح فيه الإنسان المسلم يعاني من هموم الدنيا حتى بعد وفاته.

ويشير ابن الساعي[5] إلى وجود وقف عام في بغداد على تكفين الموتى من فقراء المسلمين. وأشار المقريزي[6] إلى وقف مشابه في مصر لتمويل عمليات الدفن ووصفه بأنه (من أكثر الأوقاف نفعاً).

* **وقف المنتزهات:**

وفر الوقف الإسلامي أماكن للنزهة، كان يخرج إليها سكان المدينة، لجمالها وحدائقها الغناء، ومياهها الرقراقة، مما لا يتوافر لكثير من مدننا الإسلامية في الوقت الحاضر، فتوفير أماكن للراحة واللهو البريء مما يدعو إليه ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ {الأعراف: ٣٢} وفي هذا الميدان أنشأ منصور مولى عيسى بن جعفر العباسي والملقب زلزل ت ١٧٤هـ/ ٧٩٠م بركة في مدينة بغداد، حملت لقبه وسبلها في سبيل الله[7] وكانت هذه البركة تقع بين الكرخ والصراة، وباب محول وسويقة أبي الورد مما يدل على كبر مساحتها وسرعان ما بينت محلة على هذه البركة حملت اسمها[8] وقد بلغ من جمال هذه البركة أن قال فيها تفطويه:

(١) الخصاف، المصدر السابق: ص٣٨.
(٢) ابن الجوزي، المصدر السابق: ٧/ ٢٧٢.
(٣) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٢٩٥.
(٤) اليونيني، المصدر السابق: ٣/ ٢٥٢، ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٧/ ١٨٠.
(٥) المصدر السابق: ٩/ ١١١.
(٦) السلوك: ح١، قسم٢: ص١٣٨.
(٧) ابن قنيتو، المصدر السابق: ص١١٩.
(٨) ياقوت، معجم البلدان: ١/ ٥٩٢.

لو أن زهيراً وامرأ القيس أبصرا
ملاحة ما تحويه بركة زلزل
لما وصفا سلمى ولا أم سالم
ولا أكثرا ذكر الدخول فحومل[1]

وفي مصر كانت بركة الحبش في القاهرة والمشرفة على نهر النيل تسير نفس المنوال وكانت تعد من أجمل وأكبر متنزهات مصر[2].

* **أوقاف الجسور والقناطر:**

تلعب الجسور والقناطر دوراً كبيراً في تسهيل الأنشطة الإنسانية المختلفة ورغم أن الدولة الإسلامية، أخذت على عاتقها القيام بهذه الأعمال العامة، إلا أن الوقف الإسلامي ساهم في دعم هذه الأعمال التي تخدم المجتمع بأكمله، ولدينا شواهد كثيرة على ذلك فعلى صعيد الجسور، نجد أن شباشي الحاجب مولى شرف الدولة البويهي ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م أوقف خان النرسي في الكرخ ببغداد، لتنظيم احتياجات جسر بغداد[3]. ولم يحدد النص موقع هذا الجسر. إذ أن في بغداد جسوراً كثيرة سطحية، تقوم على القوارب، وليست جسوراً ثابتة. ويشير ابن عذاري[4] إلى قيام السلطان الموحدي عبد الرحمن عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م بإنشاء جسر على وادي اشبيلة في الأندلس لعبور الناس من أهلها ولعبور العساكر وسبلها للمسلمين للعبور في مصالحهم دون مقابل. كما أشار ابن الساعي[5] إلى أن بنفشا جارية المستضيء والتي كانت تتمتع بنفوذ قوي في خلافته أوقفت مرافق مختلفة أخرى من جملتها جسراً على نهر دجلة، كما أشار ابن الساعي[6] إلى جسور وقفية أخرى أنشأها الأمير مجاهد الدين قايماز في دولة الأتابكة في عهد السلطان نور الدين أرسلان شاه في الموصل والمناطق التابعة لها.

وفي العصر المملوكي نجد أن الظاهر بيبرس، أهتم كثيراً بإنشاء الجسور الوقفية، منها جسر دامية على نهر الأردن، في منطقة الغور، فضلاً عن جسور وقفية أخرى على

---

(١) ابن قنيتو، المصدر السابق: ص١١٩.
(٢) ياقوت، معجم البلدان: ١/ ٤٠١.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم: ٧/ ٢٨٨.
(٤) البيان المغرب: ٤/ ١٣٨.
(٥) المصدر السابق: ٩/ ٨٩، ابن الكازروني، المصدر السابق: ص٢٣٩.
(٦) المصدر السابق: ٩/ ٨.

نهر الأردن وفي مناطق الساحل الشامي[1] وكانت أهميتها بالدرجة الأولى لأغراض عسكرية فضلاً عن أهميتها الاقتصادية والاجتماعية في هذه الأقاليم التي شهدت نشاطاً عسكرياً ضخماً ضد الصليبيين تارة وضد المغول تارة أخرى، فضلاً عن ضبط حالات التمرد والعصيان. كما يشير اليونيني[2] إلى قيام الظاهر بيبرس ببناء جسر وقفي على بحر ابن منجا بمصر. وقد سار السلطان الناصر بن قلاوون على خطاه، حيث أنشأ بدوره جسراً وقفياً في دامية على نهر الأردن[3] كما أشار ابن كثير[4] إلى قيام الأمير آقوش الصالحي بإنشاء أوقاف على بعض الجسور بمدينة دمشق.

أما على صعيد القناطر، فقد أشار ابن حوقل[5] إلى وقفيات لعقد القناطر... كما بنى مجاهد الدين قايماز قناطر يمولها الوقف[6] وبنى الأمير المملوكي سيف الدين علي ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م بدوره قناطر وأوقف عليها[7].

ولابد من الإشارة إلى الصعوبات الفنية والهندسية التي كانت تقف أمام إنشاء الجسور آنذاك سواءً كانت جسوراً ثابتة أو متحركة طافية، فضلاً عن القناطر، والتي كانت تحتاج جميعها إلى تمويل سخي مستمر لمواجهة الكوارث الطبيعية والتخريبات التي يحدثها العدوان الخارجي في هذه المنشآت. ولابد من الإشارة أخيراً إلى ما ذكر لا يمثل إلا قطرة من بحر في وقف الجسور والقناطر، فعدم إشارة المصادر إلى وقفيات أخرى للجسور والقناطر في أماكن غير ما ذكر لا ينفي وجودها، ومما يساعد على شحة المعلومات في هذا الميدان، فقدان كتب الوقف مع تقادم الزمن.

* **وقف مياه الشرب:**

أوقف المسلمون على صيانة الأنهار وإصلاح مجاريها عند دخولها المدن، فقد أشار الأصطخري[8] إلى أن نهر سمرقند بطن واديه عند دخوله المدينة بالرصاص، ويرفع من خلال مسناة لوجود الخندق حول السور، حيث يخترق المدينة، وقد أوقف على هذا النهر

---

(١) ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٧/ ١٩٤، الكتبي، فوات الوفيات: ١/ ١٦٨.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٤٤٣.

(٣) المصدر نفسه: ٣/ ٢٥٩.

(٤) المصدر السابق: ١٣/ ٢٨١.

(٥) المصدر السابق: ص٣٨٦.

(٦) ابن الساعي، المصدر السابق: ٩/ ٨.

(٧) ابن كثير، المصدر السابق: ١٣/ ١٠٨.

(٨) المصدر السابق: ص٣١٦-٣١٧، ابن حوقل، المصدر السابق: ص٣٠٦.

لتمويل هذه النفقات وعلى الذين يحرسونه صيفاً وشتاءً، وكانوا يختارون من المجوس، ولربما تم اختيار هؤلاء من المجوس الغرباء عن أهل المدينة، لكي لا يتساهلوا في عملية حفظه وصيانته.

ويشير ابن الجوزي[1] في إحداث سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٨٠م إلى الدمار الذي ألحقته فتنة المدعو تليا الذي أدعى أنه المهدي المنتظر، بمنشآت وأبنية مدينة البصرة، ومن جملتها أوقاف الدولايب التي أوقفها والي البصرة محمد بن سليمان العباسي، والتي كانت توفر مياه الشرب لأهل البصرة من خلال رفعه إلى قناة من الرصاص تنقله بدورها لمسافة ٦كم إلى خزانات ضخمة في منطقة المربد، وقد سار على خطى محمد بن سليمان، رجل آخر من أهل الخير في البصرة يدعى طالوت بن عباد، حيث أنشأ خزاناً كثيراً للماء في البصرة وأوقف عليه وقوفاً.

ويشير ابن عساكر[2] إلى أن قنوات الماء في دمشق، كان لقسم منها أوقاف بينما القسم الآخر تجري عليه الصدقات، كما ذكر ابن شداد[3] أن الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي ت ٦١٣هـ/ ١٢١٦م عمل قناة كبيرة للماء في دمشق لتزويدها بمياه الشرب، وصرف عليها الكثير وأوقف عليها لكي تستمر في أداء واجبها. كما يشير ابن العديم[4] إلى أن الملك الظاهر الأيوبي قام أيضاً ببناء قناة أخرى مهمة عام ٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م في مدينة حلب قاعدة حكمه لتزويدها بمياه الشرب، حيث بطنها بالكلس، ووزع المياه من خلالها إلى محلات حلب جميعاً، حيث بنى لهذا الغرض قساطل وأوقف عليها وعلى القناة، ومن الجدير ذكره أن ياقوت[5] أشار إلى أن المياه من هذه القناة، ربطت مباشرة بدور حلب، مما يدل على شبكة على الأغلب من الأنابيب الرئيسية التي توصل المياه، والمصنوعة ربما من الفخار. ويشير الغزي[6] إلى قيام والي حلب المملوكي سيف الدين أرغون الناصري عام ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م بإنشاء جسور وأجرى فوقها الماء من نهر الساجور إلى نهر حلب وأوقف عليها أوقافاً عظيمة لتمويلها وترميمها.

---

(١) المصدر السابق: ٩/ ٥٣.

(٢) تاريخ: ٢/ ١٥٢.

(٣) المصدر السابق: ح١، قسم١: ص١٤٣-١٤٤.

(٤) زبدة الحلب: ٣/ ١٦٣، الغزي، نهر الذهب: ١/ ٦٠-٦٣.

(٥) معجم البلدان: ١/ ١١٩.

(٦) المصدر السابق: ١/ ٥٦-٥٧.

كما أن خليج النيل الذي كان يزود القاهرة بالمياه، وخاصة القصور الفاطمية والذي كان طوله أقل من ميل، كان موقوفاً عليه ثلاثمائة قرية[1] وهذه القرى الكثيرة بإمكانياتها الزراعية والحيوانية قادرة على الإيفاء باحتياجات هذا المرفق الحيوي، لسكان القاهرة.

ويشير المقريزي[2] إلى قيام الأمير المملوكي علم الدين سنجر عام ٧١٣هـ/ ١٣١٣م بإيصال عين ماء إلى مدينة الخليل في فلسطين، وجعل أوقاف لها. وعلى صعيد إنشاء الصهاريج والخزانات، أشير إلى أوقاف خصصت لإنشاء وصيانة صهاريج أو خزانات لتوفير المياه لسكان المدن، فقد أنشأت هيلانة جارية الخليفة المنصور العباسي حوضاً في الجانب الشرقي من بغداد، وأوقفت عليه[3]. كما أشار ناصر خسرو[4] إلى أنه شاهد في مدينة تنيس المصرية، خزانات ماء لتمويل السكان الغرباء الطارئين على هذه المدينة بالماء الصالح للشرب، حيث الحاجة إلى الماء كبيرة لوقوعها على البحر.

وعلى صعيد الإيقاف على الآبار لتوفير مياه الشرب، فقد أشار ابن كثير[5] إلى وجود وقف على بئر وبغل لتوفير المياه لمدرسة محمد بن قدامة المقدسي، وذلك لخدمة منتسبي هذه المدرسة من الطلبة والإداريين والخدم. كما أشار ياقوت[6] إلى مزارع وقفية مخصصة لبئرين حفرهما وزير مصر أبو بكر المارداني في بني وايل، بحضرة الخليج لتوفير مياه الشرب. كما أشير إلى وقف المزملات التي تعمل على حفظ وتقديم المياه في المناطق التي يحتاج إليها الناس في التجمعات السكنية، وكان من المعروف أن تقام حبوب إلى جانب هذه المزملات مع خادم مقيم[7] عليها وفي الصيف المعروف بحرارته الكبيرة في معظم مناطق دار الإسلام. كانت هذه المزملات تقدم الماء البارد الممزوج بالثلج، ويمول كل ذلك الوقف، وقد شاهد الأصطخري[8] في سمرقند ألفي مكان يقدم فيها الماء المجمد مسبلاً.

---

(١) ناصر خسرو، المصدر السابق: ص٩٧.

(٢) السلوك: ج٢، قسم١: ص١٣١.

(٣) البغدادي، المصدر السابق: ١/ ٤٣٧.

(٤) المصدر السابق: ص٣٩.

(٥) المصدر السابق: ١٣/ ٣٢.

(٦) معجم البلدان: ١/ ٤٠١.

(٧) ابن الكازروني، المصدر السابق: ص٢٦٢، مجهول الحوادث: ص٩٢.

(٨) المصدر السابق: ص٢٩٠.

أما في المغرب العربي، فقد أدى عدم وقوع معظم مدن المغرب العربي على أنهار، إلى إيجاد مشكلة كبيرة، تتمثل في كيفية توفير المياه لأغراض الشرب، فضلا عن الحاجات الأخرى وهكذا ظهر مصطلح المواجل في المغرب، وهي خزانات كبيرة من الحجارة، تحفظ فيها المياه وتزود هذه المواجل بالمياه، عبر قنوات من مناطق العيون، وقد اشتهر أحمد بن محمد بن الأغلب بإنشائه المواجل، حيث قام بإنشاء الموجل الكبير على باب تونس عام ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م والذي أنجز عام ٢٤٨هـ/ ٨٦٢م[١] أي أن إنشائه استغرق حوالي ثلاث سنوات مما يدل على ضخامة العمل ودقة البناء. وفي الأندلس الفردوس المفقود نجد أن السلطان عبد المؤمن الموحدي قام بإنشاء مشروع لتزويد إشبيلية بمياه الشرب من خلال ساقية جلب فيها الماء إلى المدينة[٢].

إن هذه الخدمات لا تزال تفتقر إليها كثير من بلدان العالم الثالث، فضلا عن الخدمات التي تعمل على المحافظة على نظافة المياه، علما بأن العالم المتقدم في أمريكا وأوربا واليابان لم يحصل مواطنوه على هذه الخدمات إلا في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي/ القرن الثالث عشر الهجري، بينما تحقق هذا الإنجاز في الحضارة الإسلامية، قبل أكثر من أحد عشر قرنا.

* **وقف الصحاف الزجاجية:**

يشير ابن بطوطة[٣] إلى أنه شاهد في مدينة دمشق وقفا يمول الصحون التي تتكسر بيد المماليك العبيد فيقوم الوقف باستبدال الصحن المكسور بصحن جديد وعلق على ذلك بقوله "وهذا من أحسن الأعمال فإن سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبرا للقلوب. جزا الله خيرا من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا".

(١) ابن عذاري، المصدر السابق: ١/ ١٣١.
(٢) المصدر نفسه: ٤/ ١٣٨.
(٣) المصدر السابق: ص٧٤.



الفصل الخامس

خدمات الأوقاف الصحية
وأوقاف متفرقة

خدمات الأوقاف الصحية وأوقاف متفرقة

أ. خدمات الأوقاف الصحية:

اهتم الإسلام بصحة الإنسان، كما اهتم بعقيدته، إذ لا قيمة فعلية للإنسان لأداء واجب الخلافة في الأرض، إلا من خلال تمتعه بصحة جيدة، تمكنه من أداء مهامه التعبدية وواجباته تجاه نفسه وأهله وأمته، وذكرٌ الإسلام قرآناً وسنة بنعمة العافية وضرورة المحافظة عليها[(١)]. وهكذا شهدت الحضارة العربية الإسلامية، إبداعاً كبيراً في تقديم الخدمة الطبية للمرضى بغض النظر عن موقفهم الاجتماعي وإمكانياتهم المادية. مما جعلنا نشعر اليوم بالإشفاق على الواقع الصحي الذي يعاني منه إنسان القرن العشرين، على الرغم من التقدم العلمي الهائل، على صعيد التشخيص والعلاج، إذ أن هذه الإنجازات الطبية، هي في معظم الأحيان في خدمة من يملكون فقط، كما أخذت مهنة الطب تنحدر في مستواها الإنساني الرفيع في ظل غياب القيم الإسلامية، والإنسانية النبيلة، إلى مستوى السمسرة، والبيع والشراء، حالها حال أية سلعة، أو خدمة في السوق التجاري، وهذا هو الكفر بعينه في لغة الطب[(٢)]. لقد عالج الوقف الإسلامي في هذا المحور بناء المستشفيات، وضمان استمرار خدماتها الصحية المجانية، من خلال الفحص والدواء والأكل والشرب والمبيت الصحي الآمن، ورواتب الكادر الطبي، والإداري والخدمي، كما عالج بناء مدارس للطب ملحقة أو مستقلة عن المدارس لتخريج الأطباء.

---

(١) ينظر مثلاً قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ {الإسراء: ٨٢} وقوله تعالى: ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (83) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ {الأنبياء: ٨٤}، وينظر قوله ﷺ "من أصبح آمناً في سربه معافاً في بدنه، عنده قوت يومه فقد حيزت الدنيا". البخاري، الأدب المفرد: ص٦٥ وينظر: الترمذي، صحيح: ٤/ ٥.

(٢) ورغم كل شيء فإن بعض الأطباء، مدفوعون بنوازع إنسانية في بعض الأحيان، وبدوافع سياسية وعقدية، واستخباراتية في معظم الأحيان، يقدمون خدماتهم السخية، في البلدان التي تعاني من الأزمات والكوارث، كالحروب الأهلية، والمجاعات والفيضانات والزلازل... وقد يفقد بعضهم حياته أثناء أدائه لواجبه، كما هو الحال في العاملين ضمن منظمة أطباء بلا حدود، ومنظمة الآباء البيض، وعشرات المنظمات الأخرى الممولة من بعض الدول، ومن الكنائس الكاثوليكية والبروتسنانتية، والأنكليكانية، ويلاحظ غياب المنظمات الطبية الإسلامية، ولاسيما في مناطق الكوارث الإسلامية، وإذا وجدت فهي بصورة متواضعة، وتؤكد على الجانب المهني دون دمجه بالجانب العقدي. وما حدث في أفغانستان والبوسنة والهرسك والشيشان وكوسفو والصومال دليل على ذلك.

شهد العصر الأموي في خلافة الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٤م ظهور أول مستشفاً يقدم الخدمات الطبية المجانية لعامة الناس[١]، وعلى الرغم من أن المؤرخين الأوائل أشاروا إلى الخدمات التي أوجدها الوليد لذوي الأمراض المزمنة، فإنه لم يصل إلينا شيئاً عن طبيعة هذه الخدمات حالها حال الكثير من الإنجازات الني حققتها الدولة الإسلامية في العصر الأموي وأهيل عليها التراب من قبل أعدائهم العباسيين.

⌘ المستشفيات في العصر العباسي:

لم تنقل إلينا المصادر في العصر العباسي الأول إلا شيئاً يسيراً، عن الخدمات الطبية التي أنشأها خلفاء بني العباس، في عز قوتهم، رغم اهتمامهم الشديد بتوفير أفضل الرعاية الطبية لشخوصهم من خلال إحاطة أنفسهم بأمهر الأطباء النصارى خاصة الموجودين في دار الإسلام[٢] فقد أشار الطبري[٣] إلى أن المهدي ١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٤-٧٨٥م أمر عام ١٦٢هـ/ ٧٧٨م بتقديم رواتب للمجذومين في جميع أقاليم الدولة الإسلامية. ولم يشر الطبري إلى وقفيات أوقفت لتمويل هذا العمل الإنساني، وهو على الأغلب من بيت المال، وليس هناك ما يشير إلى استمرار تقديم هذه الخدمات بعد وفاة المهدي. وهنا تكمن أهمية الوقف، في استمرار التمويل وعدم ارتباطه بتغير الأوضاع السياسية، أو الاقتصادية في الدولة.

أما العصر العباسي الثاني، فقد شهد ظهور المستشفيات[٤] المنظمة والموقوف عليها بصورة واضحة، حيث يعد المستشفى الذي أنشأه أمير مصر أحمد بن طولون ٢٥٤-٢٧٠هـ/ ٨٦٨-٨٨٣م في الفسطاط أول مستشفاً، وردت عنه تفاصيل لا بأس بها، وقد

---

(١) الهمذاني، مختصر: ص١٠٦: المقريزي، المواعظ: ٢/ ٤٠٥.

(٢) سليمان بن حيان الأندلسي، طبقات الأطباء: ص٦٣-٦٧، ابن أبي اصبيعة، عيون الأنباء: ص١٨٣-٢٠١، ينظر عن هؤلاء الخلفاء وعلاقتهم بأطبائهم واهتمامهم بصحتهم. ابن ابي اصبيعة، المصدر السابق: ١/ ١٢٣،١٢٦،١٢٨.

(٣) تاريخ: ٨/ ١٤٢، ابن الأثير، الكامل: ٥/ ٦٢.

(٤) أطلق مصطلح المارستان، والبيمارستان على المستشفى بصورة عامة في التاريخ الإسلامي، وخاصة المشرق مع استثناءات بسيطة والمارستان كما يقول الرازي هو دار المرضى. مختار الصحاح: ص٦٢١، السمعاني، أنساب: ٥/ ١٠٢. والكلمة فارسية من بيمار أي المريض وستان المحل أي دار المرضى. السيد أدي شير، الألفاظ الفارسية المصرية: ص٣٣، ١٤٥، وسميت المستشفيات أحياناً باسمها العربي الصريح وهو دار المرضى كما ورد في كتاب نجيب الدين السمرقندي ت ٦١٨هـ (الأسباب والعلامات) عند حديثه عن مستشفيات بغداد. الخالدي/ ليفي، اقراباذين السمرقندي، مجلة المشرق: ص٤١٣، القزويني، المصدر السابق: ص٤٧٦، واستخدم ابن الفوطي، مصطلح دار الشفاء ودار المرضى. تلخيص مجمع الآداب: ٢/ ١٠٣٥،١١٨٩. لذلك سيتم التعامل مع كلمة مستشفى بدل كلمة "البيمارستان" الفارسية فهي أقرب إلى الواقع لغة وعقيدة.

ألحق بهذا المستشفى صيدلية، كان موقعها قرب مسجد أحمد بن طولون[١]، وقد بلغت كلفة إنشاء هذا المستشفى ستين ألف دينار[٢].

⌘ **مستشفيات بغداد :**

ويشير ابن أبي أصيبعة[٣] إلى مستشفى وقفي آخر أنشأه بدر المعتضدي ت ٢٨٩هـ/ ٩٠١م في محلة المحرم ببغداد، وكان يموله وقف لسجاح أم الخليفة المتوكل، ولم تشر المصادر كثيراً إلى هذا المستشفى، سوى ما أورده ابن الجوزي[٤] في أحداث سنة٣٠٤هـ/ ٩١٦م أن الطبيب سنان بن ثابت[٥] تقلد أمر الإشراف على المستشفيات الخمسة الموجودة في بغداد، ويفتقر هذا النص إلى التفاصيل، حيث لا يورد أسماء المستشفيات الأربعة الأخرى الموجودة في بغداد. ولا من أنشأها، فضلاً عن تاريخ إنشاءها وموقعها وطبيعة الخدمات التي تقدمها، وفيما يتعلق بتمويلها، فقد كان الأمر يتم أما عن طريق الوقف أو عن طريق بيت المال، يدل على ذلك أشراف الدولة المباشر عليها.

ويعد افتتاح مستشفى السيدة أم المقتدر عام ٣٠٦هـ/ ٩١٨م ثالث إشارة بصورة واضحة إلى معلومات موثقة عن وقفيات المستشفيات في بغداد، فقد أشار ابن الجوزي[٦] إلى موقعه في منطقة سوق يحيى[٧] على نهر دجلة، وعين فيه أطباء يشرف عليهم الطبيب سنان بن ثابت. وبلغت نفقات هذا المستشفى في الشهر ٦٠٠ دينار وسرعان ما قام المقتدر ببناء مستشفى يحمل اسمه (المقتدري) في منطقة باب الشام[٨] وأشرف عليه أيضاً الطبيب سنان بن ثابت، وكانت نفقاته في الشهر ٢٠٠ دينار[٩].

---

(١) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٤٠٥.
(٢) ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٣/ ١٢.
(٣) المصدر السابق: ١/ ٢٢١.
(٤) المنتظم: ٦/ ١٣٩، لدى ابن كثير مستشفاً واحداً فقط، ورواية ابن الجوزي أكثر دقة. البداية والنهاية: ١١/ ١٢٦، ابن أبي اصيبعة: ١/ ٢٢٢.
(٥) سنان بن ثابت: أبو سعيد الطيب، من أشهر أطباء عصره، أسلم على يد الخليفة العباسي القاهر توفي في بغداد سنة ٣٣١هـ/ ٩٢٤م. ابن الجوزي، المنتظم: ٦/ ٣٣٢.
(٦) المصدر السابق: ٦/ ١٤٦، علماً بأن ابن تغري بردي أشار إلى أن نفقاته السنوية كانت سبعة آلاف دينار، وهو رقم مقارب لما أورده ابن الجوزي، النجوم الزاهرة: ٣/ ١٣٩، ابن كثير، المصدر السابق: ١١/ ١٢٨.
(٧) سوق يحيى: محلة من محلات بغداد تقع في الجانب الغربي منها بين الرصافة ودار المملكة منسوبة إلى يحيى بن خالد البرمكي. ياقوت، معجم البلدان: ٣/ ٢٨٤-٢٨٥.
(٨) باب الشام: محلة من محلات الجانب الغربي من بغداد، ياقوت، معجم البلدان: ١/ ٣٠٨.
(٩) ابن الجوزين المنتظم: ٦/ ١٤٦، ابن أبي اصبيعة: ١/ ٢٢٢.

كما تشير رواية ابن كثير[1] عن هـذا المستشـفى إلى أن الخليفـة بنـاه بتشـجيع مـن الطبيب سنان، وأشار ابن أبـي أصيبعـة[2] إلى أنـه كـان ملحقـاً بـهذا المستشـفى مدرسـة لتدريب الأطباء أيضاً. ويبدو من حجم النفقات التي كانت تصرف على هذا المستشـفى، إنه كان دون مستشفى أم المقتدر بضعفين، فـالأول نفقاتـه الشـهرية ٦٠٠ دينـار والثـاني ٢٠٠ دينار، كما يلاحظ أن التوزيع الجغرافي، لهذه المستشفيات في بغداد، يدل على رغبـة المسؤولين والأطباء معاً في تقديم الخدمة الطبية المجانية، في قلب المناطق المكتضة بالسكان، آخذين بنظر الاعتبار، صعوبة المواصلات، التي تعتمد على النقل النهري بواسطة السـفن وعلى الحيوانات المختلفة براً، وحتى مشياً على الأرجل لدى الفقراء.

ويشير ابن الجوزي[3] إلى قيام الوزير الصالح علـي بـن عيسـى بـن الجـراح ببنـاء مستشفى في منطقة الحربية[4] في بغداد وأنفق عليه من ماله، ولا يشير إلى وقفيات أوقفـت عليه، إلا أن عدم الإشارة لا ينفي ذلك، لما عرف عن هذا الوزير من أعمال الخـير والـبر والإحسان. كما وردت إشارة إلى مستشفى عاشر في بغداد بناه الوزير علي بن الفـرات[5] عام ٣١١هـ/ ٩٢٣م في درب الفضل[6] وكانت نفقاته الشهرية ٢٠٠ دينار[7] ولم يرد شيء عن أوقافه.

كما يشير الهمذاني[8] إلى قيام أمـير الأمـراء بجكـم عـام ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م في عـهد الخليفة المتقي ٣٢٩-٣٣٣هـ/ ٨٤٣-٨٤٧م ببناء مستشفى في بغداد بتشجيع من سنان بن ثابت وهذا المستشفى لم يرد ما يدل على وقفياته أو طبيعتها.

---

(١) المصدر السابق: ١١/ ١٢٨.

(٢) المصدر السابق: ١/ ١٤٤.

(٣) المنتظم: ٦/ ١٢٨.

(٤) الحربية: محلة كبيرة من محلات بغداد تقع عند بـاب حـرب الـذي ينسـب إلى قـائد الخليفـة المنصـور حرب بن عبد الله البلخي، وتقـع هـذه المحلـة قـرب مقـبرة بشـر الحـافي. يـاقوت، معجـم البلـدان: ٢/ ٢٣٧.

(٥) علي بن الفرات: من وزراء بني العباس المشهورين وزر للمقتدر خمس مرات ٢/ ٢٣٧ كـان ذا مـال جزيل بلغ عشرة ملايين من الدنانير كان مع كفاءته فيه عسف قتل عام ٣١٢هـ/ ٨٢٧م. ابـن كثـير، المصدر السابق: ١١/ ١٥١-١٥٢.

(٦) درب الفضل: ورد لدى ياقوت باسم درب المفضل وهي محلة شرقي بغـداد نسـبة إلى مـولى الخليفـة المهدي المفضل بن زمام. معجم البلدان: ٢/ ٤٤٨.

(٧) ابن الجوزي، المنتظم: ٦/ ١٧٤.

(٨) تكملة تاريخ الطبري: ١١/ ٣٢٦، مسكويه تجارب الأمم: ٦/ ٤٢٠.

ويعتبر مستشفى السلطان معز الدولة البويهي، الذي بدأ بإنشائه عام ٣٥٥هـ/ ٩٦٥م في بغداد أول مستشفى أشير بشكل واضح إلى أوقاف أوقفت عليه في عهد السيطرة البويهية، مع تفاصيل عن طبيعة هذه الأوقاف، فقد كان ضمن أوقافه مستغلات في منطقة الرصافة، وضياعاً في منطقة كلواذي، وقطربل، وجرجرايا، بلغت وارداتها خمسة آلاف دينار[١]. فضلاً عن بناء قناطر على الخندق في الياسرية والزياتين ببغداد أوقف ريعها على المستشفى[٢].

⌘ مستشفى عضد الدولة البويهي ببغداد:

بنى السلطان البويهي عضد الدولة مستشفاه في الجانب الغربي من بغداد، ويعتبر بحق أشهر وأكبر مستشفاً في بغداد. استمر في أداء خدماته لقرون، رغم تقلب الأوضاع السياسية والاقتصادية، والسبب في ذلك يعود إلى الأوقاف السخية التي كانت تموله، وقد افتتح هذا المستشفى عام ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م[٣].

كان هذا المستشفى يقع بين محلة الشارع ومحلة باب البصرة، ونظراً لشهرته فقد سميت المنطقة التي يقع فيها فيما بعد باسمه فأصبحت تسمى سوق المارستان[٤] ويشير سوسة[٥] إلى أن موقعه كان موضع قصر الخلد أو قريباً منه، ولم يصلنا شيئاً ذا بال عن طبيعة فن العمارة، الذي طبق عليه سوى ما ذكره التطيلي[٦] من أنه يتكون من مجموعة من البنايات.

أما الأوقاف التي كانت تموله فقد أشارت بعض المصادر إلى قسم منها وليس إلى جميعها فابن الجوزي[٧] يشير إلى بستان الجسر وما حوله من الأراضي الزراعية كانت ضمن أوقافه، كما أشار البغدادي[٨] إلى أن من أوقافه قرية دباها من نواحي نهر الملك من أعمال بغداد، فضلاً عن قرية أخرى تعرف ببواسط، تقع أيضاً على نهر الملك وتبعد عن بغداد أربعة فراسخ، ولا يشير البغدادي إلى مساحة الأراضي الزراعية، في كلا القريتين

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ٧/ ٣٣.
(٢) المصدر نفسه: ٧/ ٢٨٨.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم: ٧/ ١١٢، ويقارن رواية ابن خلكان التي تشير إلى أن الافتتاح كان عام ٣٨٨هـ/ ٩٧٨م. وفيات الأعيان: ٤/ ٥٤.
(٤) ابن جبير، رحلة: ص١٦٢.
(٥) فيضانات بغداد: ١/ ٢١٢.
(٦) المصدر السابق: ص١٣٤-١٣٥.
(٧) المنتظم: ٩/ ٦٠.
(٨) مراصد الإطلاع: ٢/ ٥١٢، ٣/ ١٤٢٠.

ولا إلى إيرادها. إلا أن وقوع هاتين القريتين على نهر الملك المشهور بإنتاجه الزراعي الجيد، المعتمد على منظومة من الإرواء الصناعي، فضلاً عن أراضيه الخصبة يشير بما لا يقبل الشك، إلى أن إيرادهما كان سخياً. وأشير كذلك إلى سوق وقفي يتكون من مائة دكان، ضمن أوقافه[1]. كما أشير إلى شراء أوقاف جديدة له، أثناء تولي الشيخ السوسنجردي، أمر الإشراف عليه[2] فضلاً عن مساعدات سخية كان يتلقاها أحياناً من أهل الخير تشتمل أيضاً على أدوية[3] وهذه الأوقاف السخية والمساعدات، هي التي جعلت صاحب الحوادث الجامعة[4] يشير إلى أن مخزن الأدوية التابع للمستشفى في عهده كان يحتوي على علاجات تمول المستشفى لمدة سنة، كما وصف ابن خلكان[5] تجهيزاته من الآلات والأجهزة الطبية، بأن عضد الدولة زوده من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه.

وكان أول من تولى رئاسة هذا المستشفى الطبيب المشهور محمد بن زكريا الرازي[6].

ويشير ابن الجوزي[7] إلى أن هذا المستشفى تعرض لكارثة مالية على صعيد أوقافه أثرت عليه بشكل كبير، على صعيد تمويل خدماته الطبية، وذلك عندما عين أحد القضاة يهودياً لإدارة المستشفى فاستولى هذا اليهودي على أوقافه وقد عالج المشكلة بحكمة الشيخ الأجل أبو جعفر بن يوسف السوسنجردي ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م عندما تولى أمر المستشفى عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م حيث عمل بلا كلل على إعادة أوقافه التي استولى عليها الظالمين والطامعين وأعاد تعمير المستشفى مع سوقه وأعاد تجهيز صيدليته بالأدوية المختلفة كسابق عهدها، فضلاً عن تزويده بالفرش الجيدة للمرضى. مع كادر من الأطباء والفراشين والخدم وزوده حتى بالثلج على غلاء أسعاره آنذاك. وأصبح عدد أطبائه ثمان وعشرين طبيباً، وأعاد زرع بستانه بشتى أشجار الفاكهة، والبقول كما استخدم القوارب النهرية في نقل المرضى والمراجعين بين ضفتي نهر دجلة الشرقية والغربية من وإلى

(١) جواد، سوسة دليل خارطة بغداد: ص١٤٥.
(٢) ابن الجوزي، المنتظم: ٨/ ٢٥١.
(٣) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٥١٤.
(٤) مجهول: ص١.
(٥) المصدر السابق: ٤/ ٥٤-٥٥.
(٦) ابن أبي اصبيعة، المصدر السابق: ١/ ٣١٠.
(٧) المصدر السابق: ٨/ ٢٥١، ابن الأثير الكامل: ٨/ ١٠٦، جواد، سوسة، دليل خارطة بغداد: ص١٤٥-١٤٦.

المستشفى مجاناً. كما زوده بمخازن للأغذية المتنوعة، والفاكهة المجففة، والسكر مع صناديق تحتوي على ملابس جديدة للمرضى ومناديل، فضلاً عن صناديق تحتوي على أكفان للموتى، كما قدم المستشفى خدمات مجانية على صعيد ختان الأطفال. وأشار ابن جبير[1] إلى أن المستشفى كان يقدم أيضاً الطعام المجاني لنزلائه.

وأشار ابن أبي اصبيعة[2] إلى وجود أطباء ذوي اختصاصات مختلفة من جراحين وكحالين ومجبرين في المستشفى، فضلاً عن تدريس الطب من قبل أطبائه للطلبة، وقد بلغ عدد أطبائه عند افتتاحه أربعاً وعشرين، برئاسة محمد بن زكريا الرازي.

ويشير التطيلي[3] إلى أنه وجد عند زيارته لبغداد أن عدد أطبائه هو ستون طبيباً، وهو رقم كبير بالنسبة لذلك العصر وإمكانياته. ويشير في الوقت نفسه إلى قابليته الكبيرة في استقبال المرضى.

كما أشار ابن جبير[4] إلى أن نظام الفحص للمرضى من قبل الأطباء أثناء زيارته لبغداد عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م كان محدداً بيومي الاثنين والخميس، حيث يصفون لكل مريض ما يحتاجه من الأدوية، كما يشير ابن الأثير[5] إلى أن رعاية المستشفى امتدت إلى المجانين، حيث صانهم من عبث العابثين، كما حمت الناس منهم. لقد لعب المستشفى العضدي دوراً كبيراً في التخفيف من معاناة الناس أثناء الوباء الذي حل في بغداد عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، حيث انتشرت الطواعين والأمراض المختلفة حيث أصدر الخليفة المقتدي أوامره إلى الأطباء بمعالجة جميع المرضى بلا استثناء[6].

وكانت الدولة حريصة، بصورة عامة على تعين النزهاء في إدارة المستشفى من أمثال السوسنجردي الذي سبق ذكره، فضلاً عن أحمد أبو المعالي الغزال ت ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م والذي امتاز بسيرته العطرة[7] كما تولى نظارته سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م عبد السلام بن عبد القادر الكيلاني[8] وعبد الرزاق بن أحمد شيخ الشيوخ ببغداد عام

---

(١) المصدر السابق: ص١٦٢.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٢٤٤، ٣١٠.
(٣) المصدر السابق: ص١٣٤-١٣٥.
(٤) المصدر السابق: ص١٦٢.
(٥) الكامل: ٧/ ٣٠٣.
(٦) ابن الجوزي، المنتظم: ٩/ ١٥.
(٧) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ١٧٤.
(٨) ابن الدبيثي، المصدر السابق: ص٨١.

٦٠٨هـ/ ١٢١١م[1] كما أشار ابن الدبيثي[2] إلى وفاة ناظر آخر هو عبد المنعم الإسكندراني سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م والذي سبق وأن كان شيخاً لرباط العميد ببغداد.

كما ذكر ابن الفوطي[3] أن المؤرخ ابن ابي الحديد، عمل ناظراً للمستشفى لفترة قبل سقوط بغداد بأيدي المغول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. كما أشير في عام ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م إلى عزل ناظره سعد الدولة بن صفي الدولة، وتعين العميد زين الدين ضامن تمغات بغداد والذي أحسن القيام بواجبه[4].

وأشير إلى أن المستشفى، كان يقوم مقام كلية الطب في تخريج الأطباء، فقد أشار المقريزي[5] إلى أن الحكيم مهذب الدين محمد رئيس الأطباء سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م كان يدرس الطب فيه، وهناك ما يشير إلى أن المستشفى العضدي ظل يؤدي واجبه إلى نهاية القرن الثامن الهجري.

⌘ مستشفيات بغداد في العصر السلجوقي :

أشار ياقوت[6] إلى مستشفاً آخر في بغداد في العصر السلجوقي هو مستشفى تتش بباب الأزج. إحدى محلات بغداد، من غير تفاصيل عن هذا المستشفى، وينسب إنشاء هذا المستشفى إلى خمارتكين خادم تاج الدولة تتش بن الب أرسلان، وكان له أوقافه في بغداد. كما شهد عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م فتح مستشفاً آخر هو مستشفى كمستكين الخادم ببغداد، ولا توجد تفاصيل كثيرة تتعلق بهذا المستشفى الوقفي[7].

وأخيراً فإن المدرسة المستنصرية في بغداد، كان ملحقاً بها مدرسة للطب اكتملت وافتتحت عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م أي بعد سنتين من إنشاء المدرسة، في إيوان يقابلها يجلس فيه رئيس الأطباء مع تلاميذه، ويقدم خدماته الطبية للمرضى[8].

---

(١) ابن الأثير، الكامل: ٩/ ٣٠٦.
(٢) المصدر السابق: ص١٤٥.
(٣) تلخيص مجمع الآداب: ١/ ١٩١.
(٤) مجهول، الحوادث الجامعة: ص٤٣٣.
(٥) المواعظ: ٢/ ٣٩٧.
(٦) معجم البلدان: ٢/ ١٥، البغدادي، مراصد الإطلاع: ١/ ٢٥٣.
(٧) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٢/ ١٧٦.
(٨) مجهول، الحوادث الجامعة: ص٨٢، الأشرف الغساني، المصدر السابق: ص٤٧١.

⌘ مستشفيات واسط والبصرة:

من المستشفيات الوقفية في العراق، مستشفى واسط والمسمى (المؤيدي) والذي أوقفه مؤيد الدولة وزير شرف الدولة البويهي سنة ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م حيث أوقف عليه وقوفاً كثيرة، فضلاً عن أموال تنقل من ميزانية الدولة، وعين له كادراً من الأطباء والإداريين، فضلاً عن الأدوية المتنوعة[١] وأشار صاحب العسجد[٢] إلى أن أمير البصرة باتكين ت ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م أعاد تعمير مستشفى في البصرة مع مدرسة للطب، وإن كان لا يشير إلى سنة إنشاء هذا المستشفى، ومن أنشأه، ثم أنشأ الخليفة المستنصر مستشفاً آخر سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م امتاز بمساحته الكبيرة وبناياته العالية وأوقف عليه وقوفاً جيدة[٣].

⌘ مستشفيات منطقة الجزيرة:

أما في منطقة الجزيرة، فقد أشير إلى مستشفاً في مدينة الموصل، أنشأه مجاهد الدين قايماز ت ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م[٤] من غير تفاصيل تتعلق بالوقفيات أو بطبيعة الخدمات المقدمة كما أن مظفر الدين كوكبوري حاكم اربل بنى مستشفاً لأصحاب الأمراض المزمنة والعميان وكان يزورهم كل اثنين وخميس، ويمزح معهم ويؤنسهم[٥].

وذكر ابن أبي اصبيعة[٦] مستشفاً في مدينة ميافارقين، بناه الأمير نصر الدولة بن مروان الكردي، وأقف عليه أملاكاً، وكان يديره الطبيب منصور بن عيسى، وكانت إمكانيات هذا المستشفى كبيرة، مما حقق له شهرة كبيرة على صعيد كفاءته في تقديم الخدمات الطبية لكافة المرضى.

⌘ مستشفيات الحرمين الشريفين:

وفي الحرمين الشريفين بنى الوزير الصالح علي ابن عيسى مستشفاً في المدينة المنورة[٧] وسار على نهجه الخليفة العباسي المستنصر بالله، حيث أنشأ هو الآخر مستشفاً في المدينة المنورة، وأوقف عليه عام ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م[٨]، وقد جدد أوقافه الظاهر بيبرس،

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم: ٨/ ٨، ابن الأثير، الكامل: ٧/ ٢١٢.
(٢) المصدر السابق: ص٤٤٨.
(٣) الأشرف، المصدر السابق: ص٤٤٤، ابن الكازروني، تاريخ: ص٢٦١، مجهول، الحوادث: ص٢٣.
(٤) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٣٣٨، ابن الدبيثي، المصدر السابق: ص٨.
(٥) الأشرف، المصدر السابق: ١/ ٢٥٣.
(٦) المصدر السابق: ١/ ٢٥٣.
(٧) المصدر نفسه: ١/ ٢٤٣.
(٨) الفاسي، شفاء الغرام: ٢/ ١١٥.

ونقل إليه أدوية مختلفة، من المعاجين والأشربة، وأدوية العيون، وزوده بطبيب من مصر[1] كما أعاد تعميره وزاد في أوقافه شريف مكة حسن بن عجلان عام ٨١٤هـ/ ١٤١١م[2]. ويلاحظ أن المعلومات الواردة عن إمكانيات وأوقاف هذا المستشفى قليلة جداً. كما لم ترد معلومات، عن استمرار هذا المستشفى، أو توقفه بعد انتهاء عصر المماليك.

⌘ مستشفيات الشرق الإسلامي:

وعلى صعيد المشرق الإسلامي أشار المقدسي[3] إلى مستشفيين أثنى عليهما الأول في مدينة شيراز[4].

والثاني في أصبهان[5]، حيث كان موقوفاً عليهما أوقافاً كثيرة ظهر ذلك واضحاً في إمكانياتها العلاجية والدوائية. كما أشار ابن حوقل[6] إلى مستشفاً في مدينة ترمذ[7] بناه أبو الحسن محمد بن ماه وأوقف عليه بسخاء، كما اشتهرت مدينة نيسابور[8] بوجود مستشفاً بناه عبد الملك بن أبي عثمان الخركوشي الزاهد الواعظ ت ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م وأوقف عليه الوقوف الكثيرة[9].

⌘ مستشفيات بلاد الشام:

أما في بلاد الشام فلا توجد معلومات تذكر عن مستشفيات وقفية أو غير وقفية، قبل إنشاء الملك العادل نور الدين محمود رحمه الله، لمستشفاه في دمشق، هذا المستشفى الذي باركه الله لصفاء نية منشأه، ذلك الخليفة الراشد السادس الذي أعاد سيرة الخلفاء الراشدين عدلاً وجهاداً ونظافة يد وفرج، مع الشورى والرفق بالرعية، ويروي لنا سبط

---

(١) ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٧/ ١٩٤.

(٢) الفاسي، المصدر السابق: ص١١٦.

(٣) المصدر السابق: ص٤٣٠.

(٤) شيراز: من مدن فارس المهمة، تولى عمارتها محمد بن القاسم الثقفي فاتح السند، ياقوت، معجم البلدان: ٣/ ٣٨٠-٣٨١.

(٥) أصبهان: مدينة فارسية كبيرة، تمتعت بأهمية عسكرية واقتصادية وسياسية في تاريخها الإسلامي. ياقوت، معجم البلدان: ١/ ٢٠٦-٢١٠.

(٦) المصدر السابق: ص٣٧٨.

(٧) ترمذ: مدينة مشهورة تقع على نهر جيحون في ضفته الشرقية أنجبت المحدث المشهور محمد بن عيسى الترمذي صاحب الصحيح. ياقوت، وعجم البلدان: ٢/ ٢٦-٢٧.

(٨) نيسابور: من مدن الدنيا المشهورة، يعود إنشائها إلى عهد الساسانيين، فتحت في عهد الخليفة عثمان ﷺ، ياقوت، معجم البلدان: ٥/ ٣٣١-٣٣٣.

(٩) ياقوت، معجم البلدان: ٢/ ٣٦١، القزويني، آثار العباد: ص٤٧٦.

ابن الجوزي[1] قصة إنشائه بأنه وقع أسيراً في يد نور الدين، أحد كبار أمراء الصليبيين، في إحدى معاركه الكبرى معهم، فتعهد هذا الأسير بتقديم فدية كبيرة، بلغت ٣٠٠ ألف دينار، لقاء إطلاق سراحه، فتشاور نور الدين مع أمراءه في الأمر، فلم يوافقوا على العرض خوفاً من شروره إلا أن نور الدين كانت له وجهة نظر أخرى، باركها الله، فأطلق سراحه لقاء الفدية ولما وصل هذا الأسير إلى أصحابه مات. وبذلك استفاد المسلمون من المال، ومات هذا الصليبي في الوقت نفسه. فبنى بهذا المال مستشفاه وأوقف عليه، ويورد ابن الأثير[2] أن من شروط واقفه، أنه أوقفه على الفقراء والأغنياء على السواء وكان أولاد السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله وأهله يتطببون بهذا المستشفى ويأخذون الأدوية منه مجاناً طلباً للبركة إذ (لا يأنف أحد من صدقة نور الدين وأنعامه) كما يقول الطيب المغربي المسؤول عن إدارة المستشفى في حوار له مع ابن الأثير.

ويعود الفضل إلى أوقافه السخية، فضلاً عن إخلاص المسؤولين عن إدارته ورعاية السلطات السياسية التي تعاقبت على بلاد الشام، في استمراره بالعمل لفترة طويلة، رغم تعرضه لزلزال مدمر عام ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م دمر معظم بناياته، إلا أنه رمم وأعيد إلى العمل من جديد[3] وأشير إلى دوره العلاجي الكبير عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م[4] وكان هذا المستشفى يعمل بصورة جيدة في زمن القلقشندي ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م[5].

كما أنشأ نور الدين مستشفى آخر في حلب، والذي ألحق به عام ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م جناح خاص للنساء، وعمرَّ فيه إيواناً إضافياً في عهد السلطان المملوكي الأشرف شعبان ت ٧٦٤-٧٧٨هـ/ ١٣٦٢-١٣٧٦م. وكان من أوقاف هذا المستشفى قرية معراثا وبعض مزرعة وادي العسل وخمسة أفدنة من مزرعة كفر نايا، وثلث مزرعة الخالدي وطاحونها في المطبخ وثمن طاحونة عربية، وثمان أفدنة من مزرعة أبي مدايا وخمسة أفدنة من مزرعة الحميرة واثنا عشر فداناً من مزرعة الفرذل، وثلث قرية بيت راعل وعشر دكاكين بسوق الهوا فضلاً عن أوقاف أخرى بباب أنطاكية، وباب الفرج وباب الجنان من أبواب حلب[6].

---

(١) المصدر السابق: ٨/ ٣١١.

(٢) الباهر: ص١٧٠.

(٣) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٤٧٨.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ٣٤٤.

(٥) صبح الأعشى: ١٢/ ٨٤.

(٦) الغزي، نهر الذهب: ٢/ ٦٤-٦٥.

إن توزيع هذه الأوقاف جغرافياً يلفت النظر، وربما كان توزيعها وتنويعها يعود إلى حكمة الواقف في العمل على ضمان وصول الإيرادات إلى المستشفى بصورة منتظمة قدر المستطاع، مع الأخذ بنظر الاعتبار، احتمال فقدان بعضها أو الاعتداء عليها.

أما المستشفى الثالث فهو المستشفى القيمري، نسبة إلى مؤسسه سيف الدين القيمري ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م، والذي بناه في سفح جبل الصالحين بدمشق، وقد ضاهى هذا المستشفى، المستشفى النوري من حيث أوقافه وخدماته[١] وإن لم تشر المصادر إلى أي شيء يتعلق بنوعية وحجم أوقافه، وطبيعة الخدمات التي كان يقدمها والتي كانت كبيرة كما يشير المؤرخون، ورغم ما قيل عن مضاهاته لمستشفى نور الدين، إلا أنه لم يستمر في أداء مهامه لفترة طويلة، حيث لم يشر أحد من المؤرخين المتأخرين إلى ذلك.

أما في فلسطين فقد أشار ناصر خسرو[٢] إلى إيقاف عمارات وبساتين على عين سلوان في القدس، والتي كان يؤمها ذوي الأمراض المزمنة لغرض الاستحمام بمائها الصحي. وأشار أيضاً إلى مستشفاً في القدس، يقع على حافة وادي جهنم، كان موقوفاً عليه أوقاف ضخمة، وكان به أطباء كثيرين، ويقدم خدماته العلاجية والدوائية.

وأنشأ صلاح الدين الأيوبي مستشفى آخر في القدس، ونقل إليه جميع ما يحتاج إليه[٣] كما أنشأ أيضاً مستشفى في عكا وأوقف عليه أوقافاً جليلة. ويلاحظ أن طبيعة المعلومات الواردة عن هذين المستشفيين مختصرة بشكل كبير، سواءً ما أوقف عليهما أو طبيعة الخدمات التي كانا يقدمانها في القدس وعكا[٤] كما بنى نائب الشام المملوكي تنكز مستشفاً في مدينة صفد الفلسطينية[٥].

⌘ مستشفيات مصر:

أشار المقريزي[٦] إلى مستشفى بناه الفتح بن خاقان في خلافة المتوكل العباسي ٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٦-٨٦٠م ولا يشير إلى أوقافه ويعتبر المستشفى الذي بناه أحمد بن طولون حاكم مصر ت ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م في مدينة المفسطاط أول مستشفاً وقفياً ذكرت عنه

(١) اليونيني ذيل: ١/ ٤٣-٤٤، ابن الجزري، المختار، ص٢٣٨، ابن كثير، المصدر السابق: ١٣/ ١٩٥، ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٧/ ٣٩.
(٢) رحلة: ص٢١.
(٣) ابن واصل، مفرج الكروب: ٢/ ٤٠٨، الأشرف، المصدر السابق: ص٢١٨.
(٤) ابن واصل، المصدر السابق: ٢/ ٢٤٧.
(٥) ابن كثير، المصدر السابق: ١٤/ ١٨٧، النعيمي، الدارس: ١/ ١٢٦.
(٦) المواعظ: ٢/ ٤٠٥.

المصادر تفاصيل لا بأس بها فقد قدم المقريزي[1] قائمة بأسماء الوقفيات وبعض شروط الواقف، ومن هذه الوقفيات التي كانت ترفد المستشفى دار الديوان ودوراً في منطقة الأساكفة، وقيسارية، فضلاً عن سوق الرقيق مع حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء، وكان من شروطه أن لا يعالج فيه جندي ولا مملوك، كما شرط فيه أنه إذا جيء بالمريض تنزع عنه ثيابه ونفقته وتحفظ عند أمين المستشفى، ويلبس ثياب خاصة بالمستشفى، ويفرش له على سرير وتقدم له الأدوية، حتى يبرأ ويكتب له الشفاء فإذا أكل فروجاً ورغيفاً يسمح له بمغادرة المستشفى، وتعاد له ثيابه وماله، وكان ابن طولون يتفقد هذا المستشفى بنفسه كل يوم جمعة، حيث يزور المرضى، وحتى المجانين منهم ويقوم بتفتيش الأطباء، وخزائن المستشفى، ويوصي الكادر الطبي والخدمي خيراً بالمرضى. ويشير المقريزي أيضاً إلى أنه كان يتواجد فيه طبيب خفر في يوم الجمعة لمعالجة من يمرض من مصلي الجمعة.

ويلاحظ أن ما أوقف على هذا المستشفى كان كثيراً، ويتضمن مشاريع حضرية خالية من الأراضي الزراعية، كما كانت الوقفيات متنوعة ما بين أسواق وقيساريات، ودكاكين وحمامين ودوراً لضمان إيرادات شبه ثابتة. أما ما ورد عن عدم استقبال المستشفى للجنود والمماليك، فبرغم غرابته الظاهرة، إلا أنه يشير بصورة واضحة إلى رغبة الواقف، في وضع المستشفى في خدمة أبناء الشعب العاديين بالدرجة الأولى، وإن المماليك والجنود بما يمتلكونه من نفوذ من خلال أسيادهم وأمرائهم سوف يسيطرون على هذه الخدمات، إذا ما سمح لهم بالاستفادة منها.

إن ما ورد عن طريقة استقبال المرضى في المستشفى، وطريقة مغادرتهم تعطي انطباعاً رائعاً عن مدى تقدم الخدمات الطبية آنذاك والتي تفتقر إليها الكثير من الدول في الوقت الحاضر، وما يقدم من خدمات راقية في الدول المتقدمة، فهي لمن يملك أما من لا يملك فليذهب إلى القبر، فالمراكز الطبية مشاريع استثمارية غايتها الربح وليس الخدمة الطبية المجانية.

كما يدل الاهتمام الشخصي الكبير الذي كان يوليه أحمد بن طولون للمستشفى على أن الكثير من الحكام المسلمين آنذاك، مهما وصم بعضهم أحياناً ببعض الممارسات الخاطئة على الصعيد السياسي والاقتصادي، أو على صعيد السلوك الشرعي، فإن لهم في المقابل أعمالاً جليلة على صعيد الخدمة العامة.

---

(١) المصدر نفسه: ٢/ ٤٠٥.

ويشير البلوي[1] إلى أن هذا المستشفى كان يحتوي على كل أدوية عصره المعروفة تقريباً حتى دواء المسك وغيره مما لا يوجد إلا نادراً، وبأسعار غالية جداً.

وقد ظل هذا المستشفى عاملاً يؤدي خدماته الطبية، حتى بعد انتهاء الدولة الطولونية فقد زاره الخليفة الفاطمي الظاهر لأعزاز الله، وتفقد المجانين فيه، ووهب لكل منهم ٥٠ درهم وللمشرف عليهم ٥٠٠ درهم، وأكد على ضرورة رعاية هؤلاء وتقديم الطعام والدواء لهم[2] كما أن السلطان صلاح الدين الأيوبي قام بدعم أوقافه السابقة بإيرادات جديدة ساهمت في استمراره في أداء خدماته[3] ولذلك استمر في أداء خدماته إلى القرن الخامس عشر الميلادي[4] أي طيلة العصر المملوكي، مما يدل بصورة واضحة على التعاون الوثيق بين الوقف والإدارة والساسة طيلة هذه القرون.

كما أشار المقريزي[5] إلى مستشفى آخر بناه كافور الأخشيدي في الفسطاط ولا يعرف إن كان وقفياً أم لا. ويبدو أن الفاطمين استمروا في دعم مستشفيات مصر السابقة لعهدهم. حيث أوقف الحاكم بأمر الله أوقافاً جديدة على مستشفيات مصر[6] كما أنشأ السلطان صلاح الدين مستشفاً في القاهرة سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م في أحد القصور الفاطمية التي بناها الخليفة العزيز بالله سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٣م[7] وكانت إيراداته تأتي من خلال أوقاف من إيجارات بعض الأبنية بلغت ٢٠٠ دينار فضلاً عن غلات زراعية في منطقة الفيوم[8]. ويبدو أن إيراداته كانت كبيرة بحيث استحقت وصفها من قبل ابن الأثير[9] بأنها كانت عظيمة، كما الحق به كادر كبير من الأطباء والمعالجين النفسانيين، فضلاً عن كادر إداري من المشرفين والعمال والخدم[10].

كما بنى صلاح الدين مستشفى آخر في الإسكندرية، امتاز بتوظيف أشخاص مهمتهم زيارة المرضى لرفع معنوياتهم بصورة غير مباشرة، ورفع تقارير إلى أطبائهم عن

---

(١) سيرة ابن طولون: ص٥٦.
(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ١٤٣.
(٣) المقريزي المواعظ: ١/ ٤٠٧.
(٤) مراد، لمحات من تاريخ الطب: ص٢٣٩.
(٥) المواعظ: ١/ ٤٠٦.
(٦) المصدر نفسه: ٢/ ٢٩٥.
(٧) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق: ٨/ ٣٣٩.
(٨) المقريزي، السلوك: ح١، قسم١: ص٧٦.
(٩) الكامل: ٩/ ١٤١.
(١٠) المقريزي، المواعظ: ١/ ٤٠٧.

تطور أوضاعهم الصحية[1] وكان هذا الأسلوب العلاجي، يمارس في مستشفيات أخرى في مصر وبقية الأقاليم الإسلامية، ويدل على التطور الكبير في وسائل العلاج، والتي لم يعرفها الغرب الأوربي والأمريكي إلا في القرن العشرين وسجلت إنجازاً كبيراً له عبر ما يسمى بالعلاج النفسي.

وشهد عصر المماليك استمرار الاهتمام بالمستشفيات، فقد بنى المنصور قلاوون ٦٧٨-٦٨٨هـ/ ١٢٧٩-١٢٨٩م مستشفى يعتبر نموذجاً لعظمة المستشفيات الإسلامية، فقد امتاز بكونه قيمة معمارية كبرى إلى جانب خدماته الراقية، ونظامه الطبي المتطور[2]، حيث يشير المقريزي[3] إلى أن إيراداته في السنة كانت مليون درهم. وأشار الحسن الوزان[4] إلى أن إيراداته عندما زاره كانت ٢٠٠ ألف دينار وقدم ابن بطوطة[5] رقماً أكبر وهو ٣٦٠ ألف دينار في السنة، وعند مقارنة الأرقام نجدها متقاربة خاصة ما قدمه المقريزي وابن بطوطة عند تحويل الدرهم إلى دينار. كما لا يمكن قبول ما أورده الوزان[6] من أن المستشفى كان إذا ما مات فيه أحد مرضاه تؤول أمواله إلى المستشفى، لأن هذا يتعارض مع الشريعة الإسلامية، كما لم يشر إليه المقريزي المؤرخ المصري، المطلع على أحوال هذا المستشفى. ويمكن قبول الرواية في حالة واحدة، وهي إذا كان المتوفى من الغرباء الذي لا يعرف له أهل أو لا يمكن إرسال ماله إلى بلاده.

أما عن طبيعة أوقاف هذا المستشفى، فقد أشار الصيرفي[7] إلى قسم منها وهي حوانيت الصيارفة، وسوق الكتب، وحوانيت الدواوين والامشاطين فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية، كما ذكر ابن تغري بردي[8] بناية ضخمة في منطقة الشوابين بالقاهرة. فضلاً عن حمام الساباط في القاهرة[9].

---

(١) ابن جبير، رحلة: ص٥٢، المقريزي، السلوك: ح١، قسم١: ص٧٦. ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام: ص٥٦، ٢٣٠.
(٢) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام: ص٥٦، ٢٣٠.
(٣) المواعظ: ٢/ ٤٠٦.
(٤) رحلة: ص٣٣.
(٥) المصدر السابق: ص٣٣.
(٦) وصف أفريقيا: ١/ ٢٠٧.
(٧) نزهة النفوس: ٣/ ١٥٩.
(٨) المصدر السابق: ٩/ ٦٣.
(٩) المواعظ: ٢/ ٨٠.

وقد نصت وقفية المنصور قلاوون على بند مهم وهو (قد وقفت هذا على مثلي فمن دوني وجعلته وقفاً على الملك والمملوك والجندي والأمير والكبير والصغير، والحر والعبد والذكور والإناث..." وعين فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى، فضلاً عن كادر من الإداريين لضبط المشتريات وإداريين لتحصيل أموال الوقف ومثلهم من الطباخين والمشرفين على العمارة[1]، وكان المرضى يرقدون فيه على أسرة مفروشة بصورة ممتازة، وجعل لكل مرض من الأمراض جناحاً خاصاً به فكانت الواوين الأربعة للمرضى بالحميات وما يماثلها، وجعل قاعة خاصة للأمراض المزمنة وقاعة للجرحى، وقاعة لمن به إسهال، وقاعة للنساء ومكاناً للمبرودين ينقسم إلى قسمين للرجال والنساء وجعل الماء يجري ضمن مواصفات هندسية إلى كافة هذه الأقسام مع ملحقات خدمية في المستشفى لأغراض المطبخ، وإعداد وصناعة الأدوية والأشربة، وتركيب المعاجين والأدوية الخاصة بالعيون وغيرها من الأدوية المتخصصة كما ألحق به مخزن للمواد الغذائية، ومخزن توزيع من خلاله الأدوية الجاهزة على المستشفى، فضلاً عن قسم خاص برئيس الأطباء لإلقاء الروس على طلبة الطب. ولم تكن هناك فترة محدودة لبقاء المرضى

(١) المواعظ: ٢/ ٤٠٦-٤٠٧، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام: ص٢٣٠ وقد قدم محمد الغزالي نصاً لـ "حجة وقف مستشفى قلاوون لم يذكر مصدرها جاء فيها "أنشأ هذا البيمارستان لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء، من الأغنياء المثرين والفقراء المحتاجين، بالقاهرة وضواحيها من المقيمين بها والواردين عليها، على اختلاف أجناسهم وتباين أمراضهم وأوصابهم. يدخلونه جموعاً ووحدانا، وشيباً وشباباً، ويقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم لحين برئهم وشفائهم، ويصرف ما هو معد فيه للمداواة، ويفرق على البعيد والقريب، والأهل والغريب، من غير اشتراط لعوض من الأعواض ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف، ما تدعو حاجة المرضى إليه من سرر جديد أو خشب، على ما يراه مصلحة، أو لحف محشوة قطناًن وطرايح محشوة بالقطن، فيجعل لكل مريض من الفرش والسرر على حسب حاله، وما يقتضيه مرضه، عاملاً في حق كل منهم تقوى الله وطاعته باذلاً جهده وغاية نصحه، فهم رعية وكل راع مسؤول عن رعيته. ويباشر المطبخ بهذا "البيمارستان" ما يطهى للمرضى من دجاج وفراريج ولحم، ويحمل لكل مريض ما طبخ له في زبدية خاصة به من غير مشاركة لمريض آخر، ويغطيها ويوصلها لكل مريض إلى أن يتكامل أطعامهم ويستوفي كل منهم غداءه وعشاءه وما وصف له بكرة وعشيا... ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه من الأطباء المسلمين الذين يباشرون المرضى مجتمعين ومتناوبين، ويسألون عن أحوالهم وما يجد لكل واحد منهم، من زيادة مرض أو نقص، ويكتبون ما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء أو غيره في "دستور ورق" ويلتزمون المبيت في كل ليلة "بالبيمارستان" مجتمعين ومتناوبين ويباشرون المداواة ويتلطفون فيها. ومن كان مريضاً في بيته، وهو فقير، كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاجه من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها مع عدم التضيق في الصف..." ليس من الإسلام، القاهرة، داار الكتاب العربي د.ت: ص٢٤-٢٥.

في المستشفى، كما أن خدماته الطبية كانت تقدم للمرضى في البيوت أيضاً. وكان هناك كادر إداري لضبط المشتريات وإداريين لتحصيل أموال الوقت، ومثلهم من الطباخين والمشرفين على العمارة.

ومن أشهر أطباء هذا المستشفى علاء الدين بن النفيس المصري ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م صاحب كتاب الموجز وكتاب شرح الكليات، والذي أوقف كتبه وأمواله على المستشفى[1] وهذا يدل على وجود مكتبة طبية ملحقة بمدرسة الطب الموجودة في المستشفى أيضاً. وبذلك يستحق هذا المستشفى ما قال فيه أحد الشعراء في مدح المنصور قلاوون منشئ المستشفى.

أنشأ مدرسة ومارستاناً لتصحيح الأديان والأبدان[2]

ونظراً للخدمات الجليلة التي تميز بتقديمها هذا المستشفى، فقد نال رعاية شخصية من قبل سلاطين المماليك طيلة العهد المملوكي، فقد أشار الصيرفي[3] إلى زيارة قام بها إلى المستشفى السلطان برقوق عام ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م حيث تفقد أحواله وحث أطبائه وإداريه على العناية بالمرضى وخاصة الفقراء منهم ودعاهم إلى الاهتمام بأوقافه. وقد ظل هذا المستشفى عاملاً لمدة طويلة، حيث أشار ابن اياس[4] عام ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م إلى أحد ناظريه وهو الأتابكي تمراز. وقد بقي جزء منه ماثلاً للعيان لحد الآن، يضم الإيوان الشرقي وبعض ألواح منقوشة في سقف الإيوان البحري والقاعة القبلية وفسقية (نافورة) من الرخام وأشياء أخرى[5].

كما أشار المقريزي[6] إلى مستشفى آخر في القاهرة، وهو مستشفى السلطان المؤيد شيخ الذي بناه عام ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م وجعل له أوقافاً من أوقاف جامعة الذي بناه في القاهرة، وقد توقف عن أداء واجبه الطبي بعد وفاة صاحبه لأسباب مجهولة ربما تعود على الأغلب إلى الاستيلاء على أوقافه لأسباب سياسية، لا سيما وقد قتل صاحبه.

أما في الغرب الإسلامي، فلم تتح الفرصة للباحث للإطلاع على المصادر المتعلقة بموضوع الوقف الصحي، والتي من المتوقع أنها لم تكن تقل عن مثيلاتها في الشرق

(١) السبكي، طبقات: ٨/ ٣٠٦.
(٢) ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٨/ ٣٠٦.
(٣) المصدر السابق: ١/ ٧٤.
(٤) المصدر السابق: ٢/ ١١٥.
(٥) عيسى بك، تاريخ البيمارستانات: ص١١٣-١١٩.
(٦) المواعظ: ٢/ ٤٠٨، ابن تغري بردي، المصدر السابق: ١٣/ ٢٣.

الإسلامي، فقد أشار ابن عرفة[1] إلى مستشفى فاس، والذي كان فيه أوقاف مخصصة للصرف على موسيقيين يعزفون للمرضى نفسياً. كما أشار القاضي عياض[2] إلى أنه كانت هناك أوقاف في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر ٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م بقرطبة على المرضى، ولا يوضح النص طريقة تقديم الخدمة الطبية.

ب. أوقاف متفرقة

١- وقف الأضرحة والمزارات:

أ. **مشهد إبراهيم الخليل** عليه السلام لقي هذا المكان اهتماماً كبيراً من قبل المسلمين، نظراً للمكانة التي يحتلها أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام لدى المسلمين، فقد أوقفت عليه أوقاف سخية لتمويل خدمات زواره[3].

ب. **مشهد النبي موسى** عليه السلام بنى الظاهر بيبرس قبة ومسجداً قرب أريحا على قبر موسى عليه السلام وأوقف عليه وقفاً ولم تشر المصادر إلى طبيعة الأوقاف ولا إلى شروط الواقف[4].

ت. **مشهد قبر أخوة النبي يوسف** عليه السلام أوقف عليه الملك الظاهر برقوق، ويقع هذا المشهد بالقرافة في القاهرة وليس ثم تفاصيل عنه أيضاً[5].

ث. **مشهد خالد بن الوليد** رضي الله عنه يشير اليونيني[6] إلى أن الملك الظاهر بيبرس أصلح قبر سيف الله المسلول في مدينة حمص، وأوقف عليه وقفاً يختص بالإمام والمؤذن والقيم، فضلاً عن تمويل خدمات الزوار.

ج. **مشهد جعفر الطيار** رضي الله عنه يشير ابن تغري بردي[7] إلى أن الظاهر بيبرس وسع هذا المشهد في الأردن، وأوقف عليه زيادة على أوقافه السابقة لتمويل خدمات الزائرين والوافدين عليه.

---

(١) لقاء في هيئة الإذاعة البريطانية مساءاً بتاريخ ١٧/ ٢/ ١٩٩٥ مع عبد الإله بن عرفة عن الموسيقى الأندلسية.

(٢) المصدر السابق: ٤/ ٣٩٩.

(٣) ناصر خسرو، المصدر السابق: ص٣٥.

(٤) ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٧/ ١٩٤، الكتبي، المصدر السابق: ١/ ١٦٨.

(٥) ابن تغري بردي، المصدر السابق: ١٢/ ١٠٩.

(٦) المصدر السابق: ٣/ ٢٥٣، ابن تغري بردي، المصدر السابق: ح١، قسم٢: ص٥٤٨، ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٧/ ١٨٠.

(٧) المصدر نفسه: ٧/ ١٩٤، الكتبي، المصدر السابق: ١/ ١٦٨.

ح. **مشهد الزبير بن العوام** رضي الله عنه يشير ابن كثير[1] إلى أن هذا القبر كشف عام ٣٨٦هـ/م وبنى عليه أبو المسك عنبر بناءاً وجعله مشهداً وزوده بالقناديل وغيرها وزاد أوقافه الخليفة المستعصم[2].

خ. **مشهد طلحة بن عبيد الله** رضي الله عنه يشير صاحب الحوادث الجامعة[3] إلى أن الخليفة المستعصم بنى على قبر طلحة بناءً وفرشه وجعل فيه القناديل.

د. **مشاهد الأئمة العلويين** ابتداءً من الإمام علي ابن أبي طالب والإمام الشهيد الحسين في النجف وكربلاء فضلاً عن مشاهد الأئمة في الكاظمية وسامراء وطوس والتي شهدت اقافاً كثيرة اوقفت عليهم من محبيهم.

٢- وقف العلويين:

يشير النرشخي[4] إلى أن إسماعيل الساماني أوقف عشر حصص من قرية بركد على العلويين كما يشير السيوطي[5] إلى غلات ومزارع في بركة الحبش كانت وقفاً على الأشراف والطالبين بالسوية. كما أشار البغدادي[6] إلى أن قرية العلث الواقفة على نهر دجلة في منطقة عكبرا كانت موقوفة على العلويين.

٣- وقف الخدم والعبيد:

يخصص هذا الوقف لمساعدة العبيد الذين يريدون مكاتبة أسيادهم للحصول على حريتهم، ولم يكتفي الوقف الإسلامي، بمد يد المساعدة لتحريرهم وإنما ظهرت لدينا أوقاف لرعايتهم بعد تحريرهم، فقد أوقف الأمير إسماعيل الساماني بساتين على مواليه الذين أعتقهم[7].

٤- وقف الشعير:

يشير الونشريسي[8] إلى أن هناك وقف كان يمول عملية تقديم الشعير إلى الفلاحين الذين يحتاجونه عند عدم قدرتهم على شراء الحبوب، لغرض زراعة أراضيهم، فإذا حصدوا أعادوه بقدر الكمية التي استغلوها.

(١) المصدر السابق: ١١/ ٣١٩، ابن تغري بردي، المصدر السابق: ٤/ ١٧٤.
(٢) مجهول: ص١٨٢.
(٣) المصدر نفسه: ص١٨١-١٨٢.
(٤) المصدر السابق: ص٣٢.
(٥) حسن المحاضرة: ٢/ ٣٩٠.
(٦) المصدر السابق: ٢/ ٩٥٦.
(٧) النرشخي، المصدر السابق: ص١٣٦.
(٨) المعيار المغرب: ٧/ ١٢٠.

٥- وقف العشرة المبشرة:

أوقف أحد التجار وهو عثمان بن سليمان ت ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م على سلالة العشرة المبشرة رضي الله عنهم[١].

٦- وقف الحيوانات:

إن هذه الأوقاف هي دليل على سماحة الإسلام، ونظرته الشاملة التي لم تستثني شيئاً ذا كبد رطب من الإحسان استناداً إلى حديث المصطفى ﷺ"... قالوا يا رسول الله وأن لنا في هذه البهائم لأجراً فقال في كل كبد رطبة أجراً"[٢]. فمخلوقات الله العجماوات، تحتاج هي الأخرى، إلى إحسان الله وعطفه، ورغم ندرة النصوص في هذا المجال، إلا أنها تسجل سبقاً نوعياً وكمياً لما ظهر الآن في أوربا فيما سمي بجمعيات حماية الحيوان والبيئة، كانت حماية ومساعدة الحيوان ترتبط في أذهان المسلمين بكونها عمل من أعمال البر يستجلب رضى ورحمة الله، وليس مجرد تعلق مرضي أو عاطفي في معظم الأحيان بالحيوان كما هو الحال في الغرب. وقد أجاز الإمام الغزالي الإيقاف على الطيور الحمام بمكة، وعلى الرغم من أن علماء الشافعية لم يجيزوا الوقف على الوحوش، ولا على الطيور، وهو يرى أن طيور مكة استثناءً من ذلك[٣]. كذلك أوقفت والدة الملك المجاهد الرسولي ملك اليمن على سبيل لشرب الدواب[٤]. علماً بأن السبيل يحتاج إلى مياه الآبار، أو العيون أو عبر تجميع مياه الأمطار وهذا يتطلب جهداً وعملاً مستمراً.

وعرف عن خانقاه طغاي النجمي في القاهرة، أنه كان ملحقاً به حوض ماء سبيل للدواب[٥] كما وجد حوض آخر لشقي الدواب في خانقاه الجيبغا[٦]. كما أشير إلى أن أمين الدين مرجان الأولجايتي المغولي أوقف على السنانير والزرازيق (طيور النورس) وحيات الشط والطيور، من الحم والخبز والشيلم في صحن دار الشفاء[٧]. ولم يشر النص إلى طبيعة هذه الأوقاف وحجمها وأشير إلى وجود وقف لإطعام الكلاب في مصر[٨] كما

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ١١/ ١٨٧.

(٢) مسلم، صحيح: ٧/ ٤٤.

(٣) الأنصاري، المصدر السابق: ٢/ ٤٦٠.

(٤) الأكوع، المدارس: ص١٧١-١٧٢.

(٥) المقريزي، المواعظ: ٢/ ٤٢٥.

(٦) المصدر نفسه: ٢/ ٢٢١.

(٧) جواد، عمارات القرن السادس، سومر: ٢/ ٦١.

(٨) ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، تعليق شكيب أرسلان: ٣/ ٩.

أن مرج دمشق كان وقفا على الخيل التي تعبت في الجهاد وأسنت حيث ترعى فيها دون غيرها..[1]

ومن الطرائف أن السلطان المملوكي لاجين ٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٦-١٢٩٨م عندما عين علم الدين سنجر الدوادار لعمل وترميم جامع أحمد بن طولون، وتعمير أوقافه، وأوجد فيه دروس للفقه والحديث، جعل من جملة ذلك وقفاً يختص بالديوك التي تكون في سطح الجامع، في مكان مخصص لهم وزعم أن الديوك تعين المؤقتين، وتوقظ المؤذنين في الأسحار، وضمن ذلك كتاب الوقف، عندما قرئ كتاب الوقف على السلطان أعجبه ما قام به الدوادار إلى أن انتهى إلى ذكر الديوك فأنكر ذلك وقال أبطلوا هذه لا يضحك الناس علينا[2] وكان لاجين رحمه الله على حق فهذه بدعة لم يسبق علم الدين سنجر إليها أحد، ولا يستفيد منها إلا الديوك.

(١) المرجع نفسه: ٣/ ٩.

(٢) النعيمي، المصدر السابق: ١/ ٦٨.



الخاتمة

أ. الاستنتاجات:

١. إن الوقف الإسلامي كان مسؤولاً عن توفير حاجات ومستلزمات عدد كبير من الجوامع والمساجد، فضلاً عن المؤسسات الصوفية التي ظهرت لاحقاً، مثل الأربطة والزوايا والخانقاهات. فضلاً عن تمويل خدمات سخية في الحرمين الشريفين، مكة المكرمة، والمدينة المنورة، هذه البلاد الفقيرة نسبياً بإمكانياتها الاقتصادية، والتي يوجد فيها أقدس مقدسات المسلمين، بيت الله الحرام والمشاعر المقدسة في مكة، ومثوى الرسول ﷺ وكبار الصحابة ﷺ في المدينة المنورة. ويلاحظ أن الوقف كان ناجحاً في تسهيل حياة أهل الحرمين الشريفين على كافة المستويات طيلة أربعة عشر قرناً.

٢. إن الوقف الإسلامي لم يقتصر على الخدمات التعبدية فقط. كما هو الحال الآن في معظم الأقطار العربية والإسلامية، وإنما امتد ليصل إلى مفاصل الحياة المهمة الأخرى، والتي تخدم المجتمع بشتى شرائحه مثل الخدمات التعليمية، والتي ساهم الوقف الإسلامي في توفير الدعم المالي للمؤسسات التعليمية المتنوعة، ومنتسبيها، سواءً كانت في المسجد أو المدرسة فيما بعد، أو دور القرآن والحديث ومكاتب الصبيان والأيتام، فضلاً عن دور العلم والمكتبات الوقفية.

٣. نجح الوقف الإسلامي في استقطاب اهتمامات أهل الخير، ممن يبتغون مرضاة ربهم نحو محور نحن اليوم بأشد الحاجة إليه، وهو إيجاد آلية كفوءة تعمل على تسهيل انسياب الدعم المتنوع لمقومات الجهاد، من أجل حماية جسد الأمة من أعدائها، سواءً عبر تمويل مدن الثغور (الحدود) أو الحصون أو القلاع أو الأسطول. فضلاً عن توفير مستلزمات الجهاد للمجاهدين من حيث الأسلحة، وحيوانات الركوب والأكل والشرب والنقود، فضلاً عن تحرير الأسرى ومحاولة توفير تسهيلات لهم في أماكن أسرهم قدر المستطاع.

٤. نجح الوقف الإسلامي في إيجاد جملة كبيرة من الخدمات الاجتماعية، والتي تعمل على تحقيق التضامن الاجتماعي، بين أبناء المجتمع وخفض وتيرة الحقد والكراهية والحسد بين من يملك ومن لا يملك، حيث أثبت التاريخ أن هذه هي الوسيلة الوحيد لتحقيق السلم الاجتماعي بمعناه الواسع، وهكذا تكونت مؤسسات تعمل

على توفير بيوت السكن، والأكل والشرب، والمساعدات النقدية، فضلاً عن إيجاد أماكن لإيواء المطلقات والأرامل والأيتام، وتوفير كل مستلزمات المعيشة اللائقة بهم. فضلاً عن توجه الوقف الإسلامي نحو خدمة الطرق والجسور والقناطر وأماكن النزهة للترفيه عن أبناء المجتمع.

٥. استطاع الوقف الإسلامي أن يوجد ويرفد مؤسسات صحية كفوءة استطاعت أن تستمر في إداء خدماتها لقرون طويلة وكانت متاحة لكافة أبناء المجتمع سواءً عبر توفير الفحص وإجراء العمليات الجراحية وتقديم الدواء والمبيت في ما سمي بالبيمارستان (المستشفى) ويلاحظ أن الوقف الإسلامي قدم هذه الخدمات التي يعجز عن تقديمها الآن عدد ليس بالقليل من دول العالم المتقدمة والنامية والمتخلفة على السواء. ونجد أنفسنا اليوم في مجتمعاتنا النامية بحاجة إلى هذه الخدمات الثرة.

٦. وأخيراً يمكن القول إن خدمات الأوقاف الإسلامية لم تنحصر فقط بالإنسان المسلم وإنما شملت كل أبناء دار الإسلام، مسلمهم وذميهم وأهل الأديان الأخرى، فالإنسان كما يقول الرسول ﷺ بناء الله في الأرض ملعون من هدمه كما أن خدمات الأوقاف الإسلامية امتدت لتشمل الحيوانات العجماوات، والتي عمل الوقف على توفير الطعام لبعضها أو مياه الشرب وغيرها من الخدمات. مما يدل على عظمة حضارتنا التي استقت من القرآن والسنة المطهرة.

ب. المقترحات:

يقترح الباحث من أجل إعادة الوقف الإسلامي إلى إداء واجباته التي أنشئ من أجلها وإثراء الحياة المعاصرة ما يلي:

١. المطلوب اليوم وقفة جادة من قبل المسؤولين في السلطات التنفيذية والتشريعية، ومن المفكرين ورجال الأعلام، هدفها أعداد الرأي العام للتفاعل الإيجابي، مع تشريعات جديدة تضمن حماية الأوقاف، وتحديد المجالات الحيوية التي يستحب أن يساهم فيها أهل الخير لمصلحة الأمة، ضمن نظام للأولويات، وستعمل هذه التشريعات بصورة أكيدة على إقناع وطمأنة أهل الخير من ذوي الإمكانيات المالية، من أجل المساهمة الفاعلة في خدمة عقيدتهم وأمتهم، من خلال بعث نظام الأوقاف من جديد، سواءً على الأصعدة التعبدية أو التعليمية، أو الصحية، أو العسكرية أو الاجتماعية، وفي بقية الميادين الأخرى... علماً بأن عالم اليوم يتجه إلى

تشجيع ما يسمى بمؤسسات المجتمع المدني التي تقوم بتقديم خدماتها المتنوعة الفعالة إلى جانب المؤسسات الحكومية، في كثير من أقطار العالم المتقدم.

٢. يقترح الباحث إيجاد صيغ قانونية تضمن احترام شروط الواقفين ضمن الميادين التي اشترطوا أن تتحرك فيها أوقافهم وعدم توجيهها إلى ميادين أخرى، إلا في الحالات الطارئة والتي تأتي ضمن توصيات من أعلى الجهات الشرعية، لأن هذا الاحترام سوف يؤدي إلى تشجيع الراغبين من أهل الخير على الإيقاف على المحاور التي يرغبون في أن توظف فيها أموالهم.

٣. العمل على تطوير ميادين الوقف الإسلامي ليس ضمن المحاور التي تناولتها هذه الدراسة فقط. وإنما ضمن المحاور التي تؤثر بشكل كبير في توجهات الرأي العام وسلوكياتهم مثل الحقل الإعلامي من كتب ومجلات وجرائد، فضلاً عن القنوات الإذاعية والتلفزيونية والمسرح.

٤. العمل على تجميع أموال الأوقاف الموجودة في الوقت الحاضر في الدول العربية والإسلامية، وهي أموال كبيرة، وتوجيهها نحو الميادين التي تخدم المجتمع في الوقت الحاضر. علماً بأن شروط الواقفين لا يؤخذ بها في الوقت الحاضر مما أدى إلى ذهاب نسبة كبيرة جداً من أموال الأوقاف إلى خزينة الدولة المركزية.

٥. إيجاد إدارة نزيهة ومحترمة تضم أهل العلم والأمانة والخبرة لإدارة المؤسسات الوقفية بالتعاون مع الواقفين.

قائمة المصادر والمراجع

أ. المصــادر:

١. القرآن الكريم.

ابن الأثير: أبو الحسن عز الدين الشيباني.

٢. أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب، القاهرة، دار الشعب، ١٩٧٠.

٣. التاريخ الباهر في الدولة الأتابكة، تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة، دار الكتب الحديثــة، بغداد، مكتبة المثنى.

٤. الكامل في التاريخ، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨.

٥. اللباب في تهذيب الأنساب، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت.

احمد: أحمد بن حنبل.

٦. المسند، تحقيق أحمد محمد شاكر، القــاهرة، دار المعــارف بمصــر، ١٣٩١هــ/١٩٧١، الإدريسي: محمد بن عبد الله.

٧. جغرافية الإدريسي (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ج٥ رومــا، مطبعــة دون بوســكو ١٩٧٥.

الأربلي: سنبط قنيتو.

٨. خلاصة الذهب المسبوك، مختصر في سير الملوك، تحقيق مكي السيد جاسم، بغداد، مكتبــة المثنى د.ت، م٢٢، ح٥-٦، الأربلي: الحسن بن أحمد.

٩. مدارس دمشق، تحقيق محمد أحمد دهمان، مجلة المجمع العلمي العربي،م٢٢، دمشق/مطبعــة الترقي، ١٣٦٦/١٩٤٧.

الأزدي: يزيد بن محمد.

١٠.تاريخ الموصل، تحقيق د. علي حبيبة، القاهرة، المجلــس الأعلــى للشــؤون الإســلامية، ١٣٨٧/١٩٦٧.

ابن أبي اصبيعة: أحمد بن القاسم الخزرجي.

١١.عيون الانبا في طبقات الأطباء، القاهرة، المطبعة الوهبية، ١٢٩٩/١٨٨٢، الاصطخــري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد.

١٢.مسالك الممالك، ليدن، بريل، ١٩٢٧.

الأصفهاني: عماد الدين.

١٣.خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق محمد بهجة الأثري، بغداد، وزارة الإعلام، ١٩٧٣.

الأشرف الغساني: إسماعيل بن العباس.
١٤. العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، بيروت، دار التراث الإسلامي، بغداد، دار البيان.
الأنصاري: أبو يحيى زكريا الشافعي.
١٥. أسنى المطالب شرح روض الطالب مطبوع مع حاشية الشيخ أحمد الرملي، القاهرة، د.م، د.ت.
الأوزجندي: قاضي خان محمود.
١٦. فتاوي قاضي خان، تحقيق أحمد قاسم، القاهرة، ١٢٨٢هـ.
ابن اياس: محمد بن أحمد.
١٧. بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦١، ١٩٦٣.
البخاري: محمد بن إسماعيل.
١٨. الأدب المفرد، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٠.
١٩. التاريخ الكبير، بيروت، دار الكتب العلمية عن طبعة دار المعارف العثمانية، ١٣٨٢/١٩٦٢.
٢٠. الصحيح مع فتح الباري، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٠/١٩٨٩.
برسباي: السلطان الأشرف برسباي.
٢١. حجة وقف الأشرف برسباي، تحقيق د. أحمد دراج، القاهرة، مطبعة العهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٦٩.
البشاري: محمد بن أحمد المقدسي.
٢٢. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لندن، بريل، ١٩٠٦.
ابن بطوطة: محمد بن عبد الله.
٢٣. تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، دار الكتاب المصري، د.ت.
البغدادي: إسماعيل باشا.
٢٤. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طهران، المكتبة الإسلامية، ١٣٨٧هـ.
البغدادي: عبد المؤمن بن عبد الحق.
٢٥. مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع. تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م.

البلوي: عبد الله بن محمد المديني.
٢٦.سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٣٩/١٣٥٨.
البنداري: الفتح بن علي.
٢٧.سنا البرق الشامي، تحقيق د. رمضان ششن، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧١.
التبريزي وآخرون. يحيى بن علي.
٢٨.شرح سقط الزند، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر د.ت.
الترمذي: محمد بن عيسى.
٢٩.سنن الترمذي (الجامع الصحيح) تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، بيروت، دار الفكر ١٩٧٤/١٣٩٤.
التطيلي: بنيامين.
٣٠.رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، بغداد، المطبعة الشرقية ١٩٤٥/١٣٦٤. ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن.
٣١.النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة عن طبعة دار الكتب ١٩٦٣. التنوخي: أبو علي المحسن بن علي.
٣٢.نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، بيروت ١٣٩١هـ/١٩٧١م. ابن جبير: أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني.
٣٣.رحلة ابن جبير، بيروت، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، دار الكتاب المصري د.ت. ابن الجزري: أبي الخير محمد بن محمد.
٣٤.غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق. ح. برجستر اسر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٢١هـ/١٩٣٢.
ابن الجزري: محمد بن إبراهيم.
٣٥.المختار من تاريخ ابن الجزري (حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه) اختيار شمس الدين الذهبي، تحقيق خضير عباس، بيروت، دار الكتاب اللبناني. ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
ابن جماعة: بدر الدين الكناني.
٣٦.تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، تحقيق فؤاد عبد المنعم، قطر. ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٣٧.تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، حيدر آباد الدكن، مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية. ١٣٥٣هـ.

ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي.
٣٨.تلبيس إبليس، القاهرة، إدارة الطباعة المنيرية د.ت.
٣٩.صيد الخاطر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٢٧م.
٤٠.مشيخة ابن الجوزي، تحقيق محمد محفوظ، بيروت، دار الغرب الإسلامي ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٤١.المصباح المضيء في خلافة المستضيء، تحقيق ناجية عبد الله إبراهيم، بغداد، مطبعة الشعب، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
٤٢.مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق زينب إبراهيم القاروط، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.
٤٣.المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، بغداد عن طبعة حيدر آباد الدكن، ١٩٩٠.
ابن الحاج: محمد بن محمد.
٤٤.المدخل، القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٦٠/١٣٨٠.
ابن حبان: محمد بن حبان البستي.
٤٥.الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان تحقيق كمال يوسف الحوت، بيروت، دار الكتب العلمية. ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
٤٦.مشاهير علماء الأمصار، تحقيق فلايشهمر، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.
الحجاوي: موسى بن أحمد.
٤٧.الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق عبد اللطيف محمد موسى، القاهرة، المطبعة الأميرية بالأزهر، د.ت.
ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني.
٤٨.أبناء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة. ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
٤٩.الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية. ١٣٤٨هـ.
٥٠.رفع الأصر عن قضاة مصر، تحقيق د. حامد عبد المجيد، محمد المهدي أبو سنة، محمد إسماعيل الصاوي، القاهرة، المطبعة الأميرية. ١٩٥٧م.
٥١.فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز، رقم كتبها وأبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الكتب العلمية. ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

ابن حزم: علي بن أحمد.
٥٢.المحلى، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى.
الحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي.
٥٣.إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، المعروف بمعجم الأدباء، بيروت، دار إحياء التراث العربي. د.ت.
٥٤.معجم البلدان، بيروت، دار صادر. ١٩٧٧م.
ابن حوقل: أبو القاسم النصيبي.
٥٥.صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة. ١٩٧٩م.
ابن حيان: سليمان بن حيان الأندلسي.
٥٦.طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، دار الكتب المصرية. ١٩٥٥م.
الخصاف: أبو بكر أحمد بن عمر الشيباني.
٥٧.أحكام الأوقاف، القاهرة، مطبعة ديوان، عموم الأوقاف المصرية. ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م.
الخطيب البغدادي: أبي بكر أحمد بن علي.
٥٨.تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت.
ابن خلدون: عبد الرحمن.
٥٩.العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، مؤسسة الأعلمي. ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
ابن خلكان: أحمد بن محمد بن أبي بكر.
٦٠.وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر. ١٩٧٧م.
أبو داؤد: سليمان بن الأشعث.
٦١.سنن أبي داؤد، القاهرة، دار الحديث. ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
ابن الدبيثي: محمد بن سعيد.
٦٢.المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله محمد بن سعد الدبيثي انتقاء محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، مطبعة الزمان.
ابن دريد: محمد بن الحسن الأزدي.
٦٣.جمهرة اللغة، بيروت، دار صادر، د.ت.
الدلجي: أحمد بن علي.
٦٤.الفلاكة والمفلوكون، القاهرة، مطبعة الشعب، ١٣٢٢.

الذهبي: محمد بن أحمد.
٦٥.تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام أحداث ٦٠١-٦١٠ تحقيق بشار عواد، شعيب الأرنؤوط، صالح مهدي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠/١٩٨٨.
٦٦.سير أعلام النبلاء ج٣، تحقيق شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مأمون صاغرجي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦.
٦٧.العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٦٣.
الرازي: محمد بن أبي بكر.
٦٨.مختار الصحاح، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٧٩.
الروذ راوري: أبي شجاع محمد بن الحسين.
٦٩.ذيل تجارب الأمم، تحقيق هـ.ف، آمدروز، القاهرة، شركة التمدن الصناعية، ١٣٣٤/١٩٦١.
ابن الساعي: علي بن أنجب.
٧٠.الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤.
سبط ابن الجوزي: أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي.
٧١.مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر آباد الدكن، ١٣٧٠هـ.
السبكي: عبد الوهاب بن علي.
٧٢.طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد القادر الحلو، محمود محمد الطناحي، القاهرة، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه. ١٩٦٧، ١٩٧١م.
٧٣.معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار، أبو زيد شلبي، محمد أبو العيون، القاهرة، مكتبة الخانجي، بغداد، مكتبة المثنى. ١٣٨٧هـ/١٩٤٨.
السرخسي: شمس الدين.
٧٤.المبسوط، القاهرة، مطبعة السعادة. ١٣٢٤هـ.
السمرقندي: نجيب الدين.
٧٥.اقراباذين السمرقندي، تحقيق نوري الخالدي، مارتن ليفي، مجلة المشرق، بيروت، جامعة القديس يوسف. ١٩٦٤م.
السمعاني: عبد الكريم بن عبد الله.
٧٦.الأنساب، تحقيق عبد الله عمر البارودي، بيروت، دار الجنان. ١٩٨٨م.
السهروردي: عبد القاهر بن عبد الله.
٧٧.عوارف المعارف، بيروت، دار الكتاب العربي. ١٩٦٦م.

السهمي: حمزة بن يوسف.
٧٨. تاريخ جرجان، بيروت، عالم الكتب. ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.
٧٩. تاريخ الخلفاء المؤمنين القائمين بأمر الأمة من عصر أبي بكر الصديق إلى عصر المؤلف، القاهرة، المطبعة المنيرية. ١٣٥١هـ.
٨٠. الحاوي للفتاوي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة. ١٩٥٩م.
٨١. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م.
الشافعي: محمد بن إدريس.
٨٢. الأم: تحقيق محمد زهري النجار، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية. ١٣٨١هـ.
أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي.
٨٣. الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق محمد محمد أحمد، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة. ١٩٦٢م.
ابن شداد: محمد بن علي بن إبراهيم.
٨٤. الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ج١، قسم١، تحقيق دومينيك سورديل، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية. ١٩٥٣م.
٨٥. الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ح٢، تحقيق سامي الدهان، دمشق المعهد الفرنسي للدراسات العربية. ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
ابن الشعار: كمال الدين بن الشعار الموصلي.
٨٦. قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، تحقيق د. نوري القيسي، محمد نايف الدليمي، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر. ١٩٩٢م.
الشوكاني: محمد بن علي.
٨٧. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، القاهرة، مطبعة السعادة. ١٣٤٨هـ. الشنطوفي: علي بن يوسف.
٨٨. بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، د.ت.
الصابوني: جمال الدين محمد بن أحمد المحمودي.
٨٩. تكملة أكمال الأكمال، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العربي. ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م. الصابي: غرس النعمة أبي الحسن محمد بن هلال.
٩٠. الهفوات النادرة، تحقيق صالح الأشتر، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية. ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م. آمدروز، ١٣٣٧هـ/١٩١٩م.

الصابي: هلال بن المحسن.
٩١.تاريخ الهلال الصابي، ح٨، نشر بذيل ذيل تجارب الأمم، تحقيق هـ.ف. آمدروز. ١٣٣٧هـ/١٩١٩م.
الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى.
٩٢.من كتاب الأوراق (أخبار الراضي والمتقي لله) تحقيق هيورث د.ت، القاهرة، مطبعة الصاوي، د.ت.
الصيرفي: علي بن داؤد.
٩٣.نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، مطبعة دار الكتب. ١٩٧٠م.
ابن طباطبا: محمد بن علي الطقطقي.
٩٤.الفخري في الآداب والدول الإسلامية، بيروت، دار صادر، دار بيروت. ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.
الطبري: محمد بن جرير.
٩٥.تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف. ١٩٧٩م.
الطرابلسي: برهان الدين إبراهيم بن موسى.
٩٦.الإسعاف في أحكام الأوقاف، القاهرة، مطبعة هندية. ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م.
الطوسي: محمد بن الحسن.
٩٧.النهاية في مجرد الفقه والفتاوي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، د.ت.
ابن طولون: شمس الدين محمد.
٩٨.أعلام الورى فيمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق عبد العظيم حامد خطاب، القاهرة، مطبعة جامعة عين شمس. ١٩٧٣م.
٩٩.الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق المجمع العلمي العربي. ١٩٥٦م.
طيفور: أحمد بن طاهر الكاتب.
١٠٠.بغداد، بغداد، مكتبة المثنى، بيروت، مكتبة المعارف. ١٩٦٨م.
العبدري: أبي عبد الله محمد بن محمد.
١٠١.رحلة العبدري، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، جامعة محمد الخامس. ١٩٦٣.
ابن عبد الظاهر: محي الدين عبد الظاهر.
١٠٢.تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق د. مراد كامل ومراجعة محمد علي النجار، القاهرة، وزارة الثقافة. ١٩٦١م.

ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد.
١٠٣. زبدة حلب في تاريخ حلب ج٢-ج٣، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي ١٩٥٤م.
ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي.
١٠٤. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان، ليفي بروفشال، بيروتن دار الثقافة عن طبعة ليدن. ١٩٤٨م.
ابن العطار: محمد بن أحمد الأموي.
١٠٥. كتاب الوقائع والسجلات، تحقيق شالميتا، كورنيطي، مدريد، المعهد الأسباني العربي للثقافة. ١٩٨٣م.
ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن.
١٠٦. تاريخ دمشق الكبير، المجلد الثاني، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق المجمع العلمي العربي. ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.
ابن العماد: عبد الحي بن العماد الحنبلي.
١٠٧. شذرات الذهب في أخبار ما ذهب، القاهرة، مكتبة القدسي. ١٣٥٠هـ.
العمري: ابن فضل الله.
١٠٨. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة، دار الكتب المصرية. ١٩٢٤م.
العمري: محمد أمين بن خير الله.
١٠٩. منهل الأولياء ومشرب الأصفياء من سادات الموصل الحدباء، تحقيق سعيد الديوه جي، الموصل، مطبعة الجمهورية. ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م.
ابن عنبة: أحمد بن علي.
١١٠. عمدة الطالب في أنساب أبي طالب، بومبي. ١٣٦٨هـ.
العيدروسي: عبد القادر بن شيخ.
١١١. النور السافر في أخبار القرن العاشر، بغداد، المكتبة العربية. ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م.
الغزي: كامل بن حسن.
١١٢. نهر الذهب في تاريخ حلب، حلب، المطبعة المارونية، د.ت.
الفاسي: محمد بن أحمد.
١١٣. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، بيروت، مكتبة خياط. ١٩٦٤م.
الفاكهي: محمد بن إسحاق.
١١٤. المنتقى في أخبار أم القرى، بيروت، مكتبة خياط. ١٩٦٤م.

ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم.
١١٥. تاريخ ابن الفرات، تحقيق حسن محمد الشماع، بغداد، مطبعة حداد. ١٣٨٦هـ.
ابن الفوطي: عبد الرزاق بن أحمد.
١١٦. تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق مصطفى جواد، دمشق المجمع العلمي العربي. ١٩٦٧م.
الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب.
١١٧. القاموس المحيط، القاهرة، المطبعة الحسينية. ١٣٤٢هـ.
قاضي خان: قاضي خان محمود.
١١٨. فتاوي قاضي خان، تصحيح أحمد قاسم، القاهرة. ١٢٨٢هـ.
ابن قاضي شهبة: بدر الدين.
١١٩. الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، بيروت، دار الكتاب الجديد. ١٩٧١م.
القاضي عياض: عياض بن موسى اليحصبي.
١٢٠. ترتيب المدارك وتنقيب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق أحمد بكر، بيروت، دار مكتبة الحياة. ١٩٦٥م.
ابن قدامة: شمس الدين المقدسي.
١٢١. الشرح الكبير، منشور مع المغني، القاهرة، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع. ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
ابن قدامة: موفق الدين المقدسي.
١٢٢. المغني، القاهرة، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع. ١٣٩٢هـ.
القرافي: أحمد بن إدريس.
١٢٣. الأحكام في تمييز الفتاوي عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية. ١٩٦٧م.
القرشي: عبد القادر بن محمد الحنفي.
١٢٤. الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، حيدر آباد الدكن. د.ت.
القرشي: يحيى بن آدم.
١٢٥. الخراج: تحقيق أحمد محمد شاكر، بيروت، دار المعرفة. د.ت.
القزويني: زكريا بن محمد بن محمود.
١٢٦. آثار البلد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، دار بيروت. ١٩٦٠م.

القفطي: جمال الدين علي بن يوسف.
١٢٧. أنباء الرواة على أنباء النحاة، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية. ١٩٥٠م.
القلقشندي: أحمد بن علي.
١٢٨. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، وزارة الثقافة. ١٩٦٣م.
ابن الكازروني: ظهر الدين علي بن محمد البغدادي.
١٢٩. مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق مصطفى جواد، بغداد.
الكتبي: محمد بن شاكر.
١٣٠. عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم، بغداد. ١٩٧٧م.
١٣١. فوات الوفيات، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة. ١٩٥١م.
ابن كثير: أبو الفداء عماد بن إسماعيل بن عمر.
١٣٢. البداية والنهاية، بيروت، دار مكتبة الحياة. ١٩٧٧م.
ابن الكردبوس: أبو مروان عبد الملك.
١٣٣. تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد العبادي ومنشور مع كتاب صلة السمط وسمة المرط، مدريد، معهد الدراسات الإسلامية. ١٩٧١م.
ابن كنان: محمد بن عيسى.
١٣٤. المروج السندسية الفسيحة في تلخيص الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق، مديرية الآثار القديمة العامة، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.
الكندي: محمد بن يوسف.
١٣٥. الولاة وكتاب القضاة، تحقيق رفت كست، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعين. ١٩٠٨م.
اللكلنهوي: محمد بن عبد الحي.
١٣٦. الفوائد البهية في تراجم الحنفية، تحقيق محمد بدر الدين النعساني، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٤٢.
ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني.
١٣٧. سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٣م.
الماوردي: علي بن محمد.
١٣٨. الأحكام السلطانية، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.
مالك: مالك بن أنس.
١٣٩. المدونة الكبرى، بغداد، مكتبة المثنى ١٩٧٠م عن طبعة بولاق ١٢٩٤هـ.

المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد.
١٤٠. الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، السيد شحاته، القاهرة، مطبعة نهضة مصر، د.ت.
مجهول: ينسب إلى ابن الفوطي.
١٤١. الحوادث الجامعة في أعوام المائة السابقة، تحقيق مصطفى جواد، بغدد. ١٩٣٢م.
المروادي: علي بن سليمان.
١٤٢. الأنصاف في معرفة الراجح على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق محمد حامد الفقي، بيوت، مطبعة السنة المحمدية. ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.
ابن المستوفي: أبو البركات المبارك بن أحمد الاربلي.
١٤٣. تاريخ اربل (نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل) تحقيق سامي الصقار، بغداد، دار الرشيد للنشر. ١٩٨٠م.
المسعودي: علي بن الحسين.
١٤٤. مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، دار الأندلس. ١٩٦٥م.
مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري.
١٤٥. الجامع الصحيح، بيروت، دار الآفاق الجديدة، د.ت.
المقري: أحمد بن محمد.
١٤٦. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر. ١٩٧٨م.
المقريزي: أحمد بن علي.
١٤٧. إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق محمد مصطفى زيادة، جمال الدين الشيال، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
١٤٨. السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة. ١٩٣٤-١٩٣٦م.
١٤٩. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة، مكتب الثقافة الدينية، د.ت. مسكويه: أحمد بن محمد.
١٥٠. تجارب الأمم، تحقيق هـ.ف، آمدروز، القاهرة، مطبعة شكة التمدن الصناعية. ١٣٣٣هـ/١٩١٥م.
ابن مماتي: الأسعد.
١٥١. قوانين الوزارة، عزيز سوريال، القاهرة، مطبعة مصر. ١٩٤٣م.
ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم.
١٥٢. لسان العرب، بيروت، دار صادر، دار بيروت. ١٣٧٧هـ/١٩٥٦م.

ابن مودود: عبد الله بن محمود.
١٥٣. الاختيار لتعليل المختار، تحقيق محمود أبو دقيقة، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة. ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.
ناصر خسرو: القياديانى.
١٥٤. سفرناحة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.
ابن النديم: محمد بن إسحاق.
١٥٥. الفهرست، بيروت، مكتبة خياط. ١٩٦٤م.
النسائي: أبو عبدالرحمن بن شعيب.
١٥٦. صحيح سنن النسائي باختصار السند، صححه محمد ناصر الدين الألباني، الرياض مكتبة التربية العربي لدول الخليج. ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
النرشخي: محمد بن جعفر.
١٥٧. تاريخ بخارى، ترجمة د. أمين عبد المجيد بدوي، نصر الله مبشر الطرازي، القاهرة، دار المعارف. ١٩٦٥م.
النعيمي: عبد القادر بن محمد.
١٥٨. الدارس في أحوال المدارس، تحقيق جعفر الحسيني، دمشق، مطبعة الترقي. ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.
١٥٩. دور القرآن في دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، بيروت، دار الكتاب الجديد. ١٩٧٣م.
النهروالي: قطب الدين الحنفي.
١٦٠. الأعلام بأخبار البيت الحرام، بيروت، مكتبة خياط. ١٩٦٤م.
النووي: محي الدين بن شرف.
١٦١. تهذيب الأسماء واللغات، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت. مكتبة المثنى. ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
ابن الهمام: محمد بن عبد الواحد السيواسي.
١٦٢. شرح فتح القدير، القاهرة، المطبعة الكبرى ببولاق. ١٣١٦هـ.
الهمذاني: محمد بن عبد الملك.
١٦٣. تكملة تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف. ١٩٧٩م.
الهمذاني: احمد بن محمد.
١٦٤. مختصر كتاب البلدان، ليدن، مطبعة بريل. ١٣٠٢هـ.

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم.

١٦٥. مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة، المطبعة الأميرية. ١٩٥٧م.

ابن الوردي: زين الدين عمر.

١٦٦. تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، بيروت، دار المعرفة. ١٩٧٠م.

الوزان: الحسن بن محمد المعروف جان ليون الأفريقي.

١٦٧. وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط. ١٤٠٠هـ.

ابن الوزير: محمد بن إبراهيم.

١٦٨. العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، بيروت، مؤسسة الرسالة. ١٩٩٤م.

وكيع: محمد بن خلف بن حيان.

١٦٩. أخبار القضاة، بيروت، عالم الكتب، د.ت.

الونشريسي: أحمد بن عيسى.

١٧٠. المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء أفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق د. محمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي. ١٤٠١هـ.

أبو يعلى: محمد بن الحسين الفراء الحنبلي.

١٧١. الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، القاهرة.

أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم.

١٧٢. كتاب الخراج، بيروت، دار المعرفة. ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

اليونيني: قطب الدين موسى بن موسى.

١٧٣. ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، المراجع العربية والمعربة، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

ب. المراجع العربية والمعربة:

إبراهيم: عبد اللطيف.

١٧٤. دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية، القاهرة، دار مطابع الشعب. ١٩٦٢م.

١٧٥. وقفية ابن تغري بردي، المؤرخ ابن تغري بردي، مجموعة أبحاث أعدتها لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٧٤م.

الأرناؤوط: محمد.
١٧٦. دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقان، زغوان، دبي، جانفي. ١٩٩٦م.
إسحاق: روفائيل بابو.
١٧٧. أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية، بغداد، مطبعة شفيق. ١٩٦٠م.
الأكوع: إسماعيل علي.
١٧٨. المدارس الإسلامية في اليمن، صنعاء، جامعة صنعاء. ١٩٨٠م.
الأنباري: عبد الرزاق علي.
١٧٩. النظام القضائي في بغداد في العصر العباسي، النجف، مطبعة النعمان. ١٩٧٧م.
أمين: حسين.
١٨٠. المدرسة المستنصرية، بغداد، مطبعة شفيق. ١٩٦٠م.
اوتس: جون.
١٨١. بابل تاريخ منصور، ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي، بغداد دار الشؤون الثقافية. ١٩٩٠م.
البرهاوي: رعد محمود.
١٨٢. المدرسة الكمالية، في الموصل وأساتذتها من آل منعة العقيلين، بحث غير منشور.
١٨٣. جرنيفل: نريمان.
١٨٤. التقويمان الهجري والميلادي، ترجمة حسام محي الدين الآلوسي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة. ١٩٨٦م.
الجميلي: رشيد.
١٨٥. دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي، بيروت، دار النهضة العربية. ١٩٧٠م.
جواد: مصطفى.
١٨٦. الأربطة البغدادية وأثرها في الثقافة الإسلامية مجلة سومر، ح٢، م١. ١٩٥٤م.
جواد وسوسة: مصطفى جواد وأحمد سوسة.
١٨٧. دليل خارطة بغداد المفصل، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي. ١٣٨٧هـ/١٩٥٨م.
جواد: مصطفى.
١٨٨. عمارات القرن السادس الفخمة، سومر، مديرية الآثار العامة، ك١. ١٩٤٦م.
١٨٩. المعاهد الخيرية النسوية القديمة في العراق، مجلة كلية الآداب والعلوم، بغداد، مطبعة المعارف، حزيران. ١٩٥٦م.
١٩٠. مدرسو مدرسة أبي حنيفة، المعلم الجديد، بغداد، السنة السابقة، ح١. ١٩٤١م.
١٩١. المدرسة النظامية، سومر، ج٢، م٩، مديرية الآثار العامة، بغداد. ١٩٥٣م.

الجيلالي: عبد الرحمن.

١٩٢.تاريخ الجزائر العام، بيروت، دار الثقافة. ١٩٨٠م.

حمادة: محمد ماهر.

١٩٣.المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصادرها، بيروت، مؤسسة الرسالة. ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

حيدر: كامل محمد.

١٩٤.المدارس العباسية القائمة في العراق، تخطيطها وعمارتها، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم الآثار. ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

الخطيب: أحمد علي.

١٩٥. الوقف والوصايا ضربان من صدقة التطوع في الشريعة الإسلامية، بغداد، مطبعة المعارف. ١٩٧٠م.

دكسن: عبد الأمير عبد.

١٩٦.الخلافة الأموية ٦٥-٨٦هـ/٦٨٤-٧٠٥م، بيروت، دار النهضة العربية. ١٩٧٣م.

دهمان: محمد أحمد

١٩٧.مدارس دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، م٢٢، ١٩٤٧م.

١٩٨.المدرسة الظاهرية، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، ك٢، م٢٣، ١٩٤٥م.

ديوان: محمد رستم.

١٩٩.المكتبات في العالمين العربي والإسلامي في العصر الوسيط، ترجمة يوسف داؤد، مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، م٩، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

الديوه جي: سعيد.

٢٠٠.جوامع الموصل في مختلف العصور، بغداد، مطبعة شفيق. ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.

رشيد: فوزي.

٢٠١.المعتقدات الدينية (ضمن حضارة العراق ح١) مع نخبة من الباحثين العراقيين، بغداد، دار الحرية للطباعة. ١٩٨٥م.

رضا: حسن.

٢٠٢.أحكام الأوقاف، بغداد، مطبعة التفيض الأهلية. ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

رؤوف: عماد عبد السلام.

٢٠٣.الموصل في العهد العثماني، النجف، مطبعة الآداب. ١٣٩٥هـ.

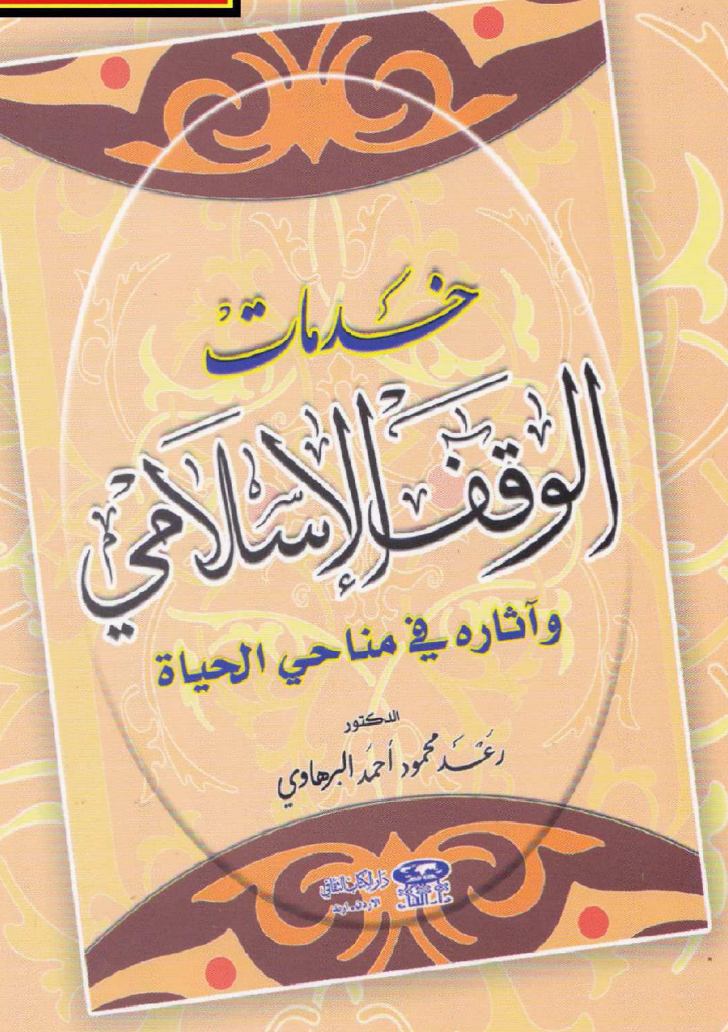
زامباور: ادوارد فون.
٢٠٤. معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة د. زكي محمد خسرو وآخرون، بيروت، دار الرائد العربي. ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
أبو زهرة: محمد.
٢٠٥. محاضرات في الوقف، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالمية. ١٩٥٩م.
زيدان: عبد الكريم.
٢٠٦. المفصل من أحكام المرأة والبيت المسلم، بيروت، مؤسسة الرسالة. ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
السامر: فيصل.
٢٠٧. الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، بغداد، مطبعة الإيمان. ١٩٧٠م.
ستودارد: لوثروب.
٢٠٨. حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، وفيه فصول وتعليقات للأمير شكيب أرسلان، بيروت، دار الفكر، ١٩٧١.
سوسة: أحمد.
٢٠٩. فيضانات بغداد في التاريخ، بغداد، مطبعة الأديب البغدادية. ١٩٦٣م.
الشريف: البشير بن الحاج عثمان.
٢١٠. أضواء على تاريخ تونس الحديث. ١٨٨١هـ/١٩٢٤م، تونس، دار بو سلام. ١٩٨١م.
شلبي: أحمد.
٢١١. الشريف: البشير بن الحاج عثمان.
أضواء على تاريخ تونس الحديث، ١٨٨١-١٩٢٤، تونس، دار بو سلامة ١٩٨١.
٢١٢. تاريخ التربية الإسلامية، بيروت، دار الكشاف. ١٩٥٤م.
شير: ادي.
٢١٣. الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للأدباء اليسوعين. ١٩٠٨م.
الصياد: فؤاد عبد المعطي.
٢١٤. الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانين، الدوحة. ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
الطباع: عبد الله أنيس.
٢١٥. الخدمات المكتبية، تاريخ الكتابة والمكتبة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١م.
العاني: محمد شفيق.
٢١٦. أحكام الأوقاف، بغداد، مطبعة الثورة. ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

عبد الباقي: إبراهيم.
٢١٧. شرح أحكام وقفية الأحباس، تونس، الشركة التونسية لفنون الرسم. ١٩٥٨م.
عثمان: فتحي.
٢١٨. الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر. ١٩٦٦م.
عثمان: محمد عبد الستار.
٢١٩. المدينة الإسلامية، الكويت، مطابع الرسالة. ١٩٨٨م.
بن عرفة: عبد الإله.
٢٢٠. الموسيقى العربية، لقاء في إذاعة لندن بتاريخ ١٩٩٥/٤/٢٧م.
عزام: عبد الوهاب.
٢٢١. الشيخ سعدي الشيرازي، مجلة الثقافة، القاهرة، العدد ١١، ١٩٣٩/١٣٥٨.
العسلي: كامل جميل.
٢٢٢. معاهد العلم في بيت المقدس، عمان، المطابع التعاونية. ١٩٨١م.
علام: عبد الله علي.
٢٢٣. الدولة الموحدية بالمغرب من عهد عبد المؤمن بن علي، القاهرة، دار المعارف. ١٩٧١م.
العمر: محمد أحمد.
٢٢٤. الدليل لإصلاح الأوقاف، بغداد، مطبعة المعارف. ١٩٤٨م.
عيسى: أحمد عيسى بك.
٢٢٥. تاريخ البيمارستان في الإسلام، دمشق، المطبعة الهاشمية. ١٣٥٧هـ/١٩٣٩م.
أبو العينين: بدران.
٢٢٦. أحكام الوصايا والأوقاف، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة. ١٩٨٢م.
الغزالي: محمد.
٢٢٧. ليس من الإسلام، القاهرة، دار الكتاب العربي بمصر، د.ت.
الكبيسي: محمد عبيد.
٢٢٨. أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية، بغداد، مطبعة الإرشاد. ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
كراتشوفسكي: أغناطيوس يوليا فوفتش.
٢٢٩. تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر. ١٩٥٧م.

كرد علي: محمد.
٢٣٠. خطط الشام، دمشق، المطبعة الحديثة. ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م.
كنار: ماريوس.
٢٣١. بغداد في القرن الرابع الهجري، ترجمة د. أكرم فاضل، المورد، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، م٢. ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
كييرا: إدوار.
٢٣٢. كتبوا على الطين، ترجمة د. محمود حسين الأمين، بغداد، مكتبة الجوادي. ١٩٦٢م.
لسترنج: غي.
٢٣٣. بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشير يوسف فرنسيس، بغداد، المطبعة العربية. ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.
لمعي: صالح.
٢٣٤. التراث المعماري الإسلامي في مصر، بيروت، جامعة بيروت العربية. ١٩٧٥م.
محمد: ثامر كامل.
٢٣٥. آليات العولمة، مجلة قضايا سياسية، جامعة صدام، بغداد، م١. ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
محمد: خضر جاسم.
٢٣٦. بغداد منذ تأسيسها حتى الغزو المغولي، دراسة في التغيرات السكانية، مجلة التربية والعلم، كلية التربية، جامعة الموصل، شباط. ١٩٧٩م.
محمود: حسن أحمد.
٢٣٧. قيام دولة المرابطين، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية. ١٩٥٧م.
مدكور: محمد سلام.
٢٣٨. موجز الوقف من الناحية الفقهية والتطبيقية، القاهرة، دار النهضة العربية. ١٩٦١م. مراد: آمنة صبري.
٢٣٩. لمحات من تاريخ الطب القديم، القاهرة، مكتبة النصر الحديثة. ١٩٦٦م.
المشايخي: كاظم أحمد.
٢٤٠. الإمام أمجد بن محمد سعيد الزهاوي، هيرندن فرجينا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
مصطفى: شاكر.
٢٤١. المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، الكويت، دار السلاسل. ١٤٠٤هـ/١٩٨٨م.

معروف: ناجي.
٢٤٢.دور الحديث قبل دار الحديث النورية، دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، م٢٧. ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.
٢٤٣.تاريخ علماء المستنصرية، بغداد، مطبعة العاني. ١٩٦٥م.
٢٤٤.المدرسة الشرابية، بغداد، مطبعة العاني. ١٣٨٠هـ/١٩٦١م.
٢٤٥.نشأة المدارس المستقلة في الإسلام، بغداد، مطبعة الأزهر. ١٩٦٦م.
٢٤٦.مدارس ما قبل النظامية، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، م٢٢، ١٩٧٣م.
المنوني: محمد.
٢٤٧.ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
النمر: عبد المنعم.
٢٤٨.تاريخ الإسلام في الهند، القاهرة، دار الكتاب الجديد للطباعة. ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م.
نيبور: كارستن.
٢٤٩.رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة محمود الأمين، بغداد، وزارة الثقافة والإرشاد. ١٩٦٥م.
النيل: يوسف إسحاق.
٢٥٠.مفتاح الدراية لأحكام الوقف والوصايا، دبي، الأوقاف والشؤون الإسلامية. ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
هنتس: فالتر.
٢٥١.المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية. ١٩٧٠م.
واتربوري: جون.
٢٥٢.الملكية والنخبة السياسية في المغرب، ترجمة ماجد نعمة وعبود عطية، بيروت، دار الوحدة. ١٩٨٢م.
يكن: زهدي.
٢٥٣.الوقف في الشريعة والقانون، بيروت، دار النهضة العربية. ١٣٨٨هـ.






دار الكتاب الثقافي
للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان
الأردن - اربد - شارع الجامعة
تلفاكس ٧٢٥٠٣٤٧ ٠٠٩٦٢٢
٠٠٩٦٢٢ ٧٢٦١٦١٦





